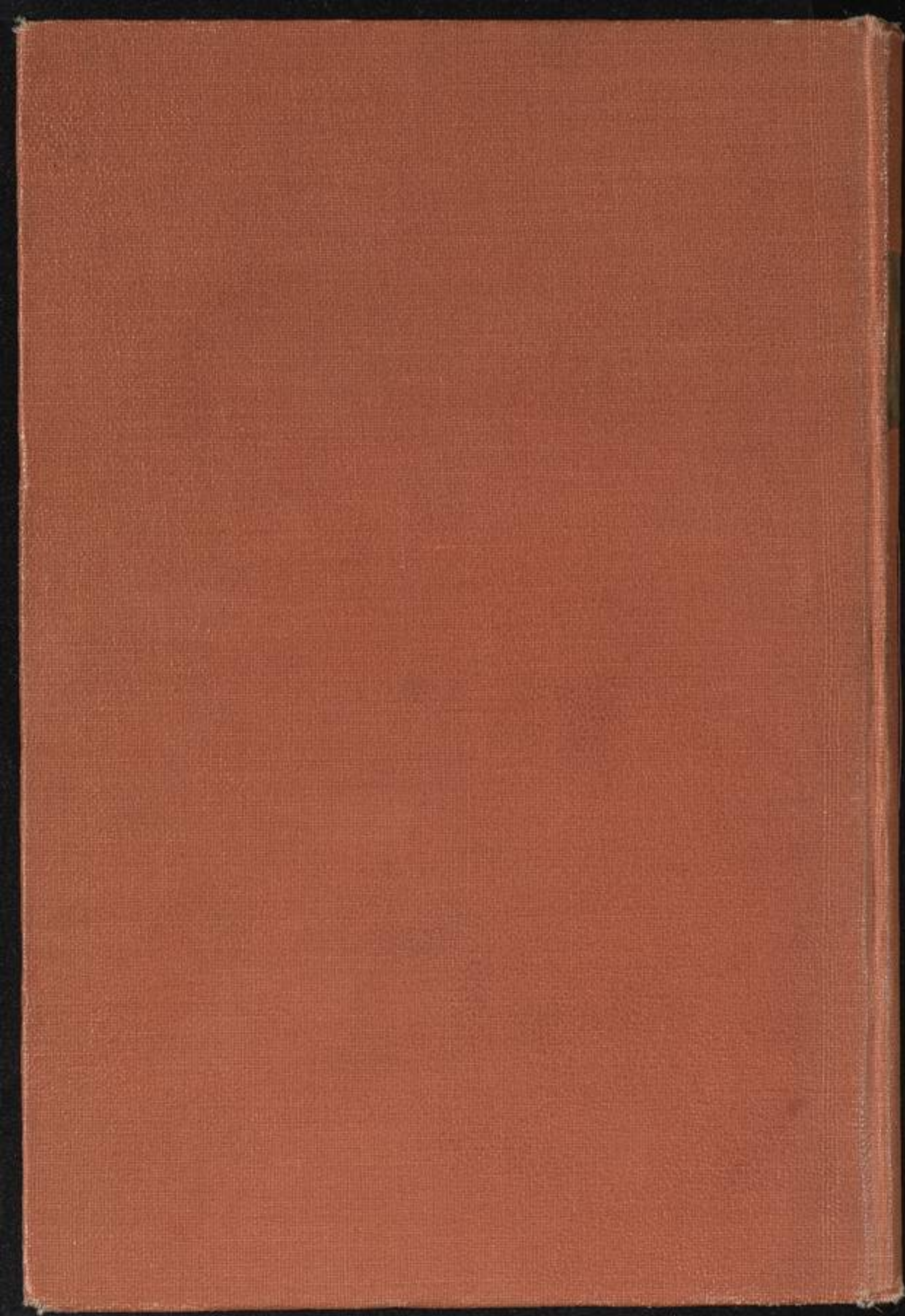




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



قبة مسرة
در الاغاق
لعمرو بن
عمر القدر

2003

1862-1870
1870-1875
1875-1880

1905
Muayyad
Misr

1888
Matkas at el mugher



عبد السلام بن محمد بن عبد الله

Salah U din Mohammad

3914

(C)

103

حَضْرَاتُ الْأَيْمَامِ فِي دَارِ السَّلَامِ

تأليف

جميل نخلة المدور

طبعة منقحة

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٧

ALIMULOO

YTI293VINU

Y9A8911

45-35141
Additional 11, 1942
IM/MLE

893.7M883

R

45-35141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

هذه رسائل وصفت فيها عصرا من عصور الاسلام قد أشرق به نور العلم .
وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجالٌ كبراء ملثوا العالم بأنار جمالهم ، وجعلت
الكلام فيها لرحالة فارسي طوَّفَهُ معظم البلدان الاسلامية في المائة الثانية للهجرة .
وطوَّفَهُ مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد كما تراه في موضعه
من الكتاب .

فكان في النفس ومن عزم بعض خلاني على أن أبقى الحديث على لسانه
إلى خلافة المأمون لوصف ما هو حقيق فيه بتجمل الاسلام من علم وحلم وعفاف .
غير أني كنت أحرص على التاريخ من أن أدخل فيه حكاية لا يحلّ جيدها صواب .
ولا يرجع باستادها إلى كتاب إذا أقيمت للفرس مراتبهم بدولة العباسيين بعد
نكبة البرامكة . لأنني أوجبت على نفسي أن أذكر الحقائق كما كانت واقتضت
الحال أن تكون . غير واصل الأشياء إلا بصورها ولا ممثل الحوادث والأخبار
إلا بما كان معلقا في الخواطر جاريا على أذهان أهل ذلك الزمان . ولذلك لما أتيت
على الأسباب التي عظمت المسلمين ونهضت بهم إلى فتوح العالم أعرضت عن ذكر
ما دعاهم من بعد إلى التواني والانحطاط . كما أني وقفت فيما وصفت من علومهم
عند حدّ الخبر المجزء من غير أن أتبع في آدابهم آثار الحكمة التي اقتبسوها من يونان ،
ولا أن أتقصي الغاية التي وصلوا إليها من الفنون والصناعات لما لا يخفى من حدوث
ذلك كله بعد الرحلة وما وجب على في تأليفها من النظر إلى عصر الرشيد لا إلى ما بعده
من الأيام .

وقد اتخذت في الكتاب شواهد الاسناد للدلالة على ما وقع في حديث الرحالة من الموافقة لما بين أيدينا من كتب الأقدمين . وإني لأرجو أن ينتفع إخواني بما أروم لهم من الخير . والله أسأل أن يرشدني وإياهم إلى الصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هذا نص ما كتبت في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب وقد بدا لي بعد ذلك ولبعض أفاضل المسلمين ضعف في بعض الروايات التي كنت عولت عليها وتحريف في ذكر بعض الوقائع الإسلامية يرجع عيبه إلى السند الذي أخذت عنه فلزم أن أرجع إلى صفحات الكتاب بشيء من التهذيب والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقل . وإني أشكر إدارة جريدة المؤيد الغراء التي ساعدتني في مراجعاتي لما ورد في هذه الرسائل من آداب الدين والملة قبل الشروع في هذه الطبعة الجديدة . فكان من وراء ذلك تهذيب تكفل بزيادة قبول الكتاب عند خاصة المسلمين وعلمائهم ونفى عنه ما كان يؤخذ عليه من بعض الأسانيد الضعيفة .

بغاء الكتاب والحمد لله بعد هذا كله روضة المطالع . وعمدة العالم والمتعلم والمراجع . وصح أن يؤخذ للدرس . كما يقتني لتزويه النفس . وقد عقدت النية إجابة لرغبة علماء المسلمين ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب على متابعة سرد التاريخ الإسلامي في شكل هذه السلسلة من الروايات . وتنسيقها في مثل هذا السبط من درر الآيات اللينات . والله يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، وهو ولي التوفيق والهادي إلى أقوم طريق .

جميل مدور

كتاب حضارة الاسلام في دار السلام

صفحة

الرسالة الأولى — كتبت في النهروان سنة ١٥٦ للهجرة

- ١ قدومي إلى العراق — ابتداء حديث الرحالة . يذكر قدومه إلى العراق . ولقاءه بعض علمائها
- ٤ ذكر البصرة وأما كتبها المشهورة — وفيه وصف عمران البصرة . وصبر أهلها على طلب العلم
- العرب البادية وننف من أخبارهم — وفيه ذكر طبائع الأعراب وكرمهم وغنائهم وأتفة
- قوسهم واستنكافهم عن طاعة الملوك . وأن القرس والروم لم يتغلبوا إلا على المنصرين
- ٨ من العرب
- الانفصال عن البصرة ولعة من أخبار الخجاج — وفيه ذكر مدينة واسط وننف من أخبار الخجاج
- ١٣ وأنه قوم ملك أمية في العراق والحرمين بمن معه من جنود الشام
- المرور بمداثر كسرى أنوشروان — وفيه وصف إيوان كسرى . وتخطئة الخليفة أبي جعفر
- ١٧ في تخريبه . وأن حفظ الأثر الجليل لجيل أثر الملوك الغالين

الرسالة الثانية — كتبت في بغداد سنة ١٥٧

- مقامي في دار السلام — يذكر الرحالة قدومه إلى بغداد . والتقاءه بالخليفة في بعض المساجد
- ٢٠ مصليا . وتزوله ضيقا على القاضي أبي يوسف
- ذكر شيء من محاسن الزوراء — فيه وصف بغداد وإقليمها وعمرانها . وبلوغ أهلها من السعة
- ٢٣ ما لم تبلغه الأمم المترفة من قبلهم
- في تقربي من رجال الدولة — يذكر الرحالة تقربه من البرامكة وآل المهلب وأمرأ شيان .
- ودخوله على معن بن زائدة . وما جرى من الحديث بحضرته عن أبي مسلم الخراساني . وأنه
- ٢٧ ما تكب أباه مسلم إلا ميلة مع أهل البيت
- لمعة من أخبار أبي جعفر — وفيه أنه يقدم الموالي في مراتب الدولة خوفا من ميل العرب مع
- ٣١ أهل البيت . ويمسك يده عن العطاء ليقعد الناس عن الخروج عليه في دعوتهم
- ذكر الفتوح وأن العدل هو الذي حفظها للمسلمين — وفيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم . وحفظ
- الخلق الراشدين سنته . ودخول الناس أفواجا في دين الاسلام . وأن العدل هو الذي
- ٣٤ فتح الدنيا للمسلمين

الرسالة الثالثة — كتبت في بغداد سنة ١٥٨

- لتقائي ولي العهد وحظوتي لديه — يذكر الرحالة السبب الذي قر به من المهدي وهو ولي عهد .
 ٣٨ وإنعام المهدي عليه بضعة في السواد ودار في بغداد تشرف على دجلة
 في تأديبي الأميرين وما توالى عليّ من نعمة بنى العباس — وفيه أن المهدي أقامه على ولديه
 موسى وهرون مؤدبا وأن الرشيد أشد من الهادي حرصا على طلب العلم
 ٤١ بقية من أخبار أبي جعفر — وفيه سهر الخليفة على تدبير المملكة . وأن قتله العلويين ظلم واقع
 عليه وصالح الدولة بخالد البرمكي
 ٤٥ في ركوب الخليفة إلى الحج — وفيه وصف موكب . وركوبه في البردة والخاتم والقضيب
 ومصير الأمر في غيابه إلى المهدي ابنه
 ٤٩ في ذكر من لقينته من الشعراء — وفيه طرف من أخبار بشار ومروان بن أبي حفصة وأبي العتاهية
 وأبي دلامة وابن المولى والسيد الخيزري وأشجع السلمي وذكر شيء من أبياتهم
 ٥٢

الرسالة الرابعة — كتبت في بغداد سنة ١٦١

وكان الرحالة على أهبة السفر إلى خراسان

- جلوس المهدي على دست الخلافة — يذكر الرحالة شهوده بيعة المهدي . وأن اخلافة صارت
 إليه بحيلة الربيع الذي أوهم الناس لما أودى أبو جعفر بأنه حتى لم يمت فأجابوه إلى البيعة
 مكرهين
 ٦٠ سياسة المهدي وخلعه عيسى ابن عمه عن الولاية — وفيه ذكر ماثر المهدي وحله . ووضع
 ديوان المظالم . ورفع الكسور . واستمالته الناس بالاحسان إليهم . ورد الضياع
 المتقبضة عنهم . ثم خلعه ابن عمه عن ولاية العهد
 ٦٣ ظهور المهدي بمنصرة العلم — وفيه لإجلاله العلم والدين . واتخاذ أهله الأدب مجالس
 يعرضون فيها بضاعتهم من فن أو علم أو صناعة ثم يميزهم على ذلك بما وسعت يده من الكرم
 ٦٩ ولوع المهدي بمزاولة الصيد — وفيه أن المهدي قد جمع إلى خلافة الملة أهبة الملك . وأنه يخرج
 إلى الصيد في العدد الثمينة والمواكب النبيلة
 ٧٣ في نية أخبار المهدي ورسالتى إلى خراسان — وفيه ذكر حج المهدي . وبنائه الكعبة . وفتح
 يده في عطاء أهل الحرمين . وسياسة مع أهل البيت ثم ظهور المقنع في خراسان يدعى
 الربوبية ويستغوى الخلق . ويعتد الرحالة إلى مرو لمقاومة دعوته
 ٧٦

الرسالة الخامسة — كتبت في بغداد سنة ١٨١

والحديث فيها تابع لرسالة كتبت في خراسان ولم تطبع هنا

- طرف من أخبار المهدي والهادي — وفيه يذكر الرحالة عوده إلى بغداد بعد طول الغيبة عنها .
 وما حدث من أخبار المهدي والهادي إلى أن صارت الخلافة إلى الرشيد ٨١
 جمال بغداد بالرشيد والبرامكة — وفيه إقامة الرشيد أبه الملك . واسترسال أهله في الدعة
 والنعيم . وأن البرامكة وأولادهم زينة الملوك ٨٦
 ترف البناددة وانغماسهم في طيبات العيش — وفيه ذكر تجارهم مع جميع الأمم واجتماع محاسن
 الدنيا عندهم وإقامة النحاسين سوقا لبيع الجوارى في مدينتهم ٩٠
 دخول علي هرون الرشيد — يذكر الرحالة ما لقي من أنس الرشيد به . وما وجد بنفسه من
 الاضطراب في تقديم المأمون على الأمين بالولاية مع أن بني هاشم ماثلون إلى الأمين ... ٩٢
 الموازنة بين الرشيد وأبي جعفر — وفيه أن الرشيد من فضلاء الملوك وعقلائهم . وأنه أصلح
 من جده المنصور سياسة . يقم في الرعية سلطانه سياسة الرفق اتساعا بالجميل وتقربا من
 الخير . حلم ولا ظلم ورق ولا عنف ٩٦
 البرامكة كنيسة محاسن الملة وعنوان دولتها — وفيه أن الدولة قائمة بجي البرمكي . وأن إصدار
 الأمور إلى الفضل وجعفر . وأن النوادر التي بين الرشيد وجعفر لم يكن مثله بين أخوين ... ٩٩
 صلاح التجارة والمعاملة — وفيه كلام عن السكة . وما قام به الرشيد من تقديرها بعد أن
 تقاعش الغش في التجارة . وما كانت في نيته من فتح البحر عند السويس لوصل البحر
 الرومي ببحر القلزم ١٠٧
 زينة الدولة بالعلم والأدب — وفيه ذكر محاسن دولة الرشيد . وأنه اجتمع ببابه من العلماء
 والادباء والشعراء ما لم يجتمع على باب خليفة غيره قط وأن زينة مجالسه ثلاثة أبو نواس
 والأصمعي وإسحق النديم . كلهم إمام في الأدب ولكن غلب على أن نواس الشعر وعلى
 إسحق الغناء وعلى الأصمعي النوادر والأخبار ١١٢

الرسالة السادسة — كتبت في بغداد سنة ١٨٥

- بيت الرشيد — وفيه صلاح الرشيد وتقواه . وذكر مواليه وجواريه وترف ذويه وذكاه
 المأمون من أولاده . وتعلق أمور بيته بمسروق العبد . وصنع زبيدة زوجه أعمالا يتباهى
 بها الملوك ١١٩
 جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم — وفيه مساماة دورهم دور الرشيد في البهاء والاشراق . وقصد
 المؤمنين إليهم من أبعد الآفاق . وذهاب كرمهم مثلا في سعة العطاء والانفاق ١٢٧

- الدولة في خلافة الرشيد — وفيه أن دولة الرشيد أوسع دول الخلفاء رقة مملكة . وأنه يغالب
الروم ويسلط عليهم سيف الاسلام ليس طمعا فبا يحملون إليه من الجزية ولكن لتعزيز الملة
والدولة . وأن السياسة التي أتعبت خاطره كانت متجهة إلى إذلال العلويين في المغرب ... ١٣٥
- عمران بيت المال — وفيه ذكر المحمول من عين وورق وأمنعة إلى بيت المال . وتدوين
الخراج في الدفاتر لإيجاد الموازنة بين دخل الدولة ونرجحها ... ١٤١
- مجلس الغناء بدار الرشيد — وفيه خبر الخلاف الذي وقع بين إبراهيم المهدي وإسمحق التميمي
في صناعة الأصوات . وأن هذه المناظرة داعية إلى الاجادة في الغناء ... ١٤٥

الرسالة السابعة — كتبت في بغداد سنة ١٨٥

- في ذكر آداب العرب — وفيه يذكر الرحالة شهوده مجالس الأدباء والشعراء بدار الرشيد .
وتعريب البرامكة كتب الفلاسفة من قوم يونان . وبلغ العرب الغاية التي يرومونها من علم
أو أدب أو صناعة في أقصر مدة من الزمان . وأن مثلهم في سرعة تحصيل العلوم مثلهم
في سرعة فتوح البلدان ... ١٥٩
- الطب والأطباء — وفيه أن النصارى برعوا المسلمين في الطب . وتقدموا عليهم بذلك
في دور الخلافة ... ١٦٢
- النجامة وعلم الأفلاك — وفيه أن الفرس برعوا العرب في علم النجامة وأن المقرب لهم في الاسلام
الخليفة أبو جعفر . وأن أحمد التباوندي صور الدنيا للرشيد ... ١٦٥
- الحديث وعلوم الشرع — وفيه أن الحديث هو العلم الذي صبت إليه أفئدة المسلمين . وأن مالكا
أصح الناس حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ... ١٦٩
- في تدوين اللغة — وفيه أن اللغة إنما قيدت اضطرارا إلى تفسير القرآن . وأن السابق إلى
تدوينها هو الخليل بن أحمد . وأن أهل الورى يحافظون على قوام اللسان العربي . وأن
كلام السوق وألفاظ المعربين داخلية في لغة الحضارة ... ١٧٢
- الشعر في البداوة — وفيه ملكة العرب في قول الشعر ونظر في المعلقات السبع . وإجادة
الشعراء في ذكر الربوع والأطلال ووحشة الديار إلى حيث يقف حد البلاغة ... ١٧٥
- للشعر في الحضارة — وفيه أن الشعر في الحضرة أرق منه في البداوة . وأن أزمته في الاسلام
ثلاثة : زمن عبد الملك وشعراؤه جرير والفرزدق والأخطل . وزمن المنصور وشعراؤه من
تقدم ذكرهم . وزمن البرامكة والكلام في شعر أبي نواس وأبي العتاهية ... ١٨١
- الغناء وبحريه وإصلاحه — وفيه يميز الأصوات . وذكر من كان أصل الغناء عند العرب
ومكانة إبراهيم الموصلي وابنه إسمحق من هذه الصناعة ... ١٨٨

- لمعة في علوم الفلسفة عند العرب — وفيه إشارة إلى ما حصله العرب من العلوم الرياضية .
 ١٩٣ والعلوم المنطقية والعلوم الطبيعية . والعلوم الإلهية وذكر ما لهم فيها من تعريب أو تأليف ...
 أدب السير والحكايات — وفيه ثناء جميل على كتاب كاثيلة ودمية . ونظرة في كتاب ألف ليلة وليلة
 وتعريبه عن الفارسية . وتصرف النساخ فيه وأنه من أغرف الكتب التي وضعت في غابر
 الدهر
 ١٩٨ تدوين الأخبار وأيام الناس — وفيه أن أيام العرب كانت محفوظة في الشعر أو متناقلة على
 الألسنة بطريق الاستناد إلى أن سطرت في الكتب في زمن الخلفاء
 ٢٠٦

الرسالة الثامنة — كتبت في بحر تونس سنة ١٨٦

بعد انصراف الرحالة من بلاد الروم

- رسالتى إلى قيصر الروم — وفيه ذكر ألقاف الرشيد إلى قيصر الروم . وأن الرحالة هو الذى
 حملها إليه . وبلغه ما يريد الرشيد من موافقته على بنى أمية لينتزع الأندلس من أيديهم ...
 ٢١١ المرور بالكوفة وبلاد الشام — وفيه ذكر مسير الرحالة إلى الكوفة . وحسب الكوفيين
 لأهل البيت . وشئى من محاسن الشام وأنها بلاد مباركة من الله ولكن غلب على أهلها
 الشقاق فقلبتهم الأم على مملكتهم
 ٢١٤ وصف دمشق وأنها بهجة البلدان — وفيه أن دمشق ماء ونماء . وأن أهلها أحسن الناس خلقا
 وخلقا . وذكر تنف من أخبار بنى أمية حدث بها الرحالة مغنية كانت للوليد بن يزيد ...
 ٢١٩ جامع الوليد المعروف بالجامع الأموى — وفيه أن الوليد بن عبد الملك عوض النصارى عن
 نصف الكنيسة التي كانت موضع هذا الجامع بعدة كنائس صالحهم عليها . وأنه استقدم لبنائه
 صناع الروم . وأقام فيه العمدة المجزعة وصور على الحيطان المدن والأشجار والأزهار .
 واتخذ فيه قناديل الذهب وصيره نزهة العالم
 ٢٢٦ المرور ببلبك ودكوب البحر من بيروت — وفيه وصف آثار بلبك وأنها من بناء الروم لا من
 بناء سلبان . وقد دفعوها بالحيل الهندسية والقوة الآدمية وقصدوا منها المعجزة ليظهروا
 خضاعة ملكهم لأهل المشرق . وفيه كلام على بيروت وأنها مدينة العلم والحكمة ...
 ٢٣٠ لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة — وفيه بيان عادات الفريجة وادثار علومهم في ذلك الوقت
 إلا ما حفظه الرهبان في أديارهم . وذكر لقاء القيصر . وأن خاطره يتوافق مع خاطر جعفر
 البرمكي في العدول عن مناجرة الأمويين
 ٢٣٥

الرسالة التاسعة — كتبت في المشاعر المباركة سنة ١٨٦

- المرور بتونس من بلاد المغرب — وفيه خبر الأغالبة في تونس . واستقواء أهل البيت
 في المغرب . وذكر القرآن الذى كتبه عثمان بمحض من الصحابة
 ٢٤٢

- في ذكر الاسكندرية — ومعايش النصارى فيها من الرغد . واختلاطهم مع المسلمين وجهرهم
بالانجيل وإخراج آيتهم إلى الأسواق... ٢٤٥ ...
- الديار المصرية والنيل — وفيه وصف البلاد . وعمرانها بالناس واتساع أسباب الكسب
وما يفيض عليها من الخير والبركة... ٢٤٩ ...
- في وصف الأهرام — وفيه صفة الأهرام . وبنائها لحدودا للقراعة الذين كانوا يقولون
بالرجعة إلى هذه الديار . وأن مثلها دليل على ظلم القراعة واشتداد أمرهم على الرعية... ٢٥٣ ...
- إلى عذاب بخدة فالبلد الحرام — وفيه اجتياز الرحالة بأرض مصر إلى عذاب في طرف البر .
وما كان من احتياله لاستصحاب الماء إلى الصحراء... ٢٥٦ ...
- في ذكر المشاعر المباركة — وفيه وصف مكة المكرمة . وتبرك الرحالة بوقادته على البيت الحرام
وذكر ما أحدث فيه من البناء... ٢٦٢ ...
- موافاة الرشيد بالمدينة — وفيه وصف المدينة المنورة وما حوت من المشاهد الكريمة والآثار
المباركة... ٢٦٧ ...
- الرشيد والبرامكة في مكة — وفيه تحول الرشيد عن البرامكة بحيلة الفضل بن الربيع الذي أوغر
صدره عليهم من العداوة ومصانعة الرشيد بلعفر حتى لا يئتم إلى ما يريد به من المكروه .
وإبعاده الرحالة عن البرامكة في رسالة بعث بها إلى الرقة... ٢٧١ ...

الرسالة العاشرة — كتبت في بغداد سنة ١٨٧ للهجرة

أصبت بسادة كانوا عيوناً بهم سقى إذا انقطع الغام

- وفيه رجوع الرحالة متخفياً إلى بغداد وقتل جعفر البرمكي... وطلب الرشيد الرحالة لينكل به
وفروع التوائى في الدولة بعد نكبة البرامكة — وفيه عم الخطب في الدولة بعد نكبتهم . ومصر
الأمر بعدهم إلى رجال لا عزمة عندهم ولا عزيمة . واتفاق الناس صدعا واحدا في لوم
الرشيد على قتلهم... ٢٨٢ ...
- فما يتحدث به الناس من أسباب فلك الرشيد بالبرامكة — وفيه يذكر ما دار على ألسنة العوام
من سبب نكبتهم . ويذكر أنه ما نكب البرامكة إلا ميلهم مع أهل البيت... ٢٩٠ ...
- خاتمة الكتاب — يحتم الرحالة حديثه بنظرة عامة في الاسلام وانحيازه إلى دول ثلاث كبيرة
”العلوية والأموية“ :

- ثم ينظر في أحوال العباسيين ويذكر حيلهم إلى خلافة الرشيد ويقول إن دولتهم تحتاج إلى رجال
عقلاء يديرون سياستها ويديرون أمرها . وأنها إذا سقطت في يد خليفة قليل الخبرة بأمور
الملك لا تقوم لها قائمة بعد ذلك . وهذا آخر الكتاب... ٢٩٥ ...
- جدول الكتب المستند إليها حديث الرسالة... ٢٩٨ ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الأولى

قدومي إلى العراق

أتيت مدينة السلام في السنة السادسة والخمسين بعد المائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم لآتخريج في الفقه على لسان الشريعة يعقوب بن إبراهيم بن خنيس الأنصاري^(١) ، وكان خليلاً لأبي (رحمه الله) على صفاء بينهما لم يكن بين اثنين ، فركبت البحر من هُرْمُز في رِيح رُخَاء زَجَتْ مَرَكِبَنَا إِلَى الْبَحْرَيْنِ فَأُطْرَافِ الْعِرَاقِ أَهْنًا تَرْجِيَةً ، فلما حاذينا الساحل مما يلي الْبَصْرَةَ طَلَعَتْ عَلَيْنَا رِيحٌ عَاصِفَةٌ ، وانحدر بنا الموج إلى منعرج في البر كله رمال ومهاوى ماء . فبتنا ليلتنا فيه على أشد ما يكون من الخوف إلى أن طلع الفجر ، فأقبلت علينا من صدر البحر سفينة مملتنا إلى عبادان ، وأرست بنا على مُطَلٍّ من خشبات تنتهى المراكب إليها ولا تتجاوزها خوفاً من الجزر^(٢) لثلاث تلحق بالأرض وتغوص في الطين الذي يأتي دجلة به^(٣) في انسياقه ، وهذا البحر في مسامحة العراق شديد على السَّفَرِ ، ولا يُجْمَدُ منه إلا عُمران سواحله بالناس لما فيها من مغاصات^(٤) الدر والياقوت والعقيق

(١) هو أبو يوسف القاضي .

(٢) المسعودي ١ : ٥٠ .

(٣) تقويم البلدان ٣٠٩ .

(٤) ابن خرداذبة ٦١ والمسعودي ١ : ٥٢ .

وغير ذلك ، وهى باب واسع لطلاب الرزق ، وللغواصين عليها أخبار غريبة
فما سمعت ، حتى قيل إنهم يشقون آذانهم للتنفس ويجعلون فى آناهم القطن
ويصطنعون وجوها من الذبيل كالمشاقيص ، ويدهنون أبدانهم بالسواد خوفاً من
أن تبتلعهم دواب البحر ، ويصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتنفيرها عنهم ،
فاذا بلغوا القعر عصروا دهناً يضىء منه البحر ليرى الأصداف التى يتولد فيها اللؤلؤ ،
وتكون مدفونة فى أرض البحر رملاً كانت أو طيناً . ومما يزعمون^(١) فى هذا اللؤلؤ
أن تولده من مطر نيسان إذ تكون الصدفة مفتوحة على وجه الماء فتقع عليها
القطرات فتترى فيها درراً رائقة الصفاء .

ولما أخذت نصيباً من الاستراحة انتقلت على سفين إلى البصرة ونزلت بها
فى موضع^(٢) يعرف بسكة بنى سمرة بازاء دار الهيثم بن معاوية أميرها . وقد طاب لى
فيها المقام بما وجدت من ائتناس أهلها إلى الغريب حتى ينسى فى جوارهم أهله^(٣)
بما يأنس عندهم من مظاهر الأتس والمودة ، ووجدت لهم صبراً على طلب العلم
يتخذون المكاتب^(٤) لأولادهم وحقق العلم لأدبائهم ، وتشدد إليهم رجال الطلب من
جميع الوجوه ، لأن لهم من الأدب المكان الذى لا يُرقى ، غير أنى لم أرفيهم إلا
وهن البنية سقيمها وأصفر اللون كاسفه^(٥) ، وذلك ناشئ فيهم من عفونة الماء
ووقوع إقليمهم فى مهاب الرياح المختلفة التى تبدل فى اليوم الواحد ألواناً وضروباً ،
فيجبرون على لبس القمصان مرة والمبطنات أخرى ، ولذلك سميت مدينتهم
بالرعاء ، أشد الفرزدق^(٦) :

لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعاء لى وطننا

(١) الدميرى والقزوينى والقرمانى .

(٢) ياقوت ١ : ٦٤٤

(٣) ابن بطوطة ٢ : ١٠

(٤) الألبسى ١ : ١٧٧

(٥) الأغانى ١٧ : ٧٨

(٦) ابن بطوطة ٢ : ١٦

وقد لقيت فيها جماعة كثيرة من الأدباء مثل عبد الكريم بن أبي العوجاء والمؤرّج السدوسي الرواية ، والحسن بن هاني الشاعر^(١) والنضر بن شميل تلميذ الخليل بن أحمد وواصل بن عطاء الذي اعترل مجلس الحسن البصري لمخالفة في المذهب ثم سمي الناس من ذهب مذهبه بالمعتزلة^(٢) لذلك ، وشهدت حلقة عبّة القحوي وأبي زيد الأنصاري ويونس النحوي ، وله أعظم^(٣) حلقة في البصرة من خلق علمائها ، وسمعت الحديث عن سفيان بن شعبة الثوري وشعبة بن الحجاج العنكي ، غير أني ما اصطفت منهم لمحادثات الأدب إلا الخليل بن أحمد ، لأنني وجدته أوسعهم عقلاً^(٤) ، وأحضرهم رواية ، لا يساميه في علو الخاطر إلا صالح ابن عبد القدوس الشاعر ، ولكنني تحاميت مجلسه لما يتهم به من الانحراف عن السنة^(٥) ، وإن كنت لا أبخس عقله حقه من التعظيم . وقد سمعت أنه يجهد نفسه في طلب الدنيا والتماس السعة منها ثم لا يحصل على القليل إلا بعد عصب الريق وفي قوله :

لو يرزقون الناس حسب عقولهم ألفت أكثر من ترى يصدق

إشارة إلى ما هوفيه ، وأن النعمة تصيب غير أهلها ، بخلاف الخليل بن أحمد فانه متقل من الدنيا راض منها باليسير ، والملوك تبذل له المال^(٦) ولا يقبل منهم شيئاً مع مكانه من الحاجة إليه . وقد اشتهر فضله بين الناس بعلم العروض ، وضعه على دوائر خمس تتجزأ منها الأبحر الخمسة عشر ، غير أن سموه في العلم لا ينفرد بأدب الشعر وحده ، إذ له في اللغة كتاب سماه العين وأودعه من عيون العلم^(٧) ما هو زينة ونفخ لدولة الاسلام .

(١) هو أبو نواس ذكر الأغاني ٦ : ١٧٩ أنه كان مقماً بالبصرة في صباه .

(٢) المستطرف ١ : ١٢٦

(٣) العقد ٣ : ١٣٧

(٤) ابن خلكان ١ : ٢١١

(٥) الأغاني ١٣ : ١٥

(٦) الشريشي ٢ : ٢٦٨ والأبشهي ١ : ١٧٦

(٧) المقدمة ٥٠٢ وابن خلكان ١ : ٣٤١

ذكر البصرة وأماكنها المشهورة

ولقد ظننت البصرة لأول وهلة ليست بالمفرطة الكبر ، فلما طفت في ساحاتها ، وجلت في أرباضها ومحلاتها ، بدا لي أنها متسعة البقعة كثيرة العمران ، قل أن يكون بها موضع غُفِّل من العمارة خلو من السكان . ومبانيها على الغالب من اللبن إلا ما كان من المسجد الجامع فإنه مبني بالصخر والحصى على أتم إحكام وأبدع صناعة ، وأول من بناه عُثْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ ، أقامه من القصباء لأجل أن يترعه متى شاء ثم يعيد إقامته ، فلما جاء أبو موسى الأشعري بناه باللبن وطلى جدرانته بالأصباغ . ثم جاء زياد فزاد فيه السقيفة التي في مقدم المسجد ^(١) ، وحمل إليه العمدة المزخرقة من الأهواز ورفع جدرانته بالججر والحصى ^(٢) ، ثم لم تزل عناية الولاة به من بعده إلى أن تمت زينته وكثرت له الوقوف الواسعة . وفيه اليوم قاض يفرض النفقات ويحكم في مائتي درهم وعشرين دينارا فما دونها ^(٣) تخفيفا عن الدواوين التي تنظر فيما هو فوق ذلك من قضايا الناس .

ثم سرت من هذا الجامع إلى مسجد علي عليه السلام ، وإذا صحته مفروش بالحصباء الحمراء ، وله أوقاف جزيلة مما وقف له الفرس ومن يقول بخلافة أهل البيت ، وهم يجتمعون فيه ويتبركون بزمارة ، كأَن وعيد أبي جعفر لم يحدد منهم نفوسا راجعة إلى غرضه فيما أوجد من الفرقة بين العلوية والعباسية . ووجدت في بعض مقاصيره مصحفا عليه أثرداغ مثل الدم الجاف ، يقال إنه المصحف الذي كان يقرأ فيه عثمان حين قتل ^(٤) ، وبعد أن قضيت زيارته المباركة جلت في أسواق المدينة فرأيت التجارة فيها على أحسن ما يكون من الرواج ، ولا غرو

(١) الاغانى ١٧ : ٢٨

(٢) ياقوت ١ : ٦٤٢

(٣) الماوردى ١٢٣

(٤) ابن بطوطة ٣ : ١٠

فإن هي إلا قُرُصَةُ العراق والشام وخراسان وما إليها من البلدان العالية مما يكسبها حسن الموقع ، بحيث لا يصدر شيء من هذه البلدان ولا يرد إليها إلا من البصرة^(١) ، ولذلك استفحل فيها العمران وكثرت بها المصانع والصنائع إلى أن صارت واسطة عقد بلاد العرب وقبة الاسلام .

ومما يذكر عن بنائها ما حدثني به الهيثم أميرها أن المسلمين افتقروا في صدر الدولة إلى منزل يتزلون به وإذا دهمهم عدو لحثوا إليه واعتصموا به ، فبعث عمر (رضي الله عنه) عتبة بن غزوان المقدم ذكره وأوعز إليه أن ارتد لنا موضعا في جهة العراق قريبا من المرعى والماء والمخضب ، فكتب له من البصرة إلى وجدت أرضا كثيرة القضة في طرف البر إلى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء^(٢) فكتب إليه عمر أن يتزها بمن معه فوق تمصيرها في السنة الخامسة عشرة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما جلست إلى الخليل العالم الأمثل ودار بيننا الحديث على أيام الناس الأول ، أخبرني أن البصرة إنما اختطها العرب نكاية بالفرس لتحويل التجارة من سواحلهم إليها ، وذلك أنهم لما صالت منهم الأجناد ، واتسعت بين أيديهم أحبوا أن يبنوا هذه المدينة قُرُصَةً لجميع المشرق ، ففشت العارة فيها في برهة يسيرة حتى غصت بالناس على ما رجبت أرجاؤها . يقال إنه كان فيها من مقاتلة العرب لأيام زياد ثمانون ألفا^(٣) ، وأخبرني الهيثم أن أهلها يبلغون اليوم خمسمائة ألف من الرجال ، بدليل المال الذي فرقه فيهم أبو جعفر ، وكان ألف ألف درهم فلم يصب الرأس منهم إلا درهمين^(٤) .

(١) المسعودي والقزويني .

(٢) ياقوت وابن حوقل ١٥٩ .

(٣) ياقوت ١ : ٦٤٤ .

(٤) الشريشي ٢ : ٤٣١ .

وتبعد البصرة عن عبادان حيث الشاطئ نحو ساعة زمانية ، وعندها تختلط مياه دجلة والفرات (١) وتصب في البحر الملح بعد أن تفقد عذوبتها ، لأن المد يأتي إلى ما فوق البصرة بأميال ، فإذا امتزج به ماء دجلة صار ملحا (٢) ، ولقد يخال الرائي لأول وقوع المد أن البلاد صارت غديرا ، كما وقع لحمزة بن عبد الله أمير البصرة لعهد ابن الزبير ، وقد ركب يوما إلى الفيض ، فقال : إن هذا الغدير إن رفقوا به يكفهم صيفهم هذه ، فلما كان بعد ذلك ركب إليه فوافقه جازرا فقال قد رأيته ذات يوم فظننت أن لن يكفهم ، فقال له الأحنف بن قيس : أيها الأمير إن هذا الماء يأتينا ثم يغيب عنا ثم يعود ، فحجل حمزة ، وعاب عليه الشعراء ذلك في أبيات لهم يعرفها عامة الناس .

ولقد تصفحت في البصرة كثيرا من قصورها المشرفة ، واستقرت أماكنها المشهورة بما وعيت عنها من الأنباء ، وأحسن ما استظرفت منها قصر لمحمد بن سليمان الهاشمي (٣) ، وهو أوفر بنى العباس مالا وأعظام لشاعر نوالا ، تغل ضياعه كل يوم مائة ألف درهم (٤) ، وقد بناه على بعض الأنهار واستفرغ في زينته جهده ، واتخذ في جنانه المها والغزلان والنعام وأنواع السباع والطيور المغردة ، بجمع فيه محاسن الحضارة والبداءة ، وفيه يقول الشعراء :

زروادى القصر نعم القصر والوادي في منزل حاضر إن شئت أو بادي
ترقى به السفن والظلمات حاضرة والضب والنون والملاح والحادي
إلى آخر الأبيات .

وأما القصور التي بقيت بعد أربابها فانها لكثيرة في البصرة شأدت منها قصرا لأوس بن ثعلبة (٥) الذي ولي العراق وخراسان في دولة الأمويين ، وهو قريب

(١) المقدمة ٥٥

(٢) القزويني والاصطخري والمسعودي .

(٣) ياقوت .

(٤) المسعودي .

(٥) الأغاني ٣ : ٣٦ وياقوت .

من المربد^(١) ، وعليه قباب مرفوعة يقص الجوّ بها صعودا ، ومن حوله نمائل
وارفة ، كأن الأيام تزيدها جدّة ونضارة ، وتلبسها من الخضرة حلة قشبية .
ولله ابن أبي عيّنة حيث يقول في وصفها هذه الأبيات :

بغرس كأبكار الجوارى وتربة كانت ثراها ماء ورد على مسك
يذكرني الفردوس طورا فأرعوى وطورا يواتيني إلى القصف والهتك
وسرّيب من الغزلان يرتعن حوله كما استلّ منظوم من الدر من سلك
وورقاء تحكى الموصلى إذا غدت بتغريدها أحجب بها وبمن تحكى
فياطيب ذاك القصير قصرا ونزهة بأفيج سهل غير وعّر ولا ضنك

وشاهدت قصر الأخنف بن قيس^(٢) المقدّم ذكره في رجة المنجاب^(٣) ،
ودارا لأنّس بن مالك^(٤) خادم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإيوانا للزبير بن العوام^(٥)
تنزله التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وآخر لعبيد الله
ابن زياد يسمى البيضاء^(٦) ، وهو بمقرّبة من الموضع الذي خطب فيه أبوه خطبته
البراء^(٧) التي أخذت بقلوب البصريين وقد تداعت جدرانها فلم يبق منه إلا أثر
دارس ورسم شاخص .

(١) الأغاني ١٣ : ١٠

(٢) الأغاني ١٧ : ٥٦

(٣) محلة ذكرها الأغاني ١٢ : ٣

(٤) ياقوت ٤ : ١٠٩

(٥) المقدمة ١٧٨ والمسعودي ١ : ٣٣٣

(٦) القزويني ٢٠٦

(٧) سميت بذلك لأنه لم يفتحها بالحمد لله والثناء عليه .

العرب البادية وتنف من أخبارهم

ولقد أتيت مِربد البصرة عن طريق المهالبة (١) فسكة المِربد (٢) ، فإذا هو
 مساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال ، وتحط بها الرحال ، وتعلق فيها الأشعار التي يتناشدها
 العربُ في أيام من الشهر معلومة يكون لهم بها مجالس ويبيعون ويشترُونَ (٣) ،
 وهناك موضع يقال له شمس الوزانين وفيه مسجد صغير يعرف بمسجد الأنصار (٤) ،
 قد طلي بالأصباغ ولم ترفع صوامعه إلا قليلا ، ووجدت صحراء البصرة من وراء
 المِربد وعرة مرملة لا يغرد عليها طير ولا ينبت فيها شجر غير النخيل لفقدان الماء
 فيها ، وخبرات البصرة تردها من الأبلّة ، وهي مدينة عامرة بالناس خصبة
 الجنباب كريمة البقعة يشقها جدول من دجلة ولا تخترق أشعة الشمس أرضها
 لالتفاف شجرها بعضه على بعض ، وفي مرساها مجتمع كثير من مراكب
 الهند والصين ، لأن الرّيح فيها واسع لأهل التجارة . وأما النخيل المتصل فيما بينها
 إلى البصرة فأعلى الصحراء فإنه كسب وافر للناس ، يقال إن ثمنه يعدل (٥)
 ما يحمل إلى بيت المال من الأقاليم كافة .

وإلى ما وراء المِربد في ظاهر البصرة عرب من عامري (٦) وقيس عيلان كنت
 أختلف إلى أحيائهم وأبيت ليلتي عندهم وآكل من ثريدهم وأشرب من ألبان
 بوفهم وأجلس على الوبر والأنطاع ، وأعني أحاديثهم باقبال واستمتاع ، وأشهد خلق
 القصّاص فيما يتحدثون به من أيام العرب وأخبارهم فوجدتهم يتفاخرون بتأليف
 الخطب وقول الشعر والسياف والضيف ، ولا يهتئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبع

(١) الاتليدي ١٠٧

(٢) الأغاني ١٣ : ٦٤

(٣) تقويم البلدان ٣٠٩ والأغاني ٥٠٧

(٤) الأغاني ١٧ : ١٨

(٥) ياقوت ١ : ٦٥٠

(٦) في الأغاني ٤ : ١٩٣ أن جماعة منهم نزلوا بظاهر البصرة قريبا من ذلك الوقت .

فيهم أو فرس تُنتَج، وعلمت من أخبارهم أنهم لا يأتون الفحشاء بل يعاقبون الزناة بالقتل (١) وذكر هؤلاء القصاص أن جميلاً لما سأله خُلائه أن ما عملت مع بُنيّة طول تلك الأيام قال كنت أمتع عيني من وجهها وسمعي من حديثها، ولم أمتد إليها يداً غير مرة واحدة، أخذت يدها ورفعتها إلى صدرى لتشعر بخفقان قلبي (٢)، وهذا خبر ينقلونه عن أكابر الرواة فأحببت أن أكتبه إليك ليدلك على ما وضعه الله في صدورهم من نبل الهمة وعفاف النفس.

وقد بقي في خاطري ذكر عذب لاجتماعي بهؤلاء العرب، وقد طاب لي الجلوس إلى قيس عيلان أكثر منه إلى بني عامر، لأنني وجدت فيهم بياناً وفصاحة (٣) غير أنهم لم يلبثوا في البصرة إلا قليلاً حتى شالت نعامتهم، فصرت أتوجه إلى بني عامر وعرفت بالمقام بينهم كثيراً من خلال العرب المحموده، وقد أعظمت رواج الأدب بينهم، والكتابة عندهم مفقودة (٤) غير أنهم يحرون على قواعد اللغة في أشعارهم ومحاوراتهم بما ليس في الإمكان أصح منه، ولهم في كلامهم من الأمثال الحكيمة ما لم نجده في كثير من أمم العلم والحضارة، فيمرق الكلام من أفواههم مروق السهم من الورث كما يقولون، وهم أصح الناس أبداناً، لأن الظعن كفيف لهم بطيب الرياح التي لا تحبث إلا مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات (٥) ولأن طعامهم اللبن والتمر والقليل من اللحم، وما يمارسون من الرياضة بعيد عن أن يجلب إلى أبدانهم العلل (٦)،

(١) تزيين الأسواق .

(٢) تزيين الأسواق ٢ : ٩

(٣) الأغاني ٣ : ٥٣

(٤) أي عند عرب البادية لأنه يعرف أن المتصرين كانوا يكتبون قديماً بالحروف الفهلوية التي كانت تستعملها الفرس ثم صاروا يكتبون قبيل الرسالة بالحروف الحميرية إلى أن استبدلوا بها الكتابة الكوفية في صدر الإسلام ويقال إن أيوب الصديق إنما كتب حديثه بلسان العرب ١٥ .

(٥) المسعودي والمقدمة .

(٦) قال في العقد الفريد لأمر ما طالت أعمار الرهبان . وصحت أبدان الرهبان . وما لذلك علة

الا التخفف من الزاد .

واكثرهم من صلابة الجسم والنشاط بحيث يلحقون الخيل والحمر الوحشية عدواً ،
فلقد سمعت من يحدث عن تأبط شرا أنه كان إذا جاع نظر في السهل إلى الظباء
فاتتقى لنفسه أسنمها ، ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه ويذبحه بسيفه (١) ،
وربما حدث الرواة بكثير من أمثال هذا الخبر عن الشنقرى وعمرو بن براق وغيرهما
من العدائين .

ووجدت لهم من الصفات الحسان التي تحدثها فيهم شهامة النفس ما ليس يجتمع
في غيرهم من الأمم اجتماعه فيهم ، فهم يحمون الذمار ، ويمنعون الجار ولا يغمضون
على الذل كما هو معروف عنهم في الأشعار ، فلأن يموتوا قتلاً تحت ظلال السيوف ،
أحب إليهم من البقاء في ربة الذل والخنوف . يقول عمرو بن كلثوم من أصحاب
المعلقات :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نُقِرَّ الخسف فينا

إلى غير ذلك من الأبيات المعروفة ، وهم يفون بالقول من غير أن يكتبوا على
نفوسهم العهود ، يأخذون بثأرهم أخذاً شديداً ، وذلك ناشئ فيهم من بعدهم
عن القضاء ، لأنهم لو كانوا يعانون الأحكام لفسد البأس فيهم ، وذهبت المنة
منهم (٢) ، ولكن ذلك قد يدعوهم إلى التفاني على غير علة إلا الحصول على
الرخيص مما يبذلون في سبيله من النفيس ، كآثارهم لأجل امرأة أوفرس أو بغير
قتلاً يستمر أعواماً طويلاً بين عشائهم ، حتى إذا أراد الله تعالى أن يدركهم بلطفه
الشامل نهاهم عن القتال في الأشهر الحرم فنقص فيهم من القتل ما يقع في أربعة
شهور من القتال ، والله رءوف بالمؤمنين وهو العليم الحكيم لا رب سواه .

وأكرم ما وجدت فيهم من المحامد الموصوفة الكرم والسماحة ، حتى إنهم
ليضيفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على أنفسهم ، ولو كان النزلاء قتلة آبائهم (٣) ،

(١) الأغاني ١٢ : ٤٩

(٢) المقدمة ١٠٩

(٣) الأغاني والالتلیدی .

وربما توسعوا في أدب الضيافة إلى أن يكون بهم بشاشة عند قدوم الضيف وُغصّة عند ارتحاله ، كما يقول عاصم بن وائل من شعرائهم :

وإنا لنقرى الضيف قبل نزوله ونُسبعه بالبشر من وجه ضاحك

ولقد كنت أسمع عن كرمهم أحاديث لم أنقلها عن جانب الثقة والاعتبار . فلما نزلت بجوارهم تحققتهم بالمشاهدة والاختبار . ووجدت أن كلهم كريم ، حتى لقد يكون السخاء تسعة فيهم وواحدا في الناس ^(١) ، ومن زعم أن حاتم الطائي أكرم العرب فقد ظلمهم جميعا . وظنى بأخذهم في هذه الضيافة الواجبة أنه أمر طبيعي عندهم ، لأن الراحل منهم قد يفوز في الفلاة أياما طويلا على جهد من العطش وسُعار من الجوع ، فاذا انتهى إلى خباء مضروب ورآه أهله بمكانه من العناء والإعياء قرّوه وعلفوا مطيته وأوقدوا له نارا يصطلي بها من كآب البرد كما يقولون ، حتى إذا أصابهم في ظعنهم مثل هذا العنت الشديد يتلقاهم أهل الخيام على السّعة من الضيافة .

قال حسان بن ثابت يتהלل بذكر المكرمات :

وإني لمعيط ما وجدت وقائل لموقد نارى ليلة الريح أوقد

وكان الكرم ينتهى بهم إلى أن يقوم لعشائهم مناد في الأسواق ينادى في الناس هل من جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه أو راحل فتحمله ؟ وهذا أحسن ما يكون من محامد النفس الكريمة . ولست أقول إلا أنه كانت لهم في مناقضة هذه المحاسن مساوئ كثيرة في الجاهلية ، فلما نزل كتاب الله روّض أخلاقهم المستهجنة وصرف عنهم المكروه من العادات ، فقد تقلت الأخبار السالفة أنهم كانوا في جاهليتهم

يتزوجون بنساء آبائهم ^(١) ويكرهون إماءهم على البغاء ^(٢) ويألفون غير ذلك من العادات الخسنة التي ذهبت بحجى الإسلام .

ولمّا اضطرّ العرب إلى سكنى البادية وتخير بقاعها على الأيام بحسب أحوالها من الصلاح ، لأنهم وجدوا في قفار قد تراكت عليها الرمال المحرقة ، وما كانت تنبت لهم حبا ولا بقلًا ، وكانت آبارهم تغيض حمأة في القيظ على بعد قعرها ، فكانوا يظعنون لورود غيرها من المناهل في أصقاع يكون بها خضرة من الكلا ، وتظهر للعين بين ما حولها من الرمال المنبسطة كأنها جرد في بحر تسير في مناحيه الجمال كما تسير السفن على ظهر الماء ، ولكن ليس ذلك إلا القليل في جانب الكثير من رمالهم المحرقة . ثم إن الله تعالى أوجد لهم الإبل ^(٣) والسائمة فكانوا يرتادون لها الماء فيما اتسع لهم من مجالات البادية ، فكانت سكّاهم في الوبر لما تقدّم من الأسباب أمرا طبيعيا ، ولو أنهم نزلوا الأمصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة ما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم ^(٤) ، فضلا عن كونهم يرون الأبنية والتحويط حصرا لهم الرجال ^(٥) وحسبوا لما في الغرائز من حب الاستقلال فهم لا يصبرون على الضيم ، والحرية عندهم أفضل ما أعطاهم الله ، يبدّلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لأنفسهم ، فانا لا نجد في أحاديث النقلة أن أمة استعبدتهم في غابر الدهر قط ، فهذه الكلدان والسريان واليونان والروم والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالم إلا العرب ، وكان من أمانى الاسكندر الرومى أن

(١) الأغاني ١ : ١٠

(٢) العقد الفريد ٣ : ٢

(٣) الإبل سفين العرب وهم يقتنون بالبانها ويكتسون بأوبارها ويستدفنون بوقيد أبعادها وقد أوجد الله في قوائمها لنا فوق القدم يطا الرمل ولا يغرر فيه مثل حوافر الدواب ليكون لها اقتدار على طروق الرمال .

(٤) المقدمة ١٠٥

(٥) المسعودى ٤ : ٢٣٤

يدعوهم إلى طاعته بعد أن تم له الغلب على المشرق ، غير أن المنية عاجلته قبل الإقدام على هذا التغير ، فرزق بموته سلامة من الإخفاق ، حتى لا يقال عنه ، وهو الملك المنصور ، إنه توجهت عليه هزيمة ، إذ لست أشك أنه لو أقدم على العرب ما ثبت له جند عليهم في تلك المجالات التي يتوغلون فيها ويبيتون في أمن من العدو وإن كثر .

ولقد لقيت من هؤلاء العرب فتى تلوح عليه النجابة والفظانة ، فذكرت له أن في لقائه الملوك سبيلا إلى نيل العلا فأخبرني أنه نزل الزوراء لأول ما بناها أبو جعفر ولكن لم يمض إلا القليل حتى مل العمران ومال به الشوق إلى ربوع العرب . وأنشدني وهو منصرف :

لَبِيتُ تَخْفِقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مَنِيْفٍ
وَلَبِسُ عِبَاءَةً وَتَقَرَّرْتُ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشَّفُوفِ

والأبيات لفتاة من العرب صارت إلى معاوية بن أبي سفيان ثم لم تطب نفسها بالمقام عنده ، فرجعت إلى البادية بعد ما أنشأت الأبيات التي أنشدنيها هذا الغلام . فسبحان من قسم المعاش بين الأجيال . وركب في نفوسهم طباعا متفاوتة ، لا إله إلا هو فو الإكرام والجلال .

الانفصال عن البصرة ولمعة من أخبار الحجاج

كان مقامي في البصرة شهرا وثمانية أيام ، ولما طويت بساط الإقامة تهيأ لي أن أصعد على دجلة سفرا ^(١) يخفف عني مشقة الركوب على ظهور المطايا ، فدفعت حمولي إلى الرِّبَانِ وانفصلت عن البصرة لأول هديء من الليل ، حتى إذا طلع النهار كنا في متوسط بطاح مفروشة بالنخيل على مد البصر ، وفيها خيام

(١) المسعودي ٢ : ٢٣٩

لبطون من تميم^(١) وشيبان^(٢) ، قد ضربوها على مرتفعات من ذلك السهل ، فكان تأمل منازلهم مع ما أعلمه من شدة تعلقهم بعيش البداوة يمثل لى من بعد ارتحالهم مرافقين الشعراء وقد وقفوا بالعيس على هذه الأطلال وبكوا عهودا مضت لهم فى زمان الأُنس بين هذه الربوع .

ولما كانت بعد أيام طلعت علينا سَموم يكاد يأخذ حرها بالنفس ، وكدنا ننكص على الأعقاب لاختلاف الريح ، فرأى الربان أن يتزل الملاحون إلى الب و يربطوا المركب بأمراس يحورونه بها من عُدوة النهر ريثما يحصل الفرج ، ومضى الليل كله من غير أن تكتحل عيناي بنوم من شدة الحر إلى أيام عشرة لم نزل بها فى مغالبة الريح ومقاساة عنتها الشديد إلى أن وصلنا إلى مدينة واسط^(٣) .

هذه المدينة فى فضاء من الأرض طيبة الإقليم والنسيم ، غير أن الحر غالب عليها لإقبال الرياح إليها من جهة الرمال المتراكمة على هضابها^(٤) ، ومبانيها من الأحكام بمكان سام ، ولا سيما القصر الذى بناه الججاج^(٥) ، وهو باق إلى زماننا هذا ، وهو سنة ست وخمسين بعد المائة ، والناس يسمونه الخضراء ، وله قبة مشهورة فى مباني الاسلام ، حتى قيل إنه ما بنى لأحد قبل الججاج مثلها^(٦) ، وفيه أحواض كثيرة يرقى إليها ماء دجلة ، وأعظمها حوض من الرخام الأخضر وبه مجلس به سرير مذهب^(٧) يقال إنه كان مقعدا للججاج فى مجالسه العامة ، وهذا القصر بهيج مزخرف بأنواع الزينة ، لأن النفقة عليه وعلى الجامع الذى يحواره

(١) فى الأغاني ٩ : ٧٨ أنهم كانوا يجتمعون بجوار البصرة .

(٢) تزيين الأسواق ٢ : ٧

(٣) تقويم البلدان ٣٠٧

(٤) القزوينى ٣٢٠

(٥) المسعودى ٢ : ١٨٣ وهو يقول إنه كان باقيا لأيامه .

(٦) المسعودى ٢ : ١١٥

(٧) الأنشهى ١ : ٦٣

بلغت نحواً من أربعين ألف ألف درهم^(١)، ولكنه سمج في عيني بما ورد على خاطري عند مرآه من قبائح الجحاج ، فكأنه بيت قد رفعت جدرانها على دعائم الظلم والاعتساف .

وبقيت في واسط ثلاثة أيام لاختلاف الريح ، ولكن على كره من النفس ، لأنني كنت أراها بعين المفاقت لها . ونزلت بها في فندق على شاطئ النهر حيث الجسر المقيم من سفن ، وأمامه ساحة تباع فيها الخيول ويكون بها سوق في أيام معلومة من السنة يأتيها العرب بما يريدون بيعه من الخيل الجياد التي يحتفظون بها احتفاظ الآباء بالبنين^(٢) فانهم لا يتخلّون عنها بالقليل ولا بالكثير من المال وإذا سألتهم بيعها منك بأعلى الأثمان فأنت مردود في سؤالك ، يقولون لك هذه منجاتنا من العدو وإذا أطلقنا لها العنان طبقت الآفاق بأسرع من لمح البصر .

ولم تزل هذه السوق مقامة في واسط منذ بنيت إلى هذه الغاية ، لأنها كانت في أول هذه المائة من أعمر بلدان العراق بما خصها الله من خصب التربة وكثرة الخيرات ، فلما وقع بها الطاعون الجارف منذ أربعين سنة^(٣) ونزلت بالناس السنون وأخذتهم المجاعات أتى عليها الخراب والانحلال وتجاوى الناس عن سكانها بما توالى عليها من الفتن التي وقعت في صدر هذه الدولة إلى أن استقر فيها السلم وبعد عهدا من الوباء ، فسارع أرباب التجارة إلى استيطانها لما يتسنى لهم فيها من قرب الاتصال ، والمسافة الآن منها إلى الزوراء خمسون فرسخاً ، ومنها إلى البصرة خمسون أيضاً ومنها إلى الأهواز مثل ذلك . وظنى أنها سميت بواسط لهذا السبب ، وهو توسطها العراق .

(١) ياقوت ٤ : ٨٨٧

(٢) تزيين الأسواق .

(٣) ابن الأثير ٥ : ٧١

وقد اتفق لى قبل الانفصال عنها أنى لقيت فيها شيخا كان أبوه خادما عند
الحجاج (حاسبه الله تعالى) فحدثنى من أخباره ما تنفطر منه الأفئدة رحمة لأهل
البيت وأصحابهم ، لأنه كان يقتل منهم جُرَافا على التَّهْمَةِ إلى أن بلغ عدد الذين
قتلهم صبرا مائة ألف وعشرين ألفا ، وكان فى السجن عند ما أهلكه الله أكثر
من خمسين ألفا يرُسُون فى سلاسل الحديد ، ولا ذنب لهم إلا حُبهم لأهل البيت
وكان الناس فى أيامه إذا تلاقوا فى المجالس والمساجد والأسواق يتساءلون من قُتل
البارحة ومن صلب ومن قُطِع ، وقد تفاحش ظلمه فى الخراج بحيث إن الأمراء
بعده كانوا يستنكفون عن ولاية الخراج خوفا (١) من نقص الخراج إذا خففوا
ضرائبهم ومكوسه ، أو الاستمرار على ظلم الناس إذا راموا جباية ما كان يحمله إلى
الخليفة من المال (٢) .

وقد رسم لى هذا الشيخ صورته بأنه كان قوى البنية مائلا إلى السمن ، ولا
يزال العرق متصببا على جبينه وصُدْغِيهِ من تحت قلنسوة قد حوَّطها بعمامة
خضراء (٣) ، وكانت له مهابة تقصم ظهر الوافد عليه . وكان شديد التهويل
فى خطبه ، وإذا صعد المنبر تلفع بمُطَرَفِه ثم تكلم رويدا رويدا فلا يكاد يسمع حتى
يترايد فى الكلام فيخرج يده من مطرفه ثم يزجر الزجرة فيقرع بها من فى أقصى
المسجد .

(١) ابن الأثير ٥ : ٩

(٢) كان ملوك بنى أمية يعرفون من الحجاج جورهم واعتسافهم ولكن لم يكن فى كتاباتهم منهم أشد منه
ذكاية على العدو فلم يرق لهم استبدال غيره به وإن نقل أمره على الرعية . وفى مروج الذهب أنه لما وفد على
الوليد بن عبد الملك كان عليه درع وكثانة وقوس عربية وقد تفضل الخليفة فى غلالة بخامات جارية وسارت
الوليد ومضت ثم عادت فسارت ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد قال لا والله
قال بعثنا إلى ابنة عمى أم البنين تقول ما مجالستك لهذا الأعراى المتسلح وأنت فى غلالة ؟ فأرسلت
إليها إنه الحجاج فراعها ذلك وقالت والله ما أحب أن يخلوبك وقد قتل الخلق اه .

(٣) العقد ٣ : ١١

قال وكان يحدثني أبي أنه كان يجد لذة ^(١) في سفك الدماء وارتكاب أمور لم يُقدم عليها غيره ولم يسبقه إليها سواه ، ولما أرسله عبد الملك بن مروان إلى العراق ليوطئ له المنابر خرج كيش الإزار وغلب الناس بقوة الرجال لا بالسياسة والرأى ، لأن جنوده كانوا من الشام ^(٢) وهم على غرض الأمويين مخالفون لأهل البيت ، فلما أوجدهم بين أعدائهم لم يرمهم إلا نفوسا مستقلة راجعة إلى رأيه في كل أمر ونهى فحملهم على منازلة مكة المكرمة من هذا الوجه ، ولم ينكف عن ضربها حتى استسلم إليه أهلها بعد أن تصدع جدار البيت الحرام ، فأقام ملك بني أمية على هذا الظلم وقومه لهم خمسين سنة من بعده ، إلى أن أراد الله انقراض دولتهم في المشرق .

هذا نبذ يسير من أخبار هذا الظالم الغاشم ، وقد رأيت تناقل الحديث عنه في أفواه الواسطيين كتناقل الحديث في مجالس البصريين عن زياد ابن أبيه ، وكلاهما قد أذاق العراق من الهوان والقهر ما لم يسبق إليه أحد من البغاة الظالمين ولكليهما فضل في تدبير ما خولا من الولاية إلا أن لزياد فضلا في بلاغة الكلام التي شهد له بها أكبر الرجال وضبطه البلاد بأهل البلاد أنفسهم أعظم من فضل الحجاج الذي ما غلب العراقيين إلا بأهل الشام وما قوم ملكه إلا بالسيف الباتر . والجبروت القاهر .

المرور بمدائن كسرى أنو شروان

كان انفصالنا عن مدينة الحجاج في ليل رطيب قد انفتق سحابه عن القمر ، فقضينا جزءا كبيرا منه في السمر حتى إذا أسفر الصباح كنا في محاذاة قصر يقال له الرمان ^(٣) ومن حوله خيام مضروبة للعرب ، فوقع ذلك من نفسى موقع الاستعبار

(١) المسعودى ٣ : ١٠٣

(٢) الكنز ٢٢٢

(٣) ابن خلكان ١ : ٤٧١ وياقوت ٢ : ٨١٤

من الدنيا في نعيم الحضارة وشقاء البداوة ، إذ كانت الأضداد منها على هذا الوجه قلما يقع عليها النظر في وقت واحد ، وكان يلوح لنا في صدر السهل إلى آخر النهار بناء عظيم أُخْبِرَتْ أنه من جملة المناظر التي أقامها المجاج بينه وبين قزوين^(١) ، وهي إذ ذاك آخر الثغور ، حتى إذا ظهر فيها الخوارج دُخِنَتْ بالنهار فدُخِنَتْ المناظر كلها أو أوقدت بها في الليل نار فاستوقدت المناظر فيعلم ذلك .

ولم نزل نخترق عباب دجلة يوما بعد آخر حتى جزنا جبل والنعمانية ثم كلواذا^(٢) وأقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر ، فتزلت إلى البر أنفجر بالإيوان الذي بناه كسرى أنوشروان . فاذا هو في غاية العظم ونهاية الاتقان . يبلغ طوله نحو من مائة ذراع وعرضه نحو من نصف ذلك وقدرت في ارتفاعه أكثر من ثمانين ذراعا ، وليس في مباني الآجر ما هو أبهى منه ، وقلما يوجد فيه موضع غُفِلَ من رسم أو نقش أو كتابة ، وهو يعد من العجائب ويشهد لما اقتدر عليه الفرس في عهود الأكسرة الذين جبوا معظم الدنيا ، حتى صار يضرب المثل بما جمع من الضخامة والإحكام ، ولا يُرى فيه اليوم من الآثار الجلية إلا صور آلهة جبابة وسباع ضارية . ومشاهد حروب يفوز بها كسرى الخير أنوشروان^(٣) وأما آتية القصور وزخارفها المنقولة وما كان فيها من المتاع الثمين فقد فقدت بعد الفتح ، وبلغ المحمول منها إلى بيت المال ألف ألف دينار من الذهب .

وجملة القول أن شأنه في الفخامة والإتقان مما يحير الأذهان ، على أن الأيام قد أهوت عليه بمعول الفناء الذي ليس في طاقة الطين اتقاؤه ، ثم زاد على ذلك كله أن أبا جعفر لما ابتنى الزوراء حمل من آجره جانبيا كبيرا على بعد الشقة وعظم

(١) ياقوت ٤ : ٨٨٦

(٢) المسعودي ٣ : ٢٢٩

(٣) ذكر ذلك البهري في وصف الإيوان حيث يقول :

والمنشأ يا موانل وأنوشر وان يزجي الصقوف تحت الدرفس

والدرفس الراجعة .

التفقة ، فعارضه خالد بن برمك (رعاه الله) وقال يرغَّبُه في حفظ ذلك الأثر
يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلاً يستدل به على اقتدار آبائك الذين سلبوا ملك
أهل هذا الإيوان ، فاتهمه الخليفة في النصيحة وقال أخذته الثُّعرة للفرس ، وأبى
إلا التعصب لقومه ، فوالله لأصرعنه قريباً ثم شرع في هدمه واتخذ له الفؤوس
وصب عليه الخل وحماه بالنار ، حتى إذا أدركه العجز وخاف الفضيحة بعث إلى
خالد يستشيريه في التجافي عن الهدم ، فقال يا أمير المؤمنين قد كنت أرى ألا تهدمه
فأما إذ فعلت فاني أرى أن تستمر على ذلك لثلاثا يقال عجز سلطان العرب عن هدم
مصنع من مصانع العجم ، فعرفها المنصور وأقصر عن هدمه ولكن بعد أن قوض
جانبا من هذا الأثر الجليل .

ولما وقفت بالإيوان كانت الشمس لأول طلوعها وعلى تلك الدمين ندى
يتلألاً ما بين الأوكار التي تجنح إليها طيور الخراب ، فقعدت أتأمل ما كان عليه
رب هذا القصر من العزة وعظم القدر ، وكيف أخنى عليه الدهر فأخذتني لذلك
عبرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الأبيات :

أيها الشامت المعير بالدهر — أنت المبرأ الموفور ؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيام — بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من — ذا عليه من أن يضام خفير ؟
أين كسرى خير الملوك أنوش — وإن أم أين قبله سابور ؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك — روم لم يبق منهم مذكور

وقد كان لمراى هذه الآثار تأثير في الخاطر لا يبرح منه العمر ، وكان رحيلنا
عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فرائخ^(١) من دار السلام ، وقد فرغت من تقييد
هذه الرسالة في آخر يوم من رمضان أرانا الله بركته بمنه وكرمه ، ونحن قد جزنا
موضعاً يعرف بالنهروان^(٢) وصرنا على مطيل من الزوراء أم البلدان .

(١) باقوت ٤ : ٤٤٧

(٢) ابن خلكان ١ : ١٩٦

الرسالة الثانية

مقامى فى دار السلام

اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العَتمَة وهى تلمع بالأنوار ويتصاعد من المسيحين بحمد الله والمقدسين له نغمات تؤوبها معهم أرجاء المدينة ، وتعذر المسير على مركبتنا تجاه باب البصرة ^(١) أو كاد ، لآزدحام الزوارق المشتبكة فى هذا المكان ، وهى مطلية بأبهى الأصباغ والألوان . مرصعة بأنوار القناديل الحسان . حتى كأن دجلة فى الزوراء . أشبه بالمجرة فى كبد السماء . ثم تقدم بنا المركب حتى وقف بمقربة من الجسر ، وعلى مُطل من قصور الخلافة التى كانت تتلأأ بضوء باهر ^(٢) ، فركبت البر فى الموضع المعروف بجزيرة العباس ^(٣) ، وقد غصَّ بجوع من الناس وقد لیسوا الطيالىس السود تشبهاً بملوك هذه الدولة الذين اتخذوا السواد شعار الخلافة حزناً على شهدائهم من أهل البيت ونعياً على بنى أمية فى قتلهم ، وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل العائم قلانس طوالا مصنوعة من القصب والورق ملبسة بالسواد أيضا ، وبذل الدروع دُرَاعَاتٍ مكتوبا عليها بين كَتَفَى الرجل "فسيكفيكم الله وهو السميع العليم" أخبرنى ^(٤) بعض من لقيته فى تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذى أحب أن تترى حوزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين .

(١) هو باب من أبواب بغداد .

(٢) الأغاني ٤ : ١٨٩

(٣) فى المسعودى أن السفن الواردة من البصرة تقف فى بغداد بهذا الموضع .

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٤٥ والأغاني ٥ : ٩٥

ولما جلت في المدينة أخذت من قطعة ^(١) أبي عيسى الهاشمي إلى محلة يقال لها الميدان ^(٢) ، ومنها إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبي جعفر ^(٣) ، فوجدته كأحسن ما يكون وأحقيه من الشوارع ، وله السيادة عليها بأمرين : (الأول) اتساعه إلى أربعين ذراعا ^(٤) وإن كان يشاركه فيه غيره ، (الثاني) طوله من دار الخلافة إلى محلة باب الشام ^(٥) على استقامة ليس في الإمكان أصح منها ، فلما صرت فيه استقبلت في دور الخلافة زينة كضوء الشمس قد اتخذت على القبة الخضراء ^(٦) التي رفعها أبو جعفر إلى علو يزيد على ثمانين ذراعا ليشرف منها على جهات المدينة وما يجوارها من البساتين ، كما أنه عني بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهادة باقتداره على عظام الأعمال ، فكانت تظهر زيتتها في تلك الليلة وهي مرتفعة في الفضاء كأنها إكليل من نور قد تدلى على قصر السلام .

ثم إنني أقبلت في صدر هذا الشارع على مسجد جامع عليه ازدحام فملت إليه ، وإذا برجال متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجمعون ممزجين جموعهم ، ووراءهم رجل طويل ^(٧) أسمر نحيف خفيف العارضين معرق الوجه ناطق العينين عليه ثياب سود من الخز وقلنسوة مطوقة بوبر ^(٨) أسود من الأوبار الغالية الثمن ، وفي وجهه مهابة الملوكة وجلالتهم ، فعرفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل

(١) ذكرها ياقوت .

(٢) الأغاني ٣٠ : ٦٦

(٣) ابن خلكان ١ : ٣٠

(٤) ابن الأثير ٥ وابن خلدون ١

(٥) ذكرها ابن خلكان وابن الأثير .

(٦) المسعودي والقزويني .

(٧) العقد الفريد .

(٨) ابن عون وذكر ابن جبير أنه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر .

عليه حاشيته ، إذ الشمس لا تخفى وإن سُتِرت ، ثم لم أزل أتبعه بالعين حتى توارى بين الجموع وركب بغلة ^(١) عليها حلية خفيفة من الفضة ، وكان لحامها في يد حاحب من حجاب الخليفة .

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له الحجاج بن أرطاة ^(٢) ، وعلى مقربة منه قراء سبعة يتلون الآيات من القرآن إلى مائة آية من مواضع متفرقة وسور مختلفة ، فلما فرغوا من تلاوتهم تطايرت إليه رقع في مسائل الفقه فأجاب عنها بكلام أمضى من المرهف ، وحدّث عن البحر في بعد الغور وقرب المغترف ، وعهدى بمن لقيه من الخطباء أنى ما سمعهم إلا تمنيت أن يسكتوا مخافة أن يخطئوا ما عدا هذا الفقيه الذى كان يواتيه الكلام ويتابعه ، حتى إذا فرغ من جوابه على هذه الرقع اندفع في تفسير كتاب الله وإيراد الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن أخذ في سرد الآي المقروءات فأتى بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى إلى آخر آية وهى قوله تعالى : ” فى بيوتِ اذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه “ ^(٣) الآية ، فتمق خطبة يذكر بها المؤمنين ، قافية سمعاتها الألف اللينة واللام تردادا لموقف الآية « الآصال » حتى أرسلت العيون لخشية الله عبراتها ^(٤) .

ولم أزل فى المسجد مع القوم بين قراءة وتسبيح إلى ما بعد العشاء الآخرة ، فخرجت أتمس موضعا أبى فيه بقية الليل لعلى أجد فى النوم راحة تعوض على بعض ما أخذ منى السفر ، فأرشدت إلى خانٍ لطيف ينزله الغرباء من أهل التجارات وغيرهم ، فلما كان الصباح بكرت إلى أستاذى أبى يوسف ، منزله

(١) ابن خلدون .

(٢) ذكر فى العقد الفريد أنه ولى القضاء لأبى جعفر .

(٣) سورة النور .

(٤) من رحلة ابن جبير .

على نهر عيسى^(١) في قنطرة الزياتين^(٢) بمقربة من دور الخلافة ، فلتقاني بالبشاشة والإيناس وأبى إلا ضيافتي عنده في جناح أفرده لى من داره ، وهو يؤملنى بلوغ ما أرتجيه من خدمة الدولة ، إذ لا يعدم قومنا محلا في مراتبها ، والوزارة في يد خالد ابن برمك أميرنا . إنى إلى هذا اليوم أخرج في الفقه عليه ، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندر مثله في صدور الرجال .

ذكر شىء من محاسن الزّوراء

ولقد أكبرت من الزوراء رواج سوقها بالتجارة واشتباك أحيائها بالعارة في مدة عشر سنين حتى جمعت من أسباب العمران ما لا يكون في مدينة بنيت من قديم الزمان ، ووجدتها من لطف الهواء وطيب الإقليم على خير ما تكون مدينة ، وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وأسواقها في نهاية من الاحتفال ، قد جمعت بالكرخ أخلاطا من التجار^(٣) والصناع ، إلا سوق الصاغة منها فانه منفرد بجماعتنا الفرس ، وقد بلغوا من الإجادة في صناعتهم الغاية بحيث يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون للولك أقداحا^(٤) تقيّد الأبصار حسنا وإشرافا ، ويتخذون على الجلمات صورا يحكون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق ، وقد رأيت من ذلك جاما قد صورت عليه طيور تطير^(٥) ومن فوقها عقاب تنقض

(١) ابن حوقل ١٦٥ ويقول المسعودى ١ : ٤٧ إنه يأخذ من الفرات وفي ابن خلكان

١ : ٧٤٠ أنه يأتي بغداد من جهة الأنبار و ١ : ١٠١ أنه بجوار قنطرة الزياتين .

(٢) الأغاني ٣ : ١٨٢ وابن خلكان ١ : ٢٨٣

(٣) الأغاني ٩ : ٣٣ و ١٨ : ٦

(٤) الأغاني ٤ : ١٨٩

(٥) في الحصرى ١ : ٣٥ هذا الشعر لأبي نواس :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع النساوير فارس

الأغاني ٣ : ٢٧

عليها ، وهى تهوى فى الفضاء للتخلص منها ، ولكن بهيئة تملك النفس وتستوقف الطرف . وإلى طرف هذه السوق مما إلى سوقة غالب^(١) جماعة من البنائين يبنون الدكاكين لأر باب التجارة بإشارة من السلطان الذى أمر بتحويل الأسواق إلى الكرخ^(٢) ليُبعد أخلاط الناس عن جواره .

أما دور المدينة فإنها متخذة على هندسة الفرس وصنائعهم^(٣) ، ومثال ما بنت الروم فى الشام أو حيث كانوا يتزلون من البلاد ، وهى مجللة كلسا ومرفوعة إلى طبقتين^(٤) ، ومبنى بالآجر ما ارتفع منها عن الأرض ، وبالبحر ما يماسها دفعا للساء فى أوان السيل^(٥) أن يبلغ الطين ويتمكن منه ، ومنهم من يقوى الآجر بالقصباة والحلفاء ويغمسه بالحص^(٦) حتى يصير يابسا وتكون له رنة كرنه الحجر الصلد إذا صلصل . وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنازلهم وإنما تطل نوافذها على الشوارع^(٧) بحيث إذا ارتفع المائر على حجر أو على دابة تيسر له أن ينظر من بداخل البيت^(٨) ، أما دور الممولين من أهل اليسار فإنها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد ، وهى مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجالس السلام . وفى ساحاتها جنات ترزع فيها البقول والرياحين والرمان وسائر الفاكهة حتى تكون رَوْحًا وريحانًا واسترواحا للنفس ، وعلى جدرانها وسقفها نقوش فى رسم ملون أو قُسيّفاء من ذهب ، وعلى دائر

(١) ذكره ابن خلكان فى محلة الكرخ ١ : ٢٤ فى ابن الأثير ٦ : ٩٩ أن بين الكرخ ومدينة المنصور سورا يفصل بينهما ثم إن العارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ فى جوف بغداد .

(٢) المقدمة ٣١٣

(٣) يستدل على ذلك من الأغاني ٢ : ٧٣ و ٣ : ٣١

(٤) ذكر الأغاني ٩ : ١٤٤ وقوم سيل ببغداد .

(٥) ابن خلدون ٣ : ١٩٧

(٦) الأغاني ١٧ : ٤٩

(٧) الأغاني ٥ : ٣٨

الأبواب والقمريات وبرادات^(١) الدور كتابة يتخذونها من الزجاج^(٢) الملقون ويحيطونها بخشب أسود من الآبوس وغيره ، ثم يعلقون عليها رسوما من النحاس تمثل غصونا وثمارا وأزهارا وأشكالا فيها كل غريبة من الإبداع ، فتمتلئ العين ارتياحا من النظر إلى إشراقها. وإنى ليعجبني من جمال مبانيهم ما يتألقون في زينتہ من الخارج أيضا ، فإن القباب التي يرفعونها من فوق السطوح على عمد قد دقت أمثال الرماح ليُخَيَّل للرائي أنها لا تستند على شيء . وكأنما هي معلقة في الهواء .

ولما كان الحر يشتد ووجه في الزوراء ويفتقر أهلها إلى رطوبة الماء اقتناز النفس إلى الهواء قل أن يخلو سوق من أسواقهم أو بيعة من مبانيهم من سقاية يجري بها ماء دجلة^(٣) . ولذلك لا يسير فيها الرجل إلا محفوقا بالشجر المزهري والرياحين^(٤) التي يتغنى بوصفها الشعراء . وهذا دليل على أن الزوراء كلها ماء ونماء . ولأهلها في إقامة الأحواض عناية تامة فيرفعون عليها عمدا من حرفة من الرخام ويعقدون من فوقها قبابا منقوشة بآيات من الذهب^(٥) وما بينها النقوش الظريفة والرسوم التي تقر بها العيون . فتوسعوا من اتخاذها للضرورة إلى المغالاة بزيتها على سبيل الترف والترفيه ، وإذا اشتد عليهم الحر اتخذوا أسرابا تحت الأرض وأقاموا فيها بالنهار ليكسروا الحر كما يقولون^(٦) .

ولقد عظمت عناية أبي جعفر بهذه المدينة حتى إنه أثنى نحوها من أربعة آلاف ألف دينار في السورين اللذين يحيطانها والمسجد الجامع ودور الخلافة والمجالس التي عقدها فوق أبواب السور الخارجى من طاقاتها المعقودة ، وهى أربعة : أولها

(١) الأغاني ١٧ : ١٢٩

(٢) الفرويض ١٢٧

(٣) المقدمة ١٠٥ و ٣٥٧ والأغاني والالتلیدی .

(٤) ياقوت ١ : ٦٨٧

(٥) الالتلیدی ٢٢٦

(٦) من ابن خلكاف .

باب نحرسان ويسمى باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من نحرسان . والثاني باب الكوفة وهو تلقاء الكوفة . والثالث باب الشام وهو من ناحية الغرب . والرابع باب البصرة وهو بمقربة من دجلة . وقد حمل إليها أبوابها من واسط والشام ^(١) والكوفة على بعد الشقة والمشقة . واتخذ الأبواب الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجة ^(٢) ولذلك سميت المدينة بالزوراء .

ثم إن تنهى جمالها بما شاد فيها الأمراء من المباني التي تقف عندها الغاية في الفخامة والإشراق ، ولا سيما ما كان من المساجد المزخرفة فانها لكثيرة ^(٣) في الزوراء ، أثبت منها على زيارة مسجد في قنطرة الصّراة ^(٤) ومسجد بناه عبد الله ابن حرب في الموضع ^(٥) المعروف بالحربية . ومسجد أقامه أمير من آل حنظلة في شارع المحرم ^(٦) ، وآخر بنته الخيزران زوج ولى العهد في الخيزرانية ^(٧) ، وهو فائق الحسن وفيه أكثر من ثلثائة قنديل من الفضة والذهب ، وصحنه من حجارة سود شديدة البصيص تصف الأشخاص كالمراة ، وعلى حيطانه صور تفاحات وثمار وغصون تُحْمَلُ للوافد على المسجد أنه بين شجر زاه مزهر . في روض باه باهر . ورأيت العملة قد حاكوا فيها رسوم الأعاجم على أنسجتهم حتى جاءت الحجارة توهم

(١) ابن الأثير ٥ : ٢٣١

(٢) تقويم البلدان ٣٠٣

(٣) ذكر القرماني وغيره أنه كان ببغداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف حمام .

(٤) موضع ببغداد ذكره ابن الأثير ٦ : ١١٧

(٥) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٣ وياقوت ٤ : ٥٨٦ والمسعودي ٢ : ٢٤٠ و٣٨٨

(٦) ذكره الأغانى ٥ : ١٢٦

(٧) ذكره ابن الأثير ٦ : ١٠١

الرأى أنها بسط حُملت من طَبْرِ سَتَان، ولا فرق بينها إلا فرق ما بين الصوف والحجر، وليس في مساجد الزوراء مثله في الزينة إلا المسجد بناه أبو جعفر في شارع دُجَيْل^(١) مما يلي باب الأنبار^(٢) والمسجد الجامع الذي يجوار دور الخلافة .

في تقرّبي من رجال الدولة

وقد لقيت في الزوراء جماعة من الأمراء المقدمين في الدولة غير أنى انقطعت إلى خدمة ملوك البرامكة وملازمة باهم في البكور والرواح ، إذ كانوا أصحاب فضل وجمال ومروءة وعفاف . وقد وقع بيننا من المودة ما ضمنى وإياهم في أوثق حبال الأُنس والائتلاف . وتقرّبت بكفالتهم إلى معن بن زائدة الشيباني وروح بن حاتم المهلبى وهما أعظم رجال الدولة بعدهم ، وكنت إلى آل المهلب أكثر منى تقرّبا إلى شيبان^(٣) وإن كانوا جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت ، إلا أن معنّا كان على مخالفة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدمهم في مراتب الدولة وهم أغراب عن العرب ، وذلك لم يكن في آل المهلب فانهم كانوا مع البرامكة على خلطة ومودة واتصال .

وأقرب الأمراء مكانا من الخليفة هو خالد وزيرنا لقيامه بثقل الدعوة في خراسان من قبل أبي مسلم الخراساني . وهو من أولاد الملوك لم يبلغ أحد مبلغه في رأيه وعلمه وبأسه وجوده وجميع خلاله^(٤) ، والمنصور لا يُبرم أمرا إلا بمشورته ، ولا يركن في أعماله إلى أحد سواه اللهم إلا في سياسته مع العلويين فانها كانت جارية على البغض والجور ، مع أن خالداً ميال إليهم منذ أخذ في الدعوة الإمامية

(١) ذكره ابن خلّكان ١ : ٤٩٨

(٢) ذكره ابن الأثير ٦ : ٩٨ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ والمستطرف ١ : ٢٨٩

(٣) يقول ابن الأثير ٦ : ٥١ إن شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف .

(٤) ابن خلّكان ٢ : ٣٦١ والمسعودى ٢ : ٢٢٢



مكتبة

بخراسان ، وهى إذ ذاك لهم وللعباسيين جميعا . أما المهلبيون فانهم من عظماء العرب ومن لهم الرأى المقدم عندهم والإمرة المطاعة عليهم ، وقد كانوا هم وآل قطيبة من القواد الذين نصروا العباسيين على بنى أمية ثم انضموا إلى جملة أبى جعفر بعد الفرقة بينه وبين العلوية رغبة عن الأئمة من أهل البيت ، فقدّمهم أبو جعفر فى المراتب من هذا الوجه حتى انصرفت إليهم الوجوه وانطلقت الألسن فى مديحهم فالقصائد التى تعظم عن أن يقال مثلها فى الخلفاء أنفسهم كقول المغيرة بن حنبل :

أسمى العباد لعمرى لا غياث لهم إلا المهلب بعد الله والمطر

هذا يذود ويحمى عن ديارهم وإذا يعيش به الأنعام والشجر

وأما معنى فانه أمير شيبان كلهم ، وقد اجتمعت فيه جميع خلال العرب الحسان إلا أنه غلب عليه الجود مقرونا بحلم يتحير فى نعته اللسان . وشيبان من بيوتات العرب فى قريش ، وهم أربعة بيوت بعد بيت بنى هاشم ، وهى بيت قيس . وبيت تميم . وبيت شيبان . وبيت اليمن ^(١) . وقد كان معن على مخالفة العباسيين لأول ظهور دعائهم وأبلى مع بنى مروان بلاء حسنا ، فلما انقرضت دولتهم طلبه أبو جعفر طلبا شديدا وجعل لمن يأتيه به مالا جزيلا فلم يظفر به لأنه كان مقبيا فى البادية كما يقال ^(٢) ، ثم إنه رجع إلى

(١) الأغاني ١٧ : ١٠٥

(٢) وقد وقع لمن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة أحييت أن أذكرها ها هنا لكثرة فكاهية تدل على كرم العرب وألفة قومهم والكلام فيها لمن يقول : كنت قد اضطررت لشدة الطلب إلى أن أقم فى الشمس حتى لوحى وجهى وخففت عارضى ولى حتى قلبت جبة صوف عريضة وركبت جملا من الجمال النقال لأمضى إلى البادية فأقيم بها فلما خرجت من باب حرب تبغى أسود متقلدا سيفا حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام بعيرى فأناخه وقبض على قلقت له مالك قال أنت طلبة أمير المؤمنين قلت ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين قال أنت معن بن زائدة فقلت يا هذا اتق الله أين أنا من معن قال دع هذا عنك فاني والله لأعرف بك منك قلت إن كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حملته معى بنى بأضعاف ما بذله =

الهاشمية ^(١) مثلاً ووافق يوم وصوله قيام الرواندية على الخليفة في الأسواق ، وقد قاتلوه إلى أن ضاق به الخناق ، فكان معني يحد في ذلك اليوم وسيلة لهلاك أبي جعفر بانضمامه إلى العدو بعد أن بدت له مقاتلته ، ولكن أبت مروءته إلا أن يكون الحلم في نفسه طبيعة تجلّه عن مطامع الأخساء ، فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو . فلما عرفه أبو جعفر طابت به نفسه وجعل له الولاية ومكّنه من خزائن المال .

ولقد دخلت على هذا الأمير مرة واحدة فأصبت بين حرس على رأسه وحقده بين يديه ^(٢) ، وفي حضرته جماعة من الأدباء الندماء قد خاضوا في حديث الشيعة في خراسان . وأخذوا يتناقلون خبرها من غير نقد ولا إمعان . فضل عنهم سر السياسة فيها إلا رجلا من شيان بليغ الفطنة يقال له محمد بن الحسن الشيباني ، وهو بسيط اللسان إذا تكلم خيل لسامعه أن القرآن نزل بلغته ^(٣) ، فكان يرى لنكبة أبي مسلم رحمه الله السبب الذي لم يفتن له أحد من هؤلاء الجلاس ،

== أمير المؤمنين لمن جاءه في نغذه ولا تسفك دمي قال هاته فأخرجته إليه فنظر إليه ساعة وقال صدقت فيأخذ كرم ثمته ولست قابله حتى أسألك عن شيء . فان صدقني أطلقك فقلت له قل ، قال إن الناس قد وصفوك بالجلود فأخبرني هل وهبت قط مالك كله قلت لا قال فنصفه قلت لا قال فثلثه فربعه فخمسه حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت أظن أني قد فعلت هذا فقال ما أراك فعلته . أنا والله راحل ورزقي من أمير المؤمنين عشرون درهما في الشهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك وبلجودك المأمور بين الناس لتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقربعد هذا كل شيء . ففعله ولا تتوقف عن مكرمة قط ، ثم رمى العقد في حجرى وترك خطام البعير وانصرف فقلت يا هذا والله لقد فضحتني ولسفك دمي أهون على ما فعلت نغذه مادفعت اليك فاني عنه لغني ثم قال أردت أن تكذبني في مقالى والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثنا ومضى فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يبيح به ما شاء فاعرفت له خيرا وكان الأرض ابتلعه . ابن خلكان ٢ : ١٦٠ والأغانى ٩ : ٤٣ وبجانب الخلفوات ٣٠٩

(١) كان يقيم فيها المنصور قبل بناء بغداد .

(٢) الأنشيهى ٢ : ٣٠٩ والالتلیدی ١٠٩

(٣) أبو الفداء ١٩٢ وابن خلكان ١ : ٦٤٧ والنخيس ٢ : ٣٣٣

فانه لم يتحقق لدى مما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لما كان من سبقه إياه إلى الحج ولا لادعائه أنه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة في الكتب التي كان يبعث بها إليه ولا لإفراطه في القتل ، وإنما نكب أبا مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وإمداده إياهم بالرأى فيما يدبرونه لأمر أنفسهم ، حتى إذا علم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صماء تعصف ريحها بالدولة استقدمه إلى المدائن وفي نفسه أن يفتك به على غرة ، وكان أبو مسلم على حذر من ذلك كما ظهر من كتاب له إلى أبي جعفر ومما كان من استصحابه للجنود في سيره إليه ، ولكن طلع عليه وهو بين يدي الخليفة جماعة من حيث لا يدرى فاعتوروه بالسيوف ومعن يعلم هذا كله ولكن لا يقوله إجلالا لأمر المؤمنين .

وأما ما يقولون من أنه حامل السلالة فليس ذلك إلا من باب التدليس لموافقة أرباب الدولة على أهوائهم ، على أنه لو صح ادعاؤهم ما منع من أن تكون به خصال لا ترى في عامة الناس ، فانك لتعلم أنه ملك خراسان^(١) وهو ابن تسع عشرة سنة ، وأبدى من السياسة وهو بذلك العمر ما عجز عن تدبير مثله الحكماء ، وكان ثبت الجنان إذا جاءت الفتوح العظام لم يغلب عليه السرور ، وإذا نزلت به الحوادث الفادحة لم يظهر فيه اكتئاب^(٢) ، وكان أقل الملوك طمعا^(٣) وأبعدهم بين الناس شهرة ، حتى كان إذا حج هربت العرب من وجهه ولم يبق في المناهل منهم أحد لما كانوا يعرفون من شدة بأسه ودهائه ، وهو أكبر ملوك الاسلام . والرجال عندي ثلاثة وهم الذين قاموا بانشاء الدول : الاسكندر الرومي . وأردشير الفارسي وأبو مسلم الخراساني .

(١) (ذكر) صاحب العقد الفريد ١ : ١٢١ أنه ربما جرى عليه لقب أمير المؤمنين .

(٢) ابن خلكان ١ : ٣٩٨

(٣) أبو الفرج ٢١٦

لمعة من أخبار أبي جعفر

ومن المقرين إلى أبي جعفر غير من لقيته من الأمراء المتقدم ذكرهم الربيع ابن يونس حاجبه ومولاه ، وهو حظيُّ عنده ومكين لديه إذ أنه مقدم على الموالي ، وهم المتقدمون في هذه الدولة ، لبلائهم مع يزيد بن المهلب ، على ملوك بني أمية يُجْرَجَان^(١) وما إليها من البلدان ولا استمرار أبي جعفر على تقديمهم في الرياسة تحفظاً على نفسه من العرب الذين يميلون مع أهل البيت ، وهو يحد عليهم أشد مما يحد على بني أمية .

فوجد أكرمك الله أن أبا جعفر لم يقدم الأغراب^(٢) في مراتب الدولة إلا بما هو مطبوع في نفسه من التيقظ والسهر ، كما تجد أنه ما أبناه مدينته إلا الخوف من أهل الكوفة أن يفسدوا جنده ويحملوه على مناصرة أهل البيت ، بجمع المتجمين لذلك ولم يباشر بناءها إلا بعد ما أعلمه نُوبُحْتُ بسلامتها من الأعداء ، ولما فشيت فيها العارة وجمعت أخلاط الناس خاف قيام العدو عليه فأقفل الدروب بالليل^(٣) ، وأقام عليها الحراس وحول الأسواق إلى جهة الكرخ كما تقدم حتى لا يبقى يحواره من لا يأمن ناحيتهم ، وشرع قومه يقولون إن رسول الروم أشار بذلك إليه وقد سأله لما وفد عليه كيف وجدت بلدنا أيها الرسول ؟^(٤) فقال إني رأيته أعزَّ على الطالب من بيض الأنوق بيد أنى رأيت الغريب يطرقه ويبيت فيه وربما كان فيهم العين والباسوس . وهذا كلام فيه بعض المزية عندى لأن من أبناه الخوف مدينة حوطها بسور بل سورين^(٥) وحفر بعدهما خندقاً بعيد المهوى غنى بما في نفسه من الخوف عن أن يخوفه أحد كيد العيون ومحالهم .

(١) الأغاني ٩ : ٢١

(٢) ابن الأثير ٦ : ١

(٣) الأغاني ٧ : ٣٤

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣١

(٥) أبو الفرج ٢١٩ والمسعودي ٢ : ٣٨٧

ثم إنا لنجد له هذا التيقظ في البخل الذي ليس هو فيه عن لؤم^(١) يَقلَّ يده عن الخير ، لأنه وصل أعمامه بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألف ألف درهم^(٢) ، وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات ، وإنما أمسك يده عن العطاء مخافة أن يقع ماله في يد المتربصين به من المخالفين ، كما أنه أقل من أعطية الجند ليأمن عصيانهم^(٣) واستغناءهم عنه ، كأنه يعمل بالمثل السائر الذي يقول جَوْعَ كَلْبِكَ يَتْبَعُكَ^(٤) ، وإلا فإننا لا نرى هباته إلا لمن هو خلو من الأغراض السياسية من أهل العلم والأدب وإن كان لا يصل هذا العطاء إلى الكرم ، وذلك لما نعلم من خروج^(٥) الشعراء في أيامه من الحضرة إلى غير وجهه يسترفدون بها صلتهم .

وأما دليل تخوفه من ولاية الأقاليم فكونه يُذكر عليهم العيون ويتدارك عزله من قبل أن ترسخ في الإمارة قدمهم ثم يستولى على ما يصل إليه من أموالهم ويحمله في بيت سماه بيت مال المظالم^(٦) حتى يقعدهم عن القيام عليه في ثورة أو مخالفة ، وليس ذلك حبا في جمع المال وادخاره كما يزعم كثير من الناس لأنه لولا أنه بخل ناشئ عن رأى له في السياسة ما حقيق على معني حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهل من أمرهم ما حزن^(٧) ، كما أنه لو طمع في حفظ هذه الأموال المغتصبة ما أوصى ابنه بردها إلى أربابها في كلام من الوصية يقول فيه^(٨) إني لأحضك يوم تدركني الوفاة أن تدعو من أخذت ماله وترده عليه ، فانك ستحمد بذلك

(١) الفخرى ١٨٨ وأمر البخل في أبي جعفر معروف ومتفق عليه .

(٢) المسعودى ١٩٤ : ٣ والمستطرف ١ : ٢٠٠ .

(٣) في ابن الأثير ٦ : ٥٠ أن المنصور عرض جنده في السلاح وهو لابس درعا وبيضة .

(٤) الفخرى ٦٩ .

(٥) الأغاني ١٣ : ٩١ وفي العقد الفريد ١ : ١٢٢ أن حاجب الخليفة قال إن الشعراء يبابك وهم كثيرون طالت أيامهم وقدت نفقاتهم .

(٦) ابن الأثير ٦ : ١١ .

(٧) ابن الأثير ٦ : ٩ .

(٨) الفخرى ١٨٧ وابن الأثير ٦ : ١٢ .

إليهم ، ولكن إياك أن تعود إلى توليتهم المناصب لأنني ما رأيت الوفاء طبيعة إلا في الموالى والأغراب .

ثم إنه طمّح من هذه السياسة إلى أن يأخذ التجارة بالشدة ويضرب عليها المكوس تنقيلا على التجار ، فوضع على الخوانيت خراجا ^(١) لم يسبق له عهد في الاسلام .

هذا نثر يسير من أخبار أبي جعفر وفيه دلالة قاطعة على الخوف الذي يدعوه إلى التيقظ ، والناس يقولون إنه صالح النظر في السياسة وربما جاريتهم على ذلك فيما هو آخذ بتدبير أمره ، غير أنه حبس النفس الزكية محمد بن عبد الله ابن حسن بن الحسين رضى الله عنهم ، وقتل أخاه إبراهيم بن عبد الله وكلاهما برآء من الذنوب ، ولست أرى لأبي جعفر فيما وقع له من الظفر بهما على سبيل الاتفاق وجهها تطمئن به نفسه ، لأن فشل العلويين إلى هذا اليوم إنما نشأ عن تفرق دُعائهم على أغراض ، لم تجمعهم غاية واحدة في جميع البلدان بل كان بعضهم منقطعاً عن بعض ، وكان كل واحد منهم منفرداً إلى نفسه فيما يطلبونه من ثأر شهدائهم المشرفين (عليهم صلوات الله ورضوانه) ، فغلهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفر بالواحد منهم بعد الآخر كما كان شأن الأمويين في مقاتلتهم من قبل ، ولو أنهم جمعوا دُعائهم إلى الوحدة وأثاروا العراق وخراسان والحجاز في غرض واحد كما فعل أبو مسلم رحمه الله في إظهار الدعوة الإمامية لأعاد الله إليهم الخلافة التي غلبهم عليها الأمويون ، وهم الذين عرفت لهم الفضائل التي لا يستطيع المكابرون من أعدائهم ^(٢) إنكارها ، والله يؤتي ملكه من يشاء وهو العليم الحكيم لا شريك له .

(١) المقرئى ١ : ١٠٣

(٢) قال عمر بن عبد العزيز من ملوك بني أمية إن الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم لتفرقوا عنا إلى أولاده . ابن الأثير ٥ : ١٧ وكذلك الحجاج بن يوسف جلس يوماً يعطى الناس على بلائهم فقام رجل يطلب العطاء وكان من قسلة الحسين بن علي رضى الله عنه فلما علم الحجاج ذلك قال له إنك لا تجتمع أنت وهو في مكان واحد ثم أخرجه ولم يعطه شيئاً . ابن الأثير ٤ : ٢٣٩

ذكر الفتوح وأن العدل هو الذي حفظها للمسلمين

ولما حدثني لسان الشريعة بهذه الأخبار وافق قوله ما في نفوسنا من التحمس على أهل البيت لضياح حقوقهم ، وقد كنت استرثته الحديث عن أخبار العرب وأيامهم فحدثني عن فتوح الاسلام خبرا أحببت أن أسرده إليك في هذا الكتاب ، وأسلك فيه سبيل الإطناب ، ليكون نفرا للأعراب ، باقيا إلى منتهى الأحقاب . فان الله تعالى لما أراد أن ينشر فيهم رحمته بعث إليهم رسولا منهم ومعه كتاب من الله ناطق بالهدى ودين الحق ليجيرهم من الملمات التي وقعت فيها جاهليتهم لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم في الدين ، إذ لم يكن فيهم من الموحيين المقربين بالخالق المصدقين بالبعث الموقنين بالشواب في الآخرة إلا نفر قليل (١) ، فجمع بالرسالة كلمتهم ، ونزع الكعبة من يد الجاهليين الذين وضعوا بها آلهة (٢) وتركوا عبادة الإله الواجب الوجود . "من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا" (٣) .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مأمورا في بدء رسالته بأن يدعو العرب إلى الاسلام ، ثم جاءه الوحي بدعوة الناس كافة إليه ، فلما قبض صلى الله عليه وسلم وهو مشكور سعيه ، مرفوع منزلته ، انقبضت نفوس العرب وباتوا في موقف التردد ، فمنهم من كانوا يخافون أن يدخلوا في ولاية أحد من بعده يطلق يده في الأمر بما يشاء ، وعهدهم قريب بالجاهلية من تباين الميول والأهواء ، فلما رأوا من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم بعدهم عن الأغراض النفسانية ، والتماسهم من الخلافة السلوك في سنة الله ورسوله دون شيء آخر من حاجات الدنيا إلا هداية الناس ،

(١) المسعودي ١ : ٢٣٩

(٢) المقدمة ٣١١

(٣) سورة الكهف .

اجتمعوا على كتاب الله أمة واحدة في دين وسياسة ، حتى غلبوا الملوك على أمرهم
وابتروا الأعاجم سلطانهم وحازوا معظم العالم في شرق وغرب .

وإنما صال المسلمون كالسباع ، وشدوا على الحصون والقلاع . وتراموا على
ممالك الحضّر ، واقتحموا المشاق والغرر ، بما حضّمهم عليه الكتاب من الجهاد ،
ولأن المائت منهم في ساحة الحملات ، شهيد له في دار الخلد جنات . وعدهم الله
تعالى بقوله ” ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع
أجره على الله ^(١) “ ، فلما ندبهم أبو بكر رضي عنه إلى فتوح الشام أقبلوا بنسائهم ^(٢)
وولدهم وبيوتهم وماشيئهم وسائر ما يملكون ، وعلى وجوههم سمات الفرح
والابتهاج ، ^(٣) كأنما النصر محقق في النفوس صرفا بغير مزاج . ويقال إن الشيوخ
الفانين قد قدموا مع أولادهم ليطنوا الأرض التي وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم ،
حتى إذا رآهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أن لم أقبلتم؟ ومعناه يزيد على كلامه بأن ليس
لكم عزم ولا فيكم بقية ، فقالوا قدمنّا يا خليفة الرسول رغبة في ثواب الله وحبا
في فاكهة الشام واستعدّابا لمائه الزلال ^(٤) ، فتفأل منهم بالخير ، وقال إن ربكم
يعطى النصر العزيز لمن يشاء . فإذا كان هذا عزم المسان وإقدامهم فما الظن ببسالة
الفتيان الذين هم ضراب السيوف ^(٥) ، وشراب الختوف؟ فان تنظر إلى ما تعرف
لهم من الأشعار ، ويروى عنهم من الأخبار ، تجد أنهم لا يبتغون بغير الكفاح
الفخار . وتستدل على أن قوتهم في الهجوم على الديار ، أشد من عدو تمنعه القلاع
والأسوار .

(١) سورة النساء .

(٢) ياقوت ٤ : ٣٢٤

(٣) المقدمة ٢٣٢

(٤) الواقدي .

(٥) ذكر الطرطوشي ١٧٣ أن من فرسان المسلمين من ضرب عدوه بسيفه فقطع البيضة الحديدية

التي على رأسه .

ومما حفظ هذه الفتوح للمسلمين أن البلدان التي دخلت في حوزتهم لم تبد إشارة ثورة ولا أمارة فتنة ، لأنها كانت قبل ذلك في سلطان الفرس أو الروم فاستوى لديها أن يحكمها كسرى أو نصير المؤمنين . وربما مالت إلى عمال الخلفاء أكثر من ميلها إلى عمال الروم لما وجدت قبلهم من وفور العدل والقيام على مراعاة العهود مما أمر به الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم وحرّضوا على التشبث به ، حتى لقد عزلوا خالد بن الوليد عن الإمارة من أجل أنه أراد أن ينقض الأمان الذي أعطاه أبو عبيدة المعروف بأمين الأمة لأهل دمشق ، إذ دخل مدينتهم صلحا ، بينما كان خالد يدخلها بالسيف . وأمثال هذه الرعاية المنصفة كثيرة في سير الخلفاء ، وكانوا إذا أوصوا عمالهم باستعمال العدل والاحتراس من المعصية والاستنكاف من القتل الكثير قالوا لهم : "إنه لولا ذلك لم تكن لنا بالأعاجم قوة ، إذ كان عددنا دون عددهم ، وعدتنا دون عدتهم ، فإن استويننا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة ، وإلا نصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا" فيظهر لك أنه إنما عم الإسلام بما عدل الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم في زمن الفتح ، وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التي ذهبت فضائلها مثلا بين الناس ، حتى إن الخلق الكثير من الأعاجم كانوا يدينون بالإسلام على بعد الديار ، وليس ذلك إلا لما يسمعون من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم . فلعمري إنه لولا انقلاب خلافة الملة إلى ملك في يد الأمويين ما بعد أن يعم الإسلام العالم بأسره ، والله تعالى أعلم بالغيب ، وله في قضائه حكمة تعالت عن أن يدركها العباد .

هذا هو السر في اتساع الفتوح وحفظها في يد المسلمين ، والأعاجم يعامون ذلك ولكنهم يقولون إن الإسلام غلب أما لا مدنية عندها ولا نظام لملكها فقوى عليها . وهذا مردود من وجوه كثيرة ، ولا سيما أن فارس كانت من أضخم الدول سلطانا ، وأبعدها في الحكمة أعراقا ، فلم يصعب عليه منالها ، كما لم يعسر عليه غلب الروم في الشام ، وهم بمكان من المدنية لا يرام . ولست أقول إلا أنه لما نشأ الإسلام كانت القياصرة في ضعف وانحلال ، وكان الفرس يزقهم ظلم

العمال . فكان ذلك داعيا إلى انتراع ملكهم ، ولم ينل الإسلام إخفاقاً في عهد
الخلائف الأولين وهم بمكانهم من صلاح الرأي وحكمة السياسة . فلم تُهزم للإسلام
داية في أيامهم ، إلى أن ذهبت الخلافة من بيت علي عليه السلام فذهبت سداجة
الملة ، وانقلب أمر الأمة من الخلافة إلى الملك ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :
” الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكا عضوضا “ ولله في خلقه شؤون ، وهو
يقدر الليل والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في أول يوم من رجب من السنة السابعة
والخمسین بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف السلام وأزكى
التحية .

الرسالة الثالثة

لقائى ولّى العهد وحظوتى لديه

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائى ولّى العهد . فإنا لقى بعض الأيام ، ونحن جلوس إلى فقيه الإسلام ، إذ دخل علينا البيت خادم من خدم الخليفة ، فتخوف الفقيه من شىء لم أدر ما هو ، وكذلك الناس يغشاهم الخوف والانقباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعد ^(١) ، فقال له أبو يوسف سبق وهى إلى أنك تطلبنى لأمر جلّ ، قال أجل إن الأمير يدعوك الساعة إليه لأمر ألقه الليل كله ، ولم يحرفنى خاطر أحد من العلماء التصرف فى وجه يكون به كشف الغمة وتحقيق المسئول ، فدعا خالد بن برمك إليه فقال له عليك بتلاميذ أبى حنيفة وما فيهم أحفظ لعلمه من أبى يوسف ^(٢) .

فلما سمع ذلك طابت نفسه وذهب ما كان يجده من الخوف ، ولم يلبث أن استوضح هذا الخادم الخبر فأعلمه أن الأمير حقيق على الخيزران أم أولاده ليلا ، وقال لها فى سورة الغضب أنت طالق ثلاثا إنى بثّ الليلة فى مملكة أبى ، فلما سكن غضبه ووجدها برآء من التهمة راعه أمر الطلاق فاستدعى الأعيان والفقهاء فلم يكن عندهم ما يرجوه من الإفتاء الذى يطيب به نفسا ، ففكر أبو يوسف برهة فلم يفتح الله عليه بشىء .

وكنّت فى ذلك الوقت أجيل الفكرة فى أمر الخيزران وأذكر مآثرها فى الدولة وذلك المسجد الذى زينت به الزوراء ، فوقع فى نفسى ما يكشف هذه المهمة ، فقلت لأبى يوسف إن المساجد بيوت عبادة الله تعالى ، ولا تدخل فى ملك أحد ،

(١) هو أمر معروف فى الحكايات وكتب التاريخ .

(٢) الشريشى ٢ : ٣٦٧

قلوب الأمير فيها الليلة ما حسبه يبيت في مملكة أبيه ، فما كدت أتهى من كلامي حتى كاد يخلع من ثيابه لشدة الفرح ، وهو يقول لقد ظننت والله أن أعمال الفكرة في مثل هذا التخلص الجميل جهد من غير تحصيل ، وعناء للنفس ليس له من سبيل . فاما إذ ابتدعت هذا الرأي الميمون فعلى عهد الله لا ذكرك عند الأمير ليقربك إليه بما أنت أهله من الخير ، ثم خرج وأنا أحسب للأمير مسرة عظيمة مما رزقني الحظ استنباطه ليكون في حل من يمينه ومبرة له من قسمه .

فلم تكن إلا ساعة حتى عاد إلى نصير ذلك الحاجب قائلا (١) أجب الأمير ، فقممت لساعتي أمثل الأمر ، فلما صرت في باب الدار وجدت جماعة من الغلمان قد أعدوا لي بغلة فارهة من مطايا الأمير مجللة بالديباج ، عليها حلية من الفضة ، فركبت وسار الغلمان بين يدي حتى وصلنا إلى دور الخلافة ، وقد كان أخبرني نصير عما جرى بين الأمير وأبي يوسف من الحديث ، وأنه لما مثل بين يديه كاد يعدل عن استفتائه ظنا منه أن لا يكون من فتواه جدوى ، « والخلفاء وأولادهم يبدون الناس بالكلام وليس للناس أن يفتحوه معهم » (٢) ، فلما استطلع رأيه فيما أهمه من الأمر وذكر له الرأي الذي تقدمت به إليه غلب عليه السرور حتى ما كاد يستقر به المجلس من القيام والقعود ، ثم سألته أمن معقوله ذلك أم من منقوله ؟ فقال له أبو يوسف لا والله وإنما قائل هذا صديق لي من أبناء الفرس وأخذ يذكرني عنده بما استطاع من جميل الكلام .

فلما أقبلنا على دور الخلافة جئنا باب السور الكبير وسلخنا ممرا مفروشا بالحصباء الحمراء تحيط به حدائق القصور وجنان قد اتخذ فيها أحواض يتصعد منها الماء وعليها عمد من الرخام تقل قبابا مغطاة بالرسوم الموسومة بماء الذهب . ورأينا

(١) ذكره الأغاني ٣ : ٥٧ والعقد الفريد ٢ : ٩٩

(٢) ابن خلكان ١ : ٣١

في طرف هذه الجِنان صنعا يرفعون (١) قصرا سماه أبو جعفر قصر الخلد (٢) وأضافه إلى قصر السلام (٣) الذي يسكنه في هذه الأيام ، فاتهنا من هذا الممر إلى باب القصر وهو معقود تحت القبة التي كانت مزينة في عيد الفطر ، وهي علم الزوراء ومأثرة بنى العباس ، فلما جاوزناه اتهينا إلى دار مسورة بالعمد وبها مقاصير منجدة أرضها وحيطانها بالأرمني (٤) ، وفي أطرافها دهليز ينبعث إليه الضوء من شمسيات قد اتخذت في قباب بديعة الشكل حافلة الزينة ، بغرناه فإذا نحن في دار أفسح من الدار الأولى ، ولها باب عليه مسامير من الفضة والذهب (٥) ، وفيها كثير من العمد التي يوجه الخلفاء عنايتهم إلى تزيينها بالرسوم والإتكار منها فيما يبتون من القصور ، حتى إنى عددت في صحن من صحن دور الخلافة سبعا وأربعين سارية لو أن ثمانين غلاما وقفوا وراءها ما راهم من هو في صدر الدار .

ثم اتهينا من هذا الدهليز إلى سلم من الرخام ينتهي بالراقى (٦) عليه إلى مجلس الأمير ، وناهيك به مجلسا قد فرش بالرخام المجزّع ، وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشد بعضهما إلى بعض (٧) ، وقد اتخذ فرشه من الديباج والبسط الطبرية (٨) عليها أبيات (٩) في مدح الأمير ، وفيه كراسي مرصعة بأصداف اللؤلؤ وعليها جماعة من الأعيان خافتون كأن على رؤوسهم الطير (١٠) ، وفي صدرهم

(١) الأغاني وابن الأثير ٦ : ٥

(٢) القزويني ٢١٠

(٣) الأغاني ٩ : ٤٥ والسيوطي .

(٤) الأغاني ٥ : ١٧٣ واللاتيدي ٢٢٦

(٥) اللاتيدي ١٤٦

(٦) في الأغاني ٦ : ٧٨ ما يشير إلى أن قصور الخلافة طبقة فوق طبقة .

(٧) الأغاني ٥ : ١٦٦

(٨) المسعودي ٢ : ٨٢ والأغاني ٥ : ٥٩ و ١٢٨

(٩) الكتابة على البسط مذكرة في الأغاني ٥ : ٨٦

(١٠) الفخرى ٥

الأمير جالسا في قبة قد اتخذ لها فرش مبطن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والإبريسم^(١) وإذا به أسمر طويل القامة معتدل الخلق مليح الشكل جعد الشعر ، بعينه أيمنى نُكْثَةً بياض ، وعلى رأسه خَصِيٌّ واقف بالمظلة ، وهو من الخدام المقربين إلى السلطان وأهل بيته ومن يستميلهم الناس بالمال الكثير ليدكروهم عنده أو يخاطبوه في حاجتهم .

فلما أقبلت على المحاسن غلبني البهر من جلالة المهدي فسلمت عليه بالإمارة فردت على السلام بخفض الجناح ، وأظهر ما حَسِبَ لي عليه من المنة ، وقال لي إنه يأنس بي ويحب أن يصير لي تأديب ولديه موسى وهارون لما بلغه عنى من العقل ، فدنوت من كرسيه وقبلت الأرض بين يديه وقلت له في موقف الشكر على جزيل ما أولاني من النعمة : إنك قد جعلت لي بهذا شرفا لم ينله أحد قبلي من العلماء ، فقال لي أحسن الله عنا جزاءك ، فما الكثير من فعلنا بك بجزاء للسير من حقك^(٢) ، ثم إنه دعا أبا بن صدقة كاتبه فوقف بين يديه^(٣) ، فقال له اكتب له بدارنا على دجلة ، وأقطع من ضياعنا الخاصة ما تقيمه غلته على السعة ، ثم أمر لأبي يوسف بخمسين ألف درهم معجلة^(٤) ، وكان هذا أول اتصالي بولي العهد أصلحه الله وتولى عنى مكافأته بما هو واسع من الجميل .

في تأديبي الأميرين وما توالى على من نعمة بنى العباس

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزران وقد كانت في دار لها عادت إلى دور الخلافة في موكب عظيم من الغلمان المزيّنة والخليل عليها القطوع من

(١) المسعودي ١ : ٢٣٤

(٢) الأغاني ٩ : ٣٠

(٣) المسعودي ٢ : ١٨٢

(٤) الأغاني ٣ : ٩٥

الديباج والحلية الثقيلة من الفضة حتى تظهر ما عندها من الأبهة مع تقرير موضعها من السلطان . وأقام الأمير في ذلك اليوم مأدبة صرف في زخرفتها وسعته ، وجلس فيها لعطاء قريش ^(١) وسائر الناس حتى امتلأت المدينة بأسباب المسرة والأفراح ، ثم جاءني من لدن الأمير من ينطلق بي إلى الدار التي وهبها لي على دجلة ، فإذا هي مشيدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقباب مخرمة ، ولها رَوْشَن ^(٢) بديع الحسن يشرف على دجلة وما وراءها من الرصافة ، وفيها من السدول والأستار الحريرية والبسط الديباجية والقائم النحاسية والآنية المزخرفة والخزائن ^(٣) المجزعة ما ليس مثله إلا في أمتعة الملوك وجلسائهم مما ^(٤) يتكرمون به عليهم في سبيل الهبات ، حتى لقد كانت الأوتاد التي تدق بجانب الباب ليعلق فيها الداخل ^(٥) ما ثقل عليه من ثيابه متخذة من العاج الأصفر وعليها رسوم منزلة بالذهب تمثل ثمارا تجتنى بالأبصار لحسنها ولقرط ما أبدع فيها المثل من الصناعة .

ثم جاءني من لدن الخيزران خادمان للمهدى لم تكن نوبتهما ^(٦) في ذلك اليوم بملازمة بابه ، ووضعوا بين يدي إناعين من الذهب في أحدهما منشور ^(٧) بضبعة في السواد وفي الآخر مخنقة في وسطها درة عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات بينها كثير من شذور الذهب ^(٨) ثم جاءني وصيف آخر للمهدى أكرمه الله يحمل إلى رقعة بالضبعة التي سبق لي بها العطاء وهي في السواد من جوار الحيرة يقال لها العمرية ^(٩) ثم بعده وصيف لأم المهدى وهي بنت منصور الحميرية ومعه إناء

(١) الأغاني ٧ : ٩

(٢) الأغاني ٥ : ١٠

(٣) الأغاني ٥ : ١٠٩

(٤) الأغاني ٥ : ٤٠

(٥) الأغاني ٤ : ٥٢

(٦) الأغاني ٣ : ١٨٤

(٧) المستطرف ١ : ٢٤٣

(٨) الأغاني ٧ : ٣٦

(٩) ذكرها الأغاني ٢ : ١٠٣

من ذهب قد انتثرت عليه اللائع^(١) ، ثم وفد للغالية أخته ومعهم جام^(٢) فيه دنائير وخاتم من العقيق قد رسمت فيه أم القرآن ولكن بأحرف صغيرة لا تبصرها العيون وذلك أحسبه من محاسن الأشياء التي لا تكون إلا عند الملوك ، فهطلت على النعمة غيثا من الذهب ، وليس ذلك إلا لآثي وجدت منصرفا في القول لحل تلك اليمين .

وأخذت من ذلك اليوم في تأديب الأميرين موسى وهارون بما أحب أبوهما وأوصاني به يحيى بن خالد وزيرنا ، ولكن كنت إلى الصغير أميل مني إلى الكبير لما وجدت من انصباغه على المطالعة^(٣) واعتباره بأقوال الحكماء ، ووددت أن يكون هو السابق في الولادة لتكون له حقوق الولاية قبل أخيه لما هو جدير به من تعمير البلاد . وتقويم العباد . لآثي رأيت الكبير صعب المرام شكس الأخلاق ، وقد عرفت ذلك ذات يوم من أمر لم يتدبر معناه فلما استطلعت فيه رأيي حرد على وطار طائر من الغيظ ، فحفظت له ذلك وأخذت أشغله من العلم السهل بما لا يحتاج إلى كبير مطالعة ولا إلى تكلف عناية به ، فسر لذلك وأوسعني عما بدر منه في وقت الحدة اعتذارا ، فعرفت من ذلك أنه صعب المرام^(٤) وأن من توفاه وعرف أخلاقه دخل في رضاه ، ومن فتح فاه فاتفق له أن يفتحه بغير ما يهواه اطرحه وأقصاه^(٥) ، وهذا كما ترى خلق غير محمود في أولاد الملوك الذين يتجافون عن الحكماء والوعاظ إلى تقريب من يداهنهم بالثناء على ما ليس فيهم من الخلال ، فإن ذلك دليل واضح على بعد الخزم منهم وضعف البصيرة عندهم .

(١) الأغاني ٦ : ١٣٣

(٢) ابن خلكان ٣ : ٤٥٥

(٣) الفخرى ٢٣٠

(٤) المسعودي ٣ : ٢٠٢

(٥) الأغاني ٥ : ١٦

أما هرون رعاه الله فأنى عرفت فيه من الرقة واللطافة وسجية الحلم ما أعظم في عيني منزلته ، ولم أرفى أولاد الملوك أبجل منه خلقا وخلقا ، وفيه مماثلة للفضل ابن يحيى بن خالد في الصورة ، وهما في سن واحدة ونشأة واحدة ، حتى لئنهما تبادلنا لبن الرضاعة من ثدى واحد (١) فكانت أم الفضل ترضع هرون والخيزران ترضع الفضل ، وهو أبيض (٢) اللون واسع العينين على الجبهة منطوي على خير وصلاح وسلامة قلب ، وإذا تألم من أمر لم يستفز الغضب ولا يزيد على هاه (٣) كلمة غيظ واحدة ، وأنا أتشرف بتأديبه (٤) إلى هذا اليوم وهو سنة ثمان ونحسين بعد المائة ، وقد أتى عليه من العمر أربعة عشر عاما أصلحه الله ووقفه إلى ما به صلاح الملة والدولة بمن الله وكرمه .

ولست أكتف عنك أنه لما صارت إلى نعمة بنى العباس تحدث الناس بها كثيرا في الحضرة ، وأحدثت في النفوس غصبا يثيرها الإشفاق على دولتهم من المهدي أن يجرى على سنة أبيه في تقديم الأغراب عليهم في المراتب إلى أن تخلو منهم مناصب الدولة ، غير أن ما يخافونه من هذا الأمر لا يتعدى إلى غير مصلحتهم الخاصة ، فانما يعظم الاسلام بانضمامنا وجميع المسلمين إليه في غرض واحد حتى

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٩ وأبو الفدا ٢ : ٥ وفي القمى أن من بعض ما قبل في مدح الفضل بن يحيى قولهم :

كفى لك فخرا أن أكرم حرة
غذتك بئدى والخليفة واحد

(٢) العقد الفريد ٣ : ٥٤ والخميس ٢ - ٣٣١

(٣) الأغاني ٥ : ٦٦

(٤) قال في مروج الذهب : إنه لما أسلم المهدي ولديه الهادي والرشيد إلى المؤذنب أوعز إليه أن يصريده عليهما مبسوطة وطاعته منهما واجبة وأن يقرئهما القرآن ويعرفهما الآثار ويرويهما الأشعار . ويعلمهما السنن ويبين لهما فضل الحكاء في مواعظهم ويصبرهما بمواقع الكلام ويمنعهما الضحك إلا في أوقاته يأخذهما بتعظيم الأمراء من بني هاشم ورفع مجالس القواد والأتربة ساعة إلا وهو يفتنم فيها فائدة فيفدهما إياها من غير أن يقسو عليهما فيميت ذهنهما ولا يتوسع في مساحتهما فيستعليا الفراغ ويألفاه وأن يقومهما ما استطاع بالقرب والملاينة فان أباها فعليه بالشدة والغلظة .

تشتد صولته وروح فيه سوق الأدب بما يوجد له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصناعة ، ولو أن الخليفة لم يقدمنا لهذه الغاية لم يكن له مع ما سبق من خوفه من الأمويين إلا أن يتجافى عن العرب ويقصيه عن المراتب إلى أن ترسخ في قبائلهم دولته من غير حاجة إلى قتل المساميين بالمساميين في فتن صعاب لا يرجو بها بلوغ أمنيته ، وإنما رزق من السياسة الحكة في تقديم الأعراب واستمالتهم إلى غرضه حتى يستظهرهم على تقويم ملكه بما يظهر من الجبروت الذي لا يلتمس في تمكين مهابته من المخالفين له سواء ، كدأبه في الانقطاع عن اللهو ^(١) ، وبعده من البهجة التي تبعده عن شعائر الملة ، وتوجيه من الناس ريبة يته فيها كثيرا من أهل بيته أنفسهم ، وتجافيه عن الجلاس والندماء إلا خلف ستارة يضربها فيما بينه وبينهم على بعد أربعين ذراعا ^(٢) إلى أمور غيرها تدل على أن مثله في التيقظ مثل الذين يستقلون بالملك على غير استرضاء الناس ، ثم يمر بهم زمانهم في أشد ما يكون من الخوف والريبة .

بقية من أخبار أبي جعفر

وقد عرفت بترددى إلى دور الخلافة كثيرا من أخبار أبي جعفر وسياسته فوجدته ينظر ^(٣) في أحكام الدولة وأمور العمال دون أن يدع لنفسه فرصة يستريح فيها من عناء الأعمال ، فاذا طلع النهار جلس في إيوانه ونظر في حال الأمة وعزل الولاة الذين يريبه منهم مخالفته ، ونصب ^(٤) من يعرف فيه الأمانة وتظهر منه النجابة والقطانة مكانهم ، ولا يزال آخذا في ذلك بما يروم من إذلال المخالفين له إلى قبيل الظهر ، فاذا تناول الغداء عاد إلى النظر في المصالح والاهتمام بأمر الجند ،

(١) الخسيس والعقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٨ والفخرى ١٨٧

(٢) السيوطى .

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٠

(٤) المسأوردى ١٣٧

فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته وفاوض أعمامه وغيرهم ، فاذا صلى العشاء نظر في كتب العمال مما تجمع في النهار وشاور ^(١) من يركن إليه من سُمّاره ، تلك عادته من يوم ولي الخلافة .

وإن تذكر عاك الله ما وصفته لك من نحوه في الرسالة السالفة ثم تُضِف إلى ذلك ما أنا ذا كرك من سهره على تدبير المملكة تتمثل لك صورته بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التي أفنى فيها عمره وطال منها عناؤه ، فإن أيامه قد انقضت بين مخالفة الأمة له والتياث الجند عليه حتى اقتضت الحال أن يوجد الفرقة فيهم بين مضر وربيعة والحراسانية ^(٢) يملك بعضهم بالذي هو واجد على الآخرين . فترى أن ما لقي من تصارييف الزمان هو الذي جعله على سوء ظن بالرعية ، فهو لا يركن في أموره إلا إلى وزيرنا خالد أعزّه الله ، ولولاه ما استوى له الملك بين تغلب الأكراد ^(٣) في فارس وظهور الخوارج فيما إليها من البلدان .

وقد علمت مما تقدم إليك من الكلام أن البرامكة يميلون بطبعهم مع أولاد علي عليه السلام ، فلما بعد خالد عن الحضرة لحرب الأكراد ^(٤) تمادى أبو جعفر مع وزيره أبي أيوب المُرِّياني ^(٥) في سياسته مع أهل البيت من القتل والعنف ، وجاء بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم وقتلها على حَقٍّ كثير من أهل بيته عليه ، ولا سيما عمه عبد الله الذي غلب بنى أمية في الشام ، فانه لما أحس منه الانحراف أسكنه في قصر بنى أسامه على الملح حتى إذا دجا الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح وسقط البيت عليه ^(٦) ، وهذا من الأمور التي يتناقلها الناس عنه بسوء الأحدثنة

(١) المسعودي ٢ : ١٨٤

(٢) ابن الأثير ٥ : ٢٣٩

(٣) ابن خلكان ١ : ١٤٩

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣٦ و ٦

(٥) المسعودي ٢ : ١٨٢

(٦) الفخرى ١٩٨ وابن الأثير ٥ : ٢٣٥ والمستطرف ١ : ٩٦

كما يتناقضون ذكر قتله لأبي مسلم داعية الإمامية في خراسان ، وكلاهما من القواد الذين غلبوا الأمويين وأقاموا ملكه في فارس فالعراق فخراسان فما بين المسجد الأقصى إلى البلد الحرام . ولقد فاوضت أبا يوسف يوما في هذا الشأن فحدثني عن جبروت أبي جعفر وأخبرني أن سلامة أمه لما حملت به رأت في منامها كأن سبعا زار فأقبلت عليه السباع من كل ناحية ، وكلما انتهى إليه سبع سجد له ^(١) فصيح تعبير منامها بما يراد من معنى الملك والظفر .

ولقد دخلت على أبي جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحيرة وهي المدينة التي يقصدها ^(٢) حين يشتد عليه الحر في الزوراء ، إذ ليس في جوارها ما يصلح لسكنى الملوك غيرها ^(٣) فلما أذن للناس بالدخول عليه صحبت لسان الشريعة أبا يوسف فأصبته في مجلس الأمراء وفيهم شاعر مقرب إليه يقال له أبو دلامة ، وهو يدينه ويضحك منه على بيتين من الشعر ^(٤) قالهما في استهجان الزى الذي عم استعماله في لباس الخواص والعوام كما تقدم ، كأنهم في كتابة الآية بين أآفهم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم ^(٥) ، فلما أدينا فروض السلام أمرنا بالجلوس ، وقال لي بعد أن قمنا بالواجب من إجلاله لاني رأيتم ” يريد الفرس “ أهل وفاء ^(٦) وفطانة فوليتكم المناصب في دولتنا ، ولم أربى مروان وقد انتبهوا لذلك ولا تكلفوا العناية في تجميل الدولة بانتفاعهم من آداب العجم ، فقد كان عبد الملك جبارا

(١) المسعودي .

(٢) وفي ابن الأثير ٦ : ٥٥ أن الرشيد سكنها أيضا برهة من الزمان .

(٣) الأغاني ٣ : ١٢٥

(٤) البيتان هما قوله :

وكان زرجي من إمام زيادة
تراها على هام الرجال كأنها
بغداد بطول زاده في القلاص
دنان يهود جللت بالبراس

(٥) المقد الفريد ١ : ٩٨

(٦) ابن الأثير ٦ : ١٢

لا يبالى بما يصنع ، وكان سليمان همّه بطنه ، ثم أفضى أمرهم إلى أولادهم المترفين فكان همهم الشهوات وركوب الملاذ من معاصي الله عز وجل جهلا منهم باستدراجه وأمتا منهم لمكره باطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة .

فلما ذكر ذلك عنهم جعل يضرب الأرض بمخضرة كانت في يده ، فوقع على بنى أمية من حضر المجلس قذف شديد ، يرومون به موافقة السلطان ، وقالوا إنهم كانوا يعاقرون النمر ويظلمون العباد حقوقهم ويستحلون أخذ أموالهم بغير استحقاق ، ويكلفون أهل القرى إذا خرجوا إلى الصيد ما لا طاقة لهم به من الضرب والإهانة ، ولا يقنعهم ذلك حتى يحطموا زرعهم في طلب درّاج قيمته نصف درهم ، ثم انتقل بعضهم من هذا القذف إلى أن يحث الخليفة على تتبع الهاربين منهم في جميع الوجوه ، وسمعت من أشده هذين البيتين المشهورين اللذين قالهما سديف لأبي العباس لما تمّ له القلب عليهم :

لا يفرّئك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داءً دويّا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فامتلا وجه الخليفة غضبا وقال : لعمرى إن الأمويين أهل مظالم قد غمطوا النعمة فهوى نجمهم ونلّ عرشهم ولله فيهم ^(١) نقمة سأنتبعها فيهم حيث لقيت حاتيا . فعجبت من مظاهرتة بهذا الكلام وبين يديه كثير من الذين يتقربون إليه بالتدليس والمحال . وأنا لا أقول إن الأمويين متزهون عن هذا الطعن ولا عن أشد منه ولكنى أرى أنهم لو لم يكونوا حقيقين بمثله لرامهم كثير من هؤلاء الجلاس بأنكى منه تقربا من السلطان فيما يحب من القسح في أعدائه ، وكان ذلك أول ما لقيت أبا جعفر ، ثم لم أره بعد ذلك لأنه ركب ^(٢) إلى مواطن الحج المباركة شرفها الله بكرمه وإحسانه .

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٧ والقزويني ١٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٦

في ركوب الخليفة إلى الحج

كان لخروج الخليفة إلى الموسم موكب لم يرُ أحفل منه في مواكب الملوك ،
 فقد أقبل أهل المدينة إلى باب الكوفة ^(١) حيث اجتمع من النافرين إلى الحج
 الشريف من العراقيين والخراسانيين والفرس وغيرهم ما لا يحصى عدده إلا الله ،
 وكلهم مجهز إبله وكسوته وقربه وخروجه وطعامه وهو الأخصبة اليابسة والأقراص
 المعجونة باللبن والسكر والكحك المنضد والقواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ^(٢) ،
 ومعهم قطعة من الجند تحوطهم ^(٣) في نزولهم وارتحالهم ، وفي طليعتهم هودج
 تظللها قباب من الديباج المطرز بالذهب ^(٤) ، وفيها يقيم الأمير المولى على الحاج ،
 وله في إمارته النظر في أمور عشرة وهي أن يجمع الحاج في مسيرهم ونزولهم حتى
 لا يتفرقوا فيخاف عليهم التواني . وأن يرتبهم في المسير ليعرف كل منزله ويألف
 مكانه إذا أناخوا في بلد . وأن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم
 ولا يضل عنه منقطعهم . وأن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها . ويتجافى أوعرها
 وأجديها . وأن يرتاد لهم المياه إذا قلت والمراعى إذا انقطعت ، وأن يحرسهم
 إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا . وأن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير بجهد لا بمال .
 وأن يصلح بين المتشاجرين لأنهم يكونون تحت ولايته كأهل المدينة تحت ولاية
 رئيسهم . وأن يؤدب خائنهم ويلزم الناس آدابهم . وأن يراعى فوات الوقت
 فلا يحشى عليهم ضيقه لأنهم إذا لم يصلوا عرفة في يوم عرفة ما بين زوال الشمس
 إلى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج ^(٥) .

(١) هو من أبواب بغداد .

(٢) المسعودي ٢ : ٥٦

(٣) الأغاني ٩ : ٦٤

(٤) أبو الفداء ١ : ١٥٧

(٥) المسعودي ١٨٧

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقد غصت بالناس المواقف وضافت
بهم الساحات ضرب البوق إيذاناً بركوب الخليفة ، ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً
على فيل أبيض قد استرسلت عليه الفضة ^(١) في الحلية الثقيلة ، وهو جالس
في هودج ^(٢) متزل بالأصداف الالامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم
من الذهب ، وفي يده قضيب الخلافة وفي الأخرى الخاتم ، وعليه جبة وشى ^(٣)
من فوقها بردة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم وهي غير البردة التي كانت لملوك
بنى أمية يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم ، لأنها فقدت بفقدان الخلافة
منهم . وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبي سلمى بأربعين ألف درهم ^(٤)
وإنما هذه البردة هي التي أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأئمة لتبقى عندهم
بركة ، فاشترها أبو جعفر بثلاثة دنانير ^(٥) واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي
كانت عند الأمويين . وأما الفيلة فانه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها
في المواكب ، وقد أخبرني نصير ذلك الخادم الذي مضى في هذه الرسالة ذكره أنه إنما
اتخذها مرباً له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها وإعدادها
للحروب والزينة في الأعياد وغيرها ، إذ كانت أوطاً مراكب الملوك وأمهدها ^(٦) .
وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة ، ووراءهم الإبل
التي يظعن حريمه وأهل بيته وفيهم موسى بن المهدي حاجاً ^(٧) ، ومعهم حرس
خاص بهم يحملون الرايات السود .

(١) المقدمة ١٤

(٢) الكشكول .

(٣) كذا في العقد القريد ٣ : ١٥٦

(٤) أبو القدا . ١ : ١٥٦

(٥) السيوطي .

(٦) المسعودي ١ : ١٨٥

(٧) ابن الأثير ٦ : ١٣

فلما وصل موكبهم إلى موقف الحجاج ارتفعت أصواتهم بالدعاء وعلا صخبهم بالتكبير والتهليل فكان الواقف يستشعر من عزة الإسلام ما لا يخالج النفس أعظم منه ، إذ ليس من فروض العبادة ما تظهر فيه أبهة الدولة غير حج البيت الحرام ، فلما وقف الأمراء والعظماء إلى وداع الخليفة أوصاهم بالسهر على الرعية ^(١) ، وأن يسألوا الله له النعمة ويوقفه ويلهمه الرأفة بهم . ثم إنه عزم على ولي العهد أن يصحبه إلى قصر عبدويه على مسيرة يومين ^(٢) من الحضرة لئتم له الخلوة به على انفراد ، إذ كان يحسب من هذا الموضع إتيان مالا مرد له ، وقد كان يرى في منامه كأن نجوما تهوى من السماء ^(٣) فيتشأم من ذلك . فلما نفخ في البوق إيذانا بالنفير زحف الحجاج كالبحر المتلاطم الأبواب . كأن سفن الركب . وشُرْعها الظلل المرفوعة والقباب . وفي مقدمتهم هودج الخليفة قد لمع ذهبه كأن الشمس ترسل إلى الناس نورا من جلال الخلافة .

ولما كان بعد ذلك عاد المهدي إلى الحضرة وشرع في مباشرة الأحكام على الوجه الذي يريده أبوه ، حتى صرنا ونحن اليوم في ولايته أشبه بنا في ولاية أبيه إلا فيما يصير إلينا من العطاء الذي لم نتعوده من أبي جعفر ، وأما ما سوى ذلك من أمور السياسة فلم يكن له إلا أن يقتنى فيها أثره ، وقد أوصاه وهو يودعه في قصر عبدويه الوصية التي هي من أحسن ما أوصى الملوك به أولادهم في السياسة ، بدأ فيها بتحريضه ^(٤) على سكن الزوراء وألا يستبدل بها غيرها ، وأن يظهر كرامة أهل بيته ^(٥) ويحسن إلى مواليه ويستكثر منهم ولا سيما أهل خراسان إذ كانوا

(١) السيوطي .

(٢) أبو الفرج ٢٢٠

(٣) ابن الأثير ٦ : ٦

(٤) ابن الأثير ٦ : ٧ وأبو الفداء ٢ : ٧

(٥) أبو الفرج ٢٢٠

شيعتهم وأنصارهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم^(١) وألا يستعين بأحد من بني سُلَيْمٍ (خوفا من ميلهم مع أهل البيت)، وأن يحفظ النبي صلى الله عليه وسلم في أمته ويلزم حدود الله والآدميين ويعف عن البغي الذي لا حاجة به إليه مع ما خلقه له من المال، وأن يشحن الثغور ويضبط الأطراف ويعد الكراع والرجال ويسئ الظن بالعمال، وألا يدخل النساء في أمره^(٢) ولا ينام إلا وهو مستيقظ إلى آخر ما أطل به في هذه الوصية التي ذهبت مثلا بين وصايا الملوك.

في ذكر من لقيته من الشعراء

يحسن بي في ختام هذه الرسالة، أن أذكر لك عن الشعراء الذين زهت بهم دولة أبي جعفر ما ورد على خاطر الفاتر، ولكن بإيجاز يدل على موضعهم من الإجادة في مذاهبهم، دون إطنا يتنهي إلى ما لا تسعه الصحف من ذكر أبياتهم ونواديرهم. فأبدأ منهم بذكر بشار بن برد البصري، وهو ضرير قد لقيته في مجالس البرامكة^(٣) لأقول قدومي إلى الزوراء، وكان خالد أعزّه الله قد أحب أن يطلق على اسم الزائر ويطل عن اسم السائل الذي كان ينعت به الغرباء في ذلك الوقت^(٤) لقوله لي إني والله لا أحب اسم السائل إلا لطلاب الإحسان، وأرفع قدر الكريم عن أن يُسمّى به أمثال هؤلاء المؤمنين، لأن فيهم الأحرار والأشراف ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ولكنا نسميهم الزوراء، فوجد بشار لنفسه نصيبا من كلام الوزير فأطلق لسانه في الإنشاد بما دل على سرعة خاطره إلى النظم وسرعة تصرفه في فنون الشعر.

(١) العقد الفريد.

(٢) الفخرى ٤٨.

(٣) الأغاني ٣: ٣٦.

(٤) الأغاني ٣: ٣٦ الطواط ٢٤٩ والفخرى ١٨٥.

وقد رويت لبشار هذا الشاعر نحو من مائة قصيدة ورأيت له في أكثرها ابتداء يرفعه إلى مساماة المتقدمين من شعراء العرب ، فلقد سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول (ألا عم صباحا أيها الطلل البالي) وحيث يقول (قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل) وفي الإسلام القطامي حيث يقول (إنا محيوك فاسلم أيها الطلل) ومن المسلمين بشار حيث يقول :

أبي طلل بالجيزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيا
وبالجيزع آثار بقين وباللوى ملاعب لا يعرفن إلا توها
ووجدت له من جمال التشبيه ما يعجز البصراء عن الإتيان بأفضل منه
وفي قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
سمو لم يعل عليه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين ، وهذا من الغريب الذي لم يسمع بمثله عن أحد من العميان لأن قولهم منحصر في الزهد والمديح والهجاء وما يتصرفون به من أبوابها ، بخلاف هذا الشاعر فإنه يتوسع منها إلى سائر المذاهب من غير أن يقع في الانحطاط الذي لا يؤمن على من يدخل نفسه فيها هو غريب عنه ، وكان المتبادر إلى العقل أن يكون بعيدا عن تصور الحسن ولكنه أغزل الشعراء (١) حيث يقول :

أنا والله أشتهى سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق
وهذا أحسبه من المواهب الطبيعية والملكات النفسانية ، ولذلك أقدمه على جميع الشعراء من هذا الوجه الذي يُجلُّه عن التكلف ولا أجده فيه من انتقاد

(١) الأغاني ٦ : ٩٠ ؛ وابن خلكان ١ : ١٢٥

عيب^(١) به شعره إلا استرساله في الهجاء واختلاقه بعضا من الألفاظ التي يحتاج إليها لقيام أبياته على القافية من غير أن ترد في لغات العرب .

ولقيت من الشعراء المقدمين مروان بن أبي حفصة وهو منقطع في شعره إلى مديح معن بن زائدة^(٢) لأنه كفاه مؤونة الاستعطاء من غيره ، ولما أتى في بعض مديحه له على ذكر بلاتنه في حرب الرواندية بقوله :

ما زلت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهنيد وسان

أعطاه مائة ألف درهم ، وذلك أعظم ما أعطى الملوك من الجوائز ، حتى إن أبا حمفر لما علم بذلك أكبره وقال في سبيل التعجب من سماحة معن : "لله دره من أعرابي ما أهون عليه ما يعز على الرجال وأهل الحرم" ^(٣) .

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر إلى القصيدة اللامية التي يقول فيها مادحا هذا الأمير :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لهم في غيل خفان أشبل

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل

إلى أن يقول :

نجنب لا في القول حتى كأنه حرام عليه قول لا حين يُسأل

تشابه يوماه علينا فأشكلا فما نحن ندرى أتى يوميه أفضل

أيوم نداه الغمر أم يوم بأسه وما منهما إلا أغر محجل

(١) الأغاني ٣ : ٤١ و ٥٣ و ٧٣ وابن خلكان ٢ : ٢٥٢ وابن الأثير ٦ : ٣٧

(٢) الأغاني ٩ : ٤٤

(٣) السعدي ٣ : ١٨٣ والأغاني ٩ : ٤٤ وابن خلكان ٢ : ١٦٠ والمستطرف ١ : ٧٣

ولكني سمعت من يقول إنه رفعها بعد حول كامل (١) فقالها في أربعة أشهر وانتخلها في أربعة وعرضها في أربعة بغضات كأنها السحر الحلال (٢) يعجز عن مثلها الشعراء ، ولكن هذا يدل على أن علمه أكثر من عقله وأن الشعر عنده صناعة ينال نفسه منها عناء شديد ، وإنما يحب من الشعراء سرعة الخاطر إلى النظم كمثل ما نعلم عن العرب من قولهم الشعر ارتجالا في المجالس والأسواق . ومن كلام مروان :

طرفتكَ زائرة فخيَّلتها بيضاء تخالط بالجمال دلالها (٣)
قادت فؤادك قاستقاد ومثلها قادت القلوب إلى الصبا فامالها

وممن لقيته من شعراء هذه الدولة أبو إسحق إسماعيل « من قبيلة عترة » (٤) ويعرف بأبي العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المائة والمائة والخمسين بيتا في اليوم الواحد ، حتى ليس إلى الإحاطة بجميع شعره من سبيل ، وله كلام لم يسبق إليه أحد (٥) كقوله :

للناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن
وله من بعض كلام (٦) :

لا تأمن الدنيا على غدرها كم غدرت قبل بأمشالك
أجمعت الناس على ذمها وما أرى منهم لها تاركا

(١) الأغاني ٩ : ٤

(٢) ابن خلكان ٢ : ١٣١

(٣) في العقد الفريد « بيضاء تشر بالحياء دلالها »

(٤) الأغاني ٣ : ١٢٧

(٥) الأغاني والعقد الفريد ١ : ٣٧٤

(٦) المسعودي ٢ : ٢١٨

وهو يأخذ في ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهمه العامة وترضى به الخاصة وإن كان منحطاً عن لغة الأولين في فصاحة الألفاظ ، وتصرفه في الشعر مقصور على وصف الآخرة ^(١) ولم أحفظ له من المديح غير بيتين قالهما في عمرو بن العلاء :

إن المطايا تشتبك لأنها قطعت إليك بسابسا ورمالا

فاذا وردن بنا وردن خفائنا وإذا صدرن بنا صدرن يقالا

وهذا أحسن ما يقال في امتداح الكريم ، إذ لا يخفى أن وراءه من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيوانات العجم ناطقة بما له من الجميل .

ولقيت منهم أبا دلامة زئد بن الجؤن وهو من الشعراء المحيدين لكنه قد أضاع شعره في استعطاء ابن جعفر وهو بمكانه من الإمساك كما علمت وقد قال في الثناء عليه :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقليل اقعدها يا آل عباس

ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلهم إلى السماء فآتم أكرم الناس

وهذا كلام يسموه إلى جمال الشعر ويملك النفس بما أودعه من وصف السعادة التي صورتها مخفوفة بالنور، ولكن قد ضاع تأثيره في النفوس بعد المدح عن محاسن الكرم . وقد وجدت أبيات هذا الشاعر محلاة بالخلاعة كما أتى وجدته يتوسع فيها إلى المجون ^(٢) وكثيرا ما كنت ألقاه في مجالس المهالبة يلتمس نصيبه من عطائهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح .

(١) الأغاني ٣ : ١٢٦

(٢) ابن خلكان ١ : ٢٧١ والأغاني ٩ : ١٣٢ والمستطرف ٢ : ٤ والشريشي ٢ : ٢٦

ومن الشعراء المجيدين محمد بن المولى الأعراى لقيته في مجالس المهالبة مرة واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الزانة فأجزلوا عطيته من المال وقد حفظت له من جملة أبيات يقولها في مديح رُوح بن حاتم من أمرائهم^(١) :

لانى لأرجو إن لقيتك سالماً ألا أعالج بعدك الأسفاراً
وكان روح عند ما أنشده إياه قد غلبته الأريحية فأمر بإفراغ المال عليه حتى
تثقل به فقلت للاميرهما أنت إلا من يقول فيه زهير :

تراه إذا ما جئته مهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
فقال والله لأن أعطى أحب إلى من أن أمدح . ولابن المولى كلام يقرب
أن يكون مثل أقوال الجاهليين ، لمقامه في مواضعهم من البادية بعيداً عن حضارة
الأمصار ومن شعره في النسب :

أحن إلى ليلى وقد شطت النوى بلى كما حن اليراع المنقب
تقربت ليلى كي تتيب فزادنى يعادا على بعيد إليها التقرب
وقوله :

وأبكى فلا ليلى بكت من صباية إلى ولا ليلى لذى الود تبذل
وكان الحسن بن زيد رضى الله عنه ، وهو عامل على المدينة^(٢) ، قد دعاه
وأغلظ له ، وقال أتشيب في حرم المسلمين وتشد ذلك في المحافل والمساجد ظاهراً ؟
فقال امرأتى طالق ثلاثاً إن كانت ليلى إلا قوسى هذه ذكرتها على سبيل التشيب ،
لأن القريض لا يحسن إلا بالنسب . على أنى وجدت شعره إلى فصاحة البداوة
أقرب منه إلى حلاوة الحضارة وفى قوله :

سلا دار ليلى هل تبين فتتطق وأنى ترد القول بيداء ستملق ؟
عفتها الرياح الدامسات مع البلى بأذيالها والرائح المتعبق
بكل شأبيب من الماء خلفها شأبيب ماء مزنها متائق

(١) الأغاني ٣ : ٩٠

(٢) ابن الأثير ٥ : ٢٤٣

ما يبعد تناوله على سكان الأمصار الذين ينقطع عهدهم بمحاضرة أهل البادية ، وإنما يدخلون في لسانهم كلام السوق^(١) وألفاظ الأعاجم الذين يخالطونهم في أسفارهم وتجاراتهم ، حتى تصبح لغتهم في أشد المبالغة للسان العرب .

ومن لقيته من الشعراء المجيدين السيد الحميري ، وهو من الواقفية القائلين بالإمام المنتظر^(٢) ، يأتي في شعره على غرضه في السياسة ، ويفرط في سب أصحاب النبي^(٣) صلى الله عليه وسلم ممن كان يرغب عن آل البيت ، وربما وقع عليه من الناس تجاف عن شعره من هذا الجنس ، إلا أنه ليس لأحد من الشعراء ماله من عذوبة الألفاظ ، وجودة السبك ، وروقي الشعر وطلاوته . وقد جمعني وإياه إلى هذا اليوم أكثر من مجلس ، ووجدته حسن الكلام جميل الخطاب ، إذا تحدث بين القوم أعطى كل رجل في مجلسه نصيبه من حديثه^(٤) ، وله في النسيب كلام رقيق فمن ذلك قوله :

ولما رأيتُ خشيةَ البينِ موجعا أ كفِـف مني أدمعا يـبـضها درر

أشارت بأطراف إلى ودمعها كنظم جمان خانة السلك فانتثر

ومن الشعراء المقدمين أشجع بن عمرو السلمي^(٥) ، وقد نزل الشعر في صدره موهبة من الله ، فانتفضت به قيس لذلك ، إذ لم يكن بها في الإسلام شاعر قبله ، وإنما كان الشعر في ربيعة وإيمن . فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس

(١) يقول في الأغاني ٣ : ١٧٣ إن الألفاظ السوقية لا تمنع أن تكون القصيدة جيدة .

(٢) العقد الفريد ١ : ٢٦٦ والمقدمة ١٧٣ وذكره المسعودي ٢ : ٨٠ وسمى شيعته بالكيسانية .

(٣) أبو الفدا ٢٠١ : ١٥

(٤) الأغاني ٧ : ٣

(٥) الأغاني ١٥ : ١٠٨

على العرب^(١) ، ومما أستحسنه من نظمته سهولة القول التي لا يعانى إلى البراعة فيها تكلفاً ، وقد حفظت له في مديح ولى العهد بيتين من جيد الشعر وهما قوله^(٢) :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام
فاذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار ، وقد رأيتهم يتسابقون إلى ابتكار المعانى الحسان من غير أن يتحلوا مذاهب من تقدمهم في عصور الجاهلية ، إلا فيما كان أقل من النادر^(٣) ، ولو رأينا لهم ما سبقوا إليه ما صح أن تتهمهم بالانتحال ، لأن العقول قد تتوافق وتتوارد ، وإن كان المتقدمون من الجاهلية أشرف منهم لفظاً فانهم لألطف منهم صنعا وأكثر من المعانى حظا . وهؤلاء هم أشعر العرب قد اجتمعوا في الزوراء إلا ابن هرمة وسأما الخاسر ، وكلاهما شاعر مجيد أيضا إلا أن أبياتهما لم تصل إلى ، فلم أعلق أخبارهما في هذا الكتاب .

وقد كتبت هذه الرسالة في منتصف ذى الحجة من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ، والله المسئول في توفيقنا إلى السداد ، وهدايتنا إلى الرشاد : بيمينه تعالى وكرمه .

(١) الأغاني ١٧ : ٣٠

(٢) البيان قتيلا في هرون الرشيد .

(٣) انظر ابن خلكان ١ : ١٠٢ والأغاني ٣ : ٤٩ و ١٤٨ و ٥٠ و ١٧٨ والحصرى ٢ : ١٦٧

الرسالة الرابعة

جلوس المهدي على دُست الخلافة

أفتح هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهدي على دست الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبي جعفر ، وقد كان لذلك يوم عظيم في الحضرة والإسلام كله ، لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن ولد العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذر مصيرها إلى المهدي ، والمشايخ من أهل هاشم حاضرون ، بغير الأمر على خلاف المظنون بحيلة علمتها من البرامكة سرا لم تتكشف للناس إلى هذا اليوم . وذلك أنه لما أودى أبو جعفر — غفر الله له — كتم الربيع موته إلى الصباح عمن كان معه في الحج ، واستدعى عيسى بن علي عمه وعيسى ابن موسى ولي العهد بعد المهدي وجماعة من القواد والأمرء ، وتقدم إليهم بأمره — فيما كان يزعم — أن يجددوا البيعة لابنه من غير أن يعلمهم بوفاة ، فلم يتجرأ أحد على مخالفة الأمر ، ظنا منهم أنه صادر من السلطان . ولو أنهم علموا بوفاة ما تسارعوا إلى تجديد بيعتهم لابنه ، فلما بلغ مراده ولم يبق له غرض من كتمان موته دخل عليه كن لا يعلم أمرا مما نزل به ، ثم خرج إليهم مشقوق الجيب با كيانعي وفاته ، فلم يكن فيهم إلا من أخذت عليه البيعة ، وركب رجال المهدي إلى مكة ، وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها^(١) ، فصارت الخلافة إلى المهدي بهذه الحيلة التي تعاب على الربيع من وجه الظلم ، وإن كان فيها حقن لدماء المسلمين .

وكانت وفاة أبي جعفر في برميمون مع السحر ، لست خلون من ذي الحجة ، وهو محرم بظاهر مكة^(٢) ، ولذلك دفن مكشوف الرأس دون أحد غيره من

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣

(٢) ابن الأثير ٦ : ٨

الخلفاء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لبس القميص والعمام
والبرانس^(١) وغير ذلك من أنواع المخيط ، وحفر له أهله مائة حفرة بين الحجون
وبئر ميمون^(٢) ليُعمَّوا على الناس ، ثم دفنوه في غيرها . ووجه الربيع منارة^(٣)
الخادم إلى الحضرة بالبيعة ، وأمره بالسرعة خوفا من أمر يحدث في الإسلام ،
بغائها في أحد عشر يوما^(٤) من مكة .

وقد كنت في مجلس هرون الرشيد حين سمعت الجليلة في مقاصير الحرم ،
فاستعلمت الخبر ، فنبئت أن أبا جعفر قد مات ، فأسرعت إلى منازل البرامكة
لأشهد مجلسهم في ذلك الوقت ، فأخبرني نافذ أحد الحجاب أن المهدي قد دعاهم
إليه ، فترلت إلى السوق فلقيت أستاذي أبا يوسف ، فأبنت له ما أنا تائق إليه
من حضور البيعة ، فأشار إلى البقاء معه إلى قبيل الظهر ، وهو الوقت الذي
يجمع فيه أهل الحل والعقد لمبايعة المهدي .

فلما سرنا إلى دور الخلافة ، رأينا الساحات غاصة بمجاهير الناس ، فوجدنا
باب السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس ، حتى اتهمنا إلى باب القبة الخضراء ،
بفاوزنا الحجاب إلى المجلس الذي تقام فيه البيعة ، فاذا به قد جمع الأمراء من
بني العباس وجلة القواد والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة أعزهم الله وآل
المهلب وآل طاهر وآل قحطبة وآل نُوبخت وغيرهم . وكان المهدي مستويا
على عرش مكلل باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وعلى رأسه قبة تتدلى منها
أستار من الديباج^(٥) ، وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب ، ووقفنا
بمظلتين من الريش الأسود مرفوعتين على رحين مكسوين بعروق من الذهب ،

(١) الزرقاني ٢ : ١٤٨

(٢) الخميس والعقد الفريد ٣ : ٥٣

(٣) المسعودي ٣ : ١٩٤

(٤) أبو الفداء ٢ : ٩

(٥) المسعودي ١ : ٢٣٤

قد نُزِّلَ فيها الياقوت والزرجد والفيروز ، ودونهما بنو هاشم على وسائد قد مُنِيت لهم ^(١) ، ولباسهم خز أسود ، وكذلك كان لباس المهدي ، وكانت عليه الطرحة ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم التي استصحبها أبو جعفر إلى الحج ، وفي يده القضيب وفي الأخرى خاتم الخلافة .

وكان على يمين العرش منبر منخرف بأنواع الزينة والجواهر والديباج ، وقد وقف به كاتب المهدي في خلافة أبيه ^(٢) أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعري ، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة ، قد اتخذ وزيراً ^(٣) له في سياسة الملك وكان سلامان الأبرش حاجبه واقفا على بعض مراقبة ^(٤) هذا المنبر بالبيعة التي جاء بها منارة من مكة ، وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة ^(٥) ، قد أخذ في يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يروا إلا متابعة الناس ، بعد أن بايعت مكة والمدينة وبايع القواد والوزراء وأكابر المسلمين .

وكانت عادة الناس في مثل هذا الموقف أن يبدؤوا الخليفة بتعزيته في أبيه ، ثم يهتفون بجلوسه على تحت الخلافة ، فلما أخذوا في تعزية المهدي خلعوا قلائدهم ونبذوها وراء ظهورهم ، لأن الخلفاء لا يُعزَّون بالعلماء ^(٦) ، ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين ، ولفظ البيعة قوله ^(٧) " إنا نبايع سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على جميع الأنام أبا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور ، على

(١) الأغاني ٤ : ٩٣

(٢) الفخرى ٢١٥

(٣) الأغاني ٣ : ٤٦ العقد الفريد ٣ : ٥٣ والمسمودي ٢ : ١٩٦

(٤) السيوطي .

(٥) يفهم من ابن الأثير ٦ : ٦ أن خالداً ويحيى كانا غائبين عن بغداد لما توفي المنصور [

(٦) الأغاني ٩ : ٩٧

(٧) السيوطي .

كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد أمير المؤمنين ، وأن لا خليفة سواه ” ، ثم بايعه كل من حضر المجلس حتى لم يكن يسمع إلا دعاء له وتنويه باسم بنى العباس .

ثم تناول الوزير منشورا كتبه الربيع على لسان أبي جعفر استنهاضا للناس إلى مبايعة المهدي ^(١) ، فتلاه على مسمع من الأمراء وفيه يقول . ” بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بنى هاشم وشيعته في خراسان وعامة المساميين . أما بعد فإنى كتبت هذا وأنا حى فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة . أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدى ، ولا يلبسكم شيئا ، ولا يذيق بعضكم بأس بعض وأوصيكم بمحمد ولى عهدكم وأذكركم البيعة له ، وأستنهضكم للوفاء بعهدده واجتماع كلمتكم عليه ، فانما قوتكم تكون بالاجتماع إلى رأيه ، وقد أوصيته بكم وبالرأفة عليكم والإحسان إلى المساميين والسلام ” . فترقق الدمع فى عيني المهدي ^(٢) ولم يتمكن من إطالة الخطبة التى يقولها الخلفاء ، لما غلب عليه من تأثير النفس ، فصرف الأمراء وهم يدعون له بالسلامة .

سياسة المهدي وخالعه عيسى ابن عمه عن الولاية

ولما كان المساء أقيمت فى المدينة زينة حافلة فصرفت العناية إلى ترتيب مَشْرِع الزوايا ^(٣) بالأنوار ، لقربه من موضعى ، ليكون فى ذلك قضاء الواجب من شكر الخليفة على ما أولانى من الجميل ، ودفع لألسنة الوشاة عن السعاية بى إليه فيما استقر بنفوسنا من الميل مع أهل البيت ، وامتلأت الزوراء فى تلك الأيام بأرباب الملاهى ، وبما يعرضون من صور الطين التى يصنعونها للعب الصبيان

(١) ابن الأثير ٦ : ١٢

(٢) الإسماعيل ٨٨

(٣) موضع ذكره ابن خلكان ١ : ٤٦٤

في المواسم والأعياد ^(١) ولا أطيل لك الكلام على عادات العامة وسذاجتهم ، لأنها في جميع الأمم عامة ومتماثلة ، وإنما أخبرك بما عرفته للمهدى — أصلحه الله — من حسن السيرة التي يروم بها أن يستبدل برعب الناس من أبيه ورغبتهم عنه محبتهم له وميلهم إليه فأقول :

إنه بعد أن أظهر من الأبهة بافتتاح خلافته ما يعظم موضعه من السلطان ، صنع لبني هاشم وسائر قریش طعاما جاوز فيه الحد بسعة النفقة ^(٢) ، حتى إنه أطعم الناس الطير وخبز السميد . وكان يحمل معه بدر الدراهم والدنانير في ركوبه ، فلا يتعرض له أحد إلا أعطاه ^(٣) ، فكان أرباب الدولة يخافون نفاد ما في بيت المال ^(٤) إذا استمر هذا العطاء ^(٥) ، ولا سيما بعد أن نقص دخل الدولة برفعه المؤمن والكسور وهو الأمر الذي كان يفاوضني فيه أيام خلافة أبيه ، فان الناس في صدر الإسلام كانوا يؤدون ما في أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضرورية على وزن كسرى وقصر ، لا يفرقون في الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدها التجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبري ، الذي هو أربعة دنانق ، ويمسكون الوافي ، الذي هو منقال ، فلما أمر زياد صار يطلب الوافي ، ثم أمر الحجاج فطلبه كذلك ، فلما صار الأمر إلى أبي جعفر أزال الخراج عن الحنطة والحبوب ، وصيره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يسقط الكسور ، فلما ولي المهدي قال معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً في ذلك ، فقليل له إن أسقط

(١) ابن خلكان نقلاً عن كتاب إحياء علوم الدين للفتاوى .

(٢) الأغاني ٣ : ٩٤

(٣) المسعودي ٣ : ٤٠١

(٤) المسعودي ٢ : ١٩٦

(٥) الحصري والتبليس ٢ : ٣٣٠

أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله في السنة اثنا عشر ألف ألف درهم^(١) ، فقال على أن أقرر حقا وأزيل ظلما ، لأن العدل موفر للجباية ، كفيل بعمران الأمصار .

ولقد أعظمت للمهدى هذه المأثرة التي أحسبها له من أجمل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فإن لنا في سقوط الدول التي قامت في هذا المكان نفسه من النبط والكلدان وغيرهم ما يدلنا على أن الظلم يقتل العباد والبلاد جميعا ، فأنما كان غرض الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيام بأعمال الزراعة والمقام في بلدان انخصب ، لما يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تناسلوا في ظلال العدل ، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا إذا اجتمعوا لحرب أو لغزوة بلغوا ألوف الألوف من الخلائق ، ثم لما غفلت الدولة عن مصالحتهم ، وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد ما دعتها إليه مطالب الترف ، لم يبق في نفوسهم شيء من حب البلاد ، وهم لا يتغنون منها إلا تحصيل القوات الذي يأتيهم على إجهاد النفس ، فضعفت فيهم أسباب الهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مرد العدو بهم ، وقد ماتت نفوسهم من الظلم ، نخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وكان وفود البلدان يردون على المهدى من الأقاليم الإسلامية الأقرب فالأقرب لتهنئته بالخلافة ، فاجتمع ببابه كثير من أشراف العرب وملوك الأقاليم ، وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه الخير لأنهم رأوا منه عدولا عن سيرة أبيه ، وإنما كان محسنا إليهم^(٢) ، محبا لهم وساعيا فيما تصلح به أمورهم ، فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلسا لرد المظالم^(٣) ، ولم يكن قبله في الدولة العباسية من ينظر في تعدى الولاة على

(١) الماوردي ١٣٧

(٢) الخميس ٢ : ٣٣١

(٣) السيوطي وابن الأثير .

الرعية وجورهم فيما يحبونه من الأموال^(١) ، ولقد وجدت له في استئالة الناس إليه غايتين تصبو إليهما نفسه، ولا يهدأ له بال إلا بقضائهما على ما يروم، وهما إذلال العلويين إلى أن يكون بآمن من تغلبهم عليه ، ثم جعل الخلافة من بعده في ولده ممنوعة على غيرهم من بنى العباس . فأما أمر العلويين فما كان يشتد عليه وقعه بعد أن رماهم أبو جعفر بالخسائر التي يحتاجون معها إلى زمن يأمن به شعثهم ، ويجمعون إليهم أطرافهم ، فكأنما هو يقارعهم بسيف أبيه إلى هذا اليوم . وأما خلع عيسى ابن عمه عن ولاية العهد فانه كان يُتَّعَب منه البال ، وقد دخل عليه يحيى بن خالد — أعزّه الله — فأصابه في قلبي شديد ، يقعد مرة ويضطجع أخرى . قال لي يحيى فعلمت من ذلك أنه يريد أمرا عظيما ، فقال اجلس قريبا مني ، لأتينا أريدك للمشورة^(٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، فإليشوا أن أجمعوا على أبي بكر ، ولكن بعد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار ، لقولهم منا أمير ومنكم أمير ، ثم مات أبو بكر وقد صير الأمر إلى عمر بن الخطاب ، فلم ينازعه فيه أحد ، ثم عهد لها عمر إلى ستة نفر الذين مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فأجمع رأى الأئمة على عليّ وعثمان ، وكان عبد الرحمن بن عوف أحد الستة المتوه عنهم يميل مع عثمان ، وفي وصية عمر إلى المسلمين أن يتبعوا رأيه ، فبايعوا من أراده ، فاستقر عثمان في خلافته إلى أن ثارت عليه الفتنة لإقصائه ولد أبي بكر وإقباله على أقاربه من الأمويين بالصلوات الطائلة ، وعهد المسلمين قريب

(١) في المساردي ومقدمة ابن خلدون أن هذا المجلس ينظر في كتابة الدواوين إذا وقع بها ترور وفي قنلم المستزقة من الجند من نقص أرزاقهم ومن تأخرها عنهم وفي مشاركة الوقوف ورد المصوب إلى أصحاب الحقوق وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة لضعفهم عن إقاضه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة يده وعلو خطه وإمضاء ما يعجزون عن إمضائه في البيئات والتقارير واعتماد الإمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل المتخاصمين على الصلح .

بضبط^(١) أبي بكر وعمر، فقتلوه وكانت تلك أقل فتنة في الإسلام،^(٢) ثم أجمع العرب على علي عليه السلام، وكان الفرس يميلون معه، فاستوثق له الأمر في العراق وإيمن والحجاز ومصر وفارس وخراسان، إلا الشام لاستواء معاوية فيها، فلما قتله الخوارج لم ير الحسن ابنه مقاومة الأمويين بالقتال ضنا ببذل الدماء فترل له عن الأمر، وصارت الخلافة إلى غير أهلها بما قد بلغك من الفتن فأخاف اليوم إن صارت إلى ابن عمي أن تذهب من بيتي بلا رجوع، ثم يكون من الفتن ما لا يؤمن غائلته على المسلمين، فأشير عليّ يا أبا الفضل في هذا الأمر، الذي لا يتعاضمه أمر، فانك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر.

فقال له يحيى يا أمير المؤمنين إني أرى الزلّة في هذا الأمر لا تستدرك، والخطأ فيه غير مأمون، فإن تكتب بالولاية لأولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكد في البيعة. فقال له المهدي كنت أفعل هذا لولا أني أخاف من عيسى نكت العهود، ولكني أرى أن أخلعه عن الولاية وأخذ البيعة لموسى على المسلمين، فقال له يحيى على أمير المؤمنين أن يعلم شيعته ومسان أهله بذلك، ولم يتعمق في هذا البحث إلى أبعد مما أشار به، لأن موقفه بين العلوية والعباسية من أشد ما يكون من الصعوبة، وأنه وإن كان يأخذ في تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم في المشرق، له في حبه للعلويين ما يرى به عدولهم عن العراق الذي ترهق النفس دون التمكن من أهله، وإنما يلتمس لهم من المغرب أمما ترسخ فيهم دولتهم، إلى أن يأتيهم الله بالنصر القريب.

ولما جمع المهدي أكابر الدولة وفاوضهم في هذا الأمر ظفر بالموافقة من نفوسهم^(٣) ولكن على أن يجيبه ابن عمه إلى الانخلاع وانهى بعض من يستخدم

(١) الفخري ١١٦

(٢) السيوطي

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٦

الفقه في رضا الملوك إلى أن يقول إن أبا جعفر لم يكتب لعيسى بالولاية إلا لتبقى الخلافة في بيته بعد المهدي ، فلما رزقه الله أولاداً كانوا أحق بها من أعمامهم ، فكتب المهدي إلى الرحبة يستقدم ابن عمه إليه ، فلم يصل منه خبر ، أو وصله أنه يعتل بالشكوى ، وما بنفسه اعتلال ، ويستنكر الخروج إليه إلا أن يكره بالقتال . فعمد إذ ذاك إلى مكيدة الحرب ، وأرسل الجند على ذلك الوجه مأموراً ألا يأخذه بالقتال ، بل يستعمل الرفق والملاينة في ترغيبه عن المخالفة إلى أن يجيبه إلى الخضوع . وكان على هذا الجند قائد نبيه الصوت في الحروب يقال له أبو هريرة محمد بن فروع ، فرأى أن يفاجئ الحصن في آخر الليل ويصف العساكر صفوفا متعارضة ، ويضرب وراءهم مصاف الخيام ليؤهم باستنكار العدة والعزم على منابرة الحصار ، ثم يُتْرَل بالجند الزعقة العظيمة التي إذا سمعها عيسى وهو في نومه خافه الجزع وأفرغه الهول ، فلما فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة ، ثم أشرف من الحصن سحراً ورأى سواد الجيش ، فامتلا قلبه من الوحشة ولم ير السلامة إلا بالاستسلام ، فأخذه أبو هريرة إلى المهدي ، فلم يقر عن استعمال الخيلة في تعويضه عن الولاية بالمسال إلى أن أجابه إلى الانحلاع ، ولكن بعد شدة ما لحقه من الضيم .

ولما تصرف المهدي في أمر البيعة بما أراد ، ثار في قلوب المخالفين (١) له ما كان يُحْمَد فيهم حمله وسعة عطائه ، فحصل في نفسه منهم خوف شديد ، ولكنه لم يرمقوا منهم بالقتل ، وفيهم كثير من أهل السيف ، لثلا يتسع الفتق وتعود عليه الفتنة بغير ما يحب ، ولما رجع إلى من يلوذ به من العلماء ، وأمرهم بتصنيف الكتب في الرد عليهم ، وأخذ في استصلاح الزوراء والنظر في حسن السيرة الظاهرة من أهلها باكره العزَاب على الزواج ، والإحسان إلى المتعفين من الشبان ، مما جرى له قيل وقال بين الناس ، كمثل أن نسبوا ذلك منه

(١) ابن الأثير والقفري والسيوطي .

إلى غيرة به على النساء ^(١) ، وهم قد غفلوا عن الغاية التي يرونها من صلاح أمره بصلاح الزوراء ، وموازنتها بمكة مهد الإسلام حتى يعظم فيها أمر الدين ، وتصبو إليها أفئدة المسلمين .

ظهور المهدي بمناصرة العلم

إني وإن لم أكن على غرض العباسيين في السياسة ولا تطيب نفسي بما ينفردون به من الملك (لأنني إلى قوم سواهم لأميل) لأوفى المهدي حقه من الثناء على ما له من جميل العناية ^(٢) في تعظيم العلم وتكريم العلماء . فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياما ^(٣) معلومة من السنة ، يعرضون فيها بضاعتهم من علم أوفى أو أدب أو صناعة حتى يحصل بينهم التنافس ، ويصدروا ما عندهم من التفاسير ، ثم يجزيهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم .

ولقد رأيت أصلحه الله أعطى الخلفاء نوالا للشعراء ، وهو يأذن لهم بالدخول عليه مرة في السنة ^(٤) فيجتمعون ببابه ويتفاخرون بما عندهم من محاسن الشعر وفصاحة الكلام . وقد حضرت اجتماعهم بداره لأول ما ولي الخلافة ، وقد قصده ابن المولى من البادية ^(٥) وسلم الخاسر من البصرة ، وابن الخياط من مكة ، وأشجع السلمي ^(٦) من الحجاز فقالوا فيه الشعر الذي لم يمدح بمثله أحد من الملوك . ومن جملة ما حفظت لأبي العتاهية في تهنئته إياه بالخلافة قوله :

أنته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

(١) في الأغاني ٣ : ٤١ أن المهدي من أشد الناس غيرة .

(٢) الإصحاح ٨٨

(٣) المستطرف ١ : ٣٧

(٤) الأغاني ٩ : ٤٤

(٥) الأغاني ٣ : ٨٨

(٦) ابن خلكان ١ : ١٠١

ولو رامها أحد غيره زلزلت الأرض زلزالها

وإن الخليفة من بغض « لا » إليه ليغض من قالها

فأصاب لذلك حظا وافرا من المال . وكان بشار المقدم ذكره في الرسالة السالفة واقفا في صفوف الشعراء فلم يتمالك أن يقول لمن حوله ويحكم انظروا هل طار الخليفة عن سريره ؟

وكان المهدي يقدم عليهم سألما البصري ومروان بن أبي حفصة ويعطيها عطية واحدة ، فأما مروان فإنه يلتمس الفصاحة في كلامه تشبها بكابر الشعراء (١) ، وأما سلم فإنه يودع أبياته المحجون والخلاعة لتكون أنسا في عيون السلطان ، فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعر بون يشبه أن يكون ناشئا عما فيهما من تباين المشرب بين الإفراط عند الأول والتفريط عند الآخر ، فان مروان بنخيل يضمن بماله (٢) ، وسلم ستمح يبذل المال ، يأتي إلى دار المهدي على رذون قيمته عشرة آلاف درهم ، ولباسه الخز والوشى (٣) ، ويأتي مروان بأثواب رثة على حمار يكثر به بدرهم لا يخرج من يده إلا بعصب الريق ، مع كثرة ما أصابه من المال (٤) في صلوات تجاوزت خمسة آلاف دينار في عطية واحدة كما علمت .

ولئن تكن الفصاحة في كلام مروان أجلا منها في شعر سلم إني لأعيب عليه المداهنة التي يلتمس بها مرضاة الخليفة بقده في أهل البيت على غير حكمة وعقل ، كأنه يحزم بما يراه عن يقين لا رجوع فيه ، كقوله في ثبوت الخلافة للعباسيين وبعده العلويين عن وراثته النبي صلى الله عليه وسلم :

يا ابن الذي وريث النبي محمدا دون الأقارب من ذوى الأرحام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثته الأعمام (٥)

(١) الأغاني ٩ : ٤١

(٢) الأغاني ٩ : ٣٩ والوطواط ٢٩٥

(٣) الأغاني ٩ : ٣٩

(٤) ابن خلكان ٢ : ١٣١

(٥) الأغاني ١٢ : ١٧ والعقد الفريد ١ : ١١٨ والمسعودي .

وهذا مردود من وجوه كثيرة ، لأن الخلافة إنما هي مصلحة دينية لا وراثية دنيوية فحيث توجد المصلحة الدينية تكون الخلافة ، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم صرح بأن الحسن والحسين هما ذريته ، فإذا وجدت الذرية لم يبق مدخل للاعتماد في الوراثة ، اللهم إلا إذا رجعنا إلى شريعة الجاهلية التي نسخت بحجى الإسلام ، ولو أنا ضربنا عن ذلك كله صفحا ما وجدنا أصلح للإسلام من أن تجتمع كلمته على من لا ينصرف عن طاعته أحد من المسلمين ، إلى ردود كثيرة ما أنا من ذكرها الآن في شيء ، وإنما أعود إلى الحديث الذي جرى به القلم عن سيرة المهدي ، فاني شهدت بداره أيام الشعراء وأيام القصاص وأيام الندماء وأيام المغنين وأيام الرماة ^(١) وأيام جري الخيل ، وقد سبقه إليها الخلفاء ، إلا يوم السباق فاني لا أعلم عن أحد من بني العباس أنه أقام الحلبة وأجرى بين يديه الخيل في محفل من كبراء الدولة قبله . وكان له فرس سباق الأضاميم ، يقال له الغضبان ^(٢) ، فكان أول خيل الحلبة في ذلك اليوم ، فلما وصفه الشعراء أصاب جائزتهم العاني وقد ارتجز :

قد غضب الغضبان إذ جد الغضب وجاء يحجى حسبا فوق الحسب
من إرث عباس بن عبد المطلب وجاءت الخيل به تشكو التعب
له عليها ما لكم على العرب

ولكن هذا من الأمور التي تكفي المشاهدة لها مرة واحدة ، وأما الذي تراح إليه النفس ، على التماس الكثير منه في دور الخلفاء ، فهو يوم الغناء وكان المهدي إذا اتخذ له مجلسا بداره ضرب للغنين ستارة يجلسون وراءها في صفوفهم بحيث لا يرونه ^(٣) إلا فليح بن أبي العوراء ، وهو أوضح الناس غناء وأعرفهم بالألحان

(١) ذكرها المستطرف ١ : ٢٧

(٢) الأغاني ١٧ : ٨٢

(٣) الأغاني ٤ : ٩٩ وذكر المسعودي ١ : ١١٨ أن الأرائل من بني العباس ما كانوا يظهرون

والأصوات^(١) وإن لم يكن أحسنهم صوتا ، فانما يحسن الغناء عند من يُسَبِّح
الأنحان ، ويملاّ الأنفاس ، ويعدّل الأوزان ويفحّم الألفاظ ، ويعرف الصواب ،
ويقيم الإعراب ، ويستوفي النغم الطوال ، ويحسن مقاطيع النغم القصار ،
ويصيب أجناس الإيقاع^(٢) ، فهو يحسن ذلك كلّ لمحله الجليل من هذه الصناعة
وليس له فيها شريك إلا مغن آخر يقال له عطرود^(٣) قد أدرك دولة الأمويين
في آخر مدتهم وأما من سواهما من المغنين فليس لهم في الصناعة ما للتقدمين من
الفرس ، وأنا لا أعيب ذلك عليهم لأن الزمن الذي مضى عليهم في صدر الدولة
كان مضرجا بدماء الحروب ، فانصرف الخلفاء عن النظر في مطالب اللهو والترف
إلى التماس الأسباب التي يؤيدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة . ثم إن نقل
الغناء إلى العربية^(٤) ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من صناعته وفنونه ، لأنهم
نقلوه من الفارسية في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وهو الزمن الذي أخذ فيه
العرب بسكنى الأمصار وانتقل أمر الأمة من سذاجة الخلافة إلى ترف الملك ،
فلقد نقلت إلينا الأخبار السالفة أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم لم يقيموا أبهة
الملك ، ولا كان لهم على المسلمين سلطان دنيوى يتوسعون منه إلى التماس النعم
من الدنيا^(٥) ، وإنما كانوا مظهر الفضيلة ومثال القناعة والعفاف ، وكانوا يلبسون
الثياب المرقعة^(٦) ، ويتخذون في أرجلهم نعالا من ليف^(٧) ويمشون في الأسواق
كبعض الرعية رجالا^(٨) وكان لباس أبى بكر الشملة والعباءة ، ولباس عمر جبة

(١) الأغاني ٤ : ٨٨

(٢) الأغاني ١ : ١٢٦

(٣) الأغاني ٤ : ٩٩

(٤) الأغاني ٣ : ٨٦ والمعهودى ٢ : ٣٥٧

(٥) وكانوا يقولون في خطبهم للمسلمين أطيعونا ما أطيعنا الله فيكم فإذا عصيتم فلا طاعة لنا عليكم .

(٦) الطبقات ١ : ١٩ والمقدمة ١٨٥

(٧) الفخرى ٣٣

(٨) الفخرى ٨٩

من التصوف مرقعة بالأديم ، ومركبه الابل ^(١) ، وكان على عليه السلام يتجافى عن جمع المال ، ويقول يا صفراء ويا بيضاء غرى غرى ^(٢) وكان مطعمهم على مثل هذا الوجه من الكفاف يلتمسون به الغذاء من غير تأنق فى الأطعمة ، حتى إن المناخل كانت مفقودة عندهم ، فكانوا يأكلون الخنطة بنخالها ، ولا يعرفون من الألوان إلا اللحم يطبخونه بالملح والماء ^(٣) ، وكان أبو موسى الأشعرى يتجافى عن أكل الطير والدجاج ^(٤) ، وكذلك كان العرب فى سذاجة دولتهم على بُعد من ترف المتمصرين فى جميع معاشهم وأحوالهم ، حتى إنه لم يكن عندهم من الغناء إلا حُداء الرُكبان أو ضرب من النَّصَب أرق منه ، فلما ساد فيهم العمران فى عهد الأمويين وألقيت عليهم أصوات الفرس نبغ الكثير منهم فى محاسن هذه الصناعة ، ثم فتقت الفتن فى دولة العباسيين ، وقد طلبوا الخلافة من دون الملك ، فلم يتنبأ لهم مجلس بدورهم إلى هذا الزمان .

ولوع المهدي بمزاولة الصيد

تجد فى أنا ذا كركك عن المهدي أنه يجمع إلى خلافة الأمة أبهة الملك ، وهما أمران لم يجتمعا فى خليفة غيره ، وربما التمس الطيبات فى هذه الأبهة والتأنق فى فنون المعيشة إلى الغاية التى لم يبلغها ملوك بنى أمية من قبله ، فإذا جلس إلى الندماء أحب أن يتمتع نفسه بلذة أحاديثهم ^(٥) وإشارتهم دون ستارة تحجبهم عن نظره ، وإذا خرج إلى الصيد ركب فى المواكب العظيمة المزينة ، وربما كان ذلك من أحب الأشياء إليه .

(١) المسعودى ١ : ٣٢٠

(٢) الطرطوشى ١٢٤

(٣) الألبهى ١ : ١١٤

(٤) المقدمة ١٧٨ وفى البخارى وشرحه القسطلانى ما يخالف ذلك .

(٥) السيوطى .

وأنا لا أعدُّ الصيد من الملاهي التي تعاب على الملوك إلا متى أفرطوا فيه وكانوا أقرب به إلى الأثر منهم إلى النزهة والرياضة ، كما نعلم عن صبية الأمويين الذين أجَّلُوا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعهم في طلب الصيد . وهذا بعيد عن أن يكون في المهدي (أصلحه الله) وإنما هو كَلَّفَ به ^(١) من غير إفراط فيه . لأنني رأيت من الأمراء من يتأنق أكثر منه في اتخاذ العُدَّة له ، إلى أن يصنعوا نِصال سهامهم من الذهب كما ورد عن بعضهم في كلام الشعراء :

ومن جوده يرمى العُدَّة بأسهم من الذهب الإبريز صيغ نِصالها
لينفقها المجروح عند انقطاعه ويشترى الأكفان منها قتيلاً ^(٢)

وهذه مباهاة لا ينظر إليها الخليفة من منزلة القنص ، وإنما عني باتخاذ الصقور والبِيزان وتربية الكلاب التي تسبق الظليم في عدوها ، يُبْسِها أطواقا من ذهب ^(٣) ، ويوَكِّل بكل كلب عبدا يخدمه كما يفعل كثير من الأمراء وأهل النعمة ^(٤) في تربيتها للتحرّض على الصيد ، إذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذها إلا فيما كان لغير الصيد والحِراسة . وأما البِيزان والصقور فإنه لم يَسْبِق إلى اتخاذها ، بل كانت معروفة عند العرب من ملوك كنده ، وقد وقف أحدهم يقانص بالحِباله فَنَقَضَ بازٍ وحمل عصفورا وعلق وإياه في الحِباله ، فأخذه الملك وهو يأكل العصفور ، ورماه في كسر البيت فرآه قد دَجَن ولم يبرح مكانه ، وإذا رمى إليه طعاما أكله ، وإذا رأى طيرا طار إليه فاتخذته في عُدَّة الصيد وطالب به الطير ، وصار العرب يؤدّبونه ^(٥) لذلك ، ثم يؤدّبون العقبان أيضا ، ويقولون إنها تعمل عملا لا يدركه أكثر الصقور ^(٦) .

(١) ذكر حب المهدي للصيد في الأغاني ٣ : ١٥٠ وابن الأثير والالتبدي وابن عون .

(٢) الالتبدي .

(٣) ذكر الفخرى ٦٧ هذه الأطواق من الذهب .

(٤) الأغاني ٦ : ٧١

(٥) المسعودي ١ : ٩١ والأغاني ٧ : ٤٥

(٦) الديميري ٣ : ١٥٢

وقد ركب المهدي يوما إلى الصيد وكنّت في خدمته مع الأمير عليّ بن سليمان ابن عم أبيه وأبي دلّامة الشاعر ، وكان خروجه من القصر في آخر الليل ، وفي طرف الأفق شفق من الفجر ، وكان يحوطه فرسان من الحرس متنكبون قبيهم ، متقلدون سيوفهم ، يتبعهم قطعة من الجنود ، وطائفة من الغلمان قد حملوا المؤونة على الخزائن^(١) الخفيفة ، وبينهم عدد من الوصفاء في أخف كسوة وأجمل لباس ، وكان مسيره محاذيا للنهر ارتيادا للخصرة التي تتجنب إليها الطيور وتسرح فيها المها والغزلان ، حتى إذا انجلى النهار وقد رمى شيئا من الطير تقدم إلى من بين يديه من الفرسان أن يضربوا حلقة في أرض مطمئنة ممرعة ، ثم يضيقوها رويدا رويدا إلى أن يؤخذ الصيد بين جموعهم من كل جهة^(٢) ، فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع في حلقته غزال قد نفر ومرو ، وكان الخليفة قد نشط للصيد وخف له في ذلك اليوم ، فقال هو وابن عمه إليه ورشقه بالسهم فأصابه سهم في صدره ، وأصاب السهم الآخر بعض الكلاب فصرعه ، فلما جلسا للاستراحة حمل إليهما هذا الغزال ، فوجد في صدره سهم الخليفة ، فارتجل أبو دلّامة وهو يريد المزاح^(٣) :

قد رمى المهدي ظييا شكّ بالسهم فؤاده
وعليّ بن سليما ن رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل ام رى يأكل زاده

وقد اتفق للمهدي في ذلك اليوم نادرة لم أر أظرف منها فيما يتفق للولك من النوادر ، وهي^(٤) أنه أخذته السماء وهو منقطع عن عسكره منتبذ من أصحابه ،

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٠

(٢) الفخرى ٦٥

(٣) الأغاني ٦ : ٤٧ والشريش ٢ : ٢٦١ والعقد الفريد ٣ : ٤٤٥

(٤) المسعودي ٣ : ١٩ وابن الأثير ٦ : ٣٠ والفخرى ٢١٢ والمستطرف ٢ : ٣٠٦

والشريش ٢ : ٢٥٧ والاتبلي ٨٦

فَرَكَّضَ فَرَسَهُ مِلءَ فُروجه حتى لا يَلْبُدَهُ المطر ، فاتَّهَى إلى بيت أعرابي مُلَاجٍ (١) فبادر إلى نزع ما ابتل من ثيابه وجلس بجانب نار موقدة ، ثم قال يا أخا العرب هل من قِرى ؟ قال عندي فضلة في رَكوة فقال له هات اسقني ، فشرب قَعْباً وسقاه ، فلما شرب قال له يا أخا العرب أتدرى من أنا ؟ قال لا والله قال أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال له بارك الله في موضعك ، ثم شرب قدحا وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابي أتدرى من أنا ؟ قال زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين قال لا بل أنا من قواد أمير المؤمنين ، قال رُحبت بلادك وطاب مرادك ، ثم شرب قدحا وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابي أتدرى من أنا ؟ قال نعم ذكرت أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال فلست كذلك قال فمن أنت ؟ قال أنا أمير المؤمنين فأخذ الأعرابي الركوة وأوكأها ، فقال له الخليفة مالك يا شيخ ؟ فقال مكانك . والله ما آمن أن أسقيك القدح الرابع فترعم أنك رسول الله . فضحك المهدي حتى استلقى وأقبل الجند عليه . ونزل الأشراف إليه . فطار قلب الأعرابي من الخوف ، فقال له المهدي لا بأس عليك ولا خوف . ثم أمر له بمال وكُسوة . ولم يلبث أن رجع إلى الحضرة بعد انكماش ناله من العدو السريع ونزول المطر وهبوب الريح الباردة .

في تمة أخبار المهدي ورسالتى إلى خراسان

نعود إلى ذكر المهدي في دولته وسياسته ، فانه لما حقق البُغية بما أراد من البيعة لأولاده بقي عليه أن ينظر في أمر العلوية ، وقد بقي منهم في السجون جماعة لم يطلقهم منها فيمن أطلقه عند ما ولي الخلافة (٢) ، بل أبقاهم مع الذين عندهم تبعات من دم أو مال ، وهذا من شر ما يلاقيه أهل البيت من الذين خالفوا جدتهم عليه الصلاة والسلام ، ثم إنه لم يكتف بهذا الظلم حتى تعمدهم مضرتهم

(١) الأغاني ٣ : ١٥٠

(٢) في ابن الأثير ٦ : ١٥ والأغاني ٣ : ٣٩ انه عند ما ولي الخلافة أطلق المسجونين .

باستئالة جماعة من أشياعهم يطلعونه على أمورهم فيما يسرون ويعلنون ، وفيهم رجل من بني سُلَيم يقال له يعقوب بن داود ، طوقه أمر الوزارة ومكثه من بيوت المال ليطلعه على أمورهم ، ويعلمه بمكان الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بعد خروجه من السرداب الذي حفره إلى محبسه ذوو النخوة من رجال الشيعة ، ولكن يعقوب كان ذا عقل ورأى وفوة ومن لا يستبدل المال بغرضه غرضا آخر ، فبقى ميله مع أهل البيت ، والمهدي وأبو عبد الله يظنان أنه على خلاف ذلك ^(١) .

ولما استوثق للمهدي أمر العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين ، فركب إلى الحج في كثير من عطاء دولته ، واتخذ من الأبهة ما لم يسبق له مثيل في الإسلام ، واستصحب معه هرون ابنه ويعقوب بن داود المقدم ذكره وجماعة من أقاربه المقربين ، واستخلف في الحضرة موسى ابنه ويزيد بن منصور الجيزي خاله ، وحمل معه خمسين ألف ألف درهم ومائة وخمسين ألف ثوب ^(٢) يفرقها في أهل الحرمين ، وكان عازما في تلك الحجّة أن ينكب الإمام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله من أولاد علي عليه السلام ، وقد علم أنه في جوار مكة ، فتقدم يعقوب بالشفاعة إليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه عنه فأطلق له الأمان ^(٣) الذي كان مقبوضا عنه وعن آل بيته في خلافة أبي جعفر .

ولما قدم إلى مكة نزع كسوة الكعبة وطلّى جدرانها بالمسك والعنبر ثم كساها كسوة جديدة من الحرير ، لأنه كان يخاف عليها أن تتهدم لكثرة ما عليها من الديباج الذي كساها إياه هشام بن عبد الملك ، ثم أمر بإنشاء أروقة المسجد الحرام ، وحمل لها الأعمدة الرخام من البحر ^(٣) ، واتم بناءها على عناية يلمس بها استئالة أهل الحرمين مع ما أولاهم من الإحسان ، واتخذ لهم مآذب أفرغ الوسع في زخرفتها

(١) ابن الأثير ٦ : ١٤

(٢) الخميس ٢ : ٣٣٠

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٨

وتتبعها للدلالة على عظم ملكه ، حتى إنه سقاها الماء المبرد بالثلج المحمول من الشام^(١) ، (وكان الذي حمله إلى مكة محمد بن سليمان الهاشمي الذي تقدم في الكلام على البصرة ذكره) وهذا من الأمور التي توسع أهل البادية تعجبا من اقتدار الملوك على الغريب ، ثم إنه رد عليهم الوظائف التي قبضت عنهم في خلافة أبيه ، وفرق عليهم غير ما حمله من الحضرة ثلثمائة ألف دينار حملت إليه من مصر ، ومائتي ألف دينار من اليمن ، وغير ذلك مما جاءه من الجهات ، فبلغ المنفق في هذا الحج على كسوة الكعبة وصلة الناس وبناء القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع في كل منهل منها وتحديد الأميال والبرك وحفر الركاب وغير ذلك نحو من ستة آلاف ألف دينار ، واصطفى لنفسه من الأنصار خمسمائة نفر أجرى عليهم الأرزاق الواسعة واتخذهم لمراتب السيف في العراق ، كأنه يعارض أباه في تقديم الموالى على العرب ليستبدل بحفائهم له محبتهم إياه ، واتفق أن كانت هذه السنة سنة رخص وخصب بعد جهد أصاب الناس في العام لما دهمهم الوباء^(٢) الجارف ، فأحبه الناس وتبركوا به وقالوا هذا هو المهدي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميته^(٣) .

ولما عاد إلى الحضرة وقد وجد في تجواله في البلاد اختلالا لم يأمن معه على الدولة من الفساد صرف المهمة في النظر إلى تدبير الولايات ورتب أناسا يؤدون رسائله إلى العمال ويراقبونهم في إنفاذها وسمائهم الأمناء^(٤) ، ووجههم في جميع الأمصار فكان لا يُنفذ كتابا إلى عامل في أمر خطير حتى يكتب يعقوب الوزير إلى بعض لأمناء بانفاذ ذلك . ثم نظر في أمر الرعية فوضع لهم ديوان الأزمّة^(٥) وأقام على

(١) الخميس ٢ : ٣٠

(٢) ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ١٦٠

(٣) الأغاني ٣ : ٩٤

(٤) ابن الأثير ١٦ : ٢٠ ويقول في موضع آخر إن المنصور كان يحب أن يوجد في دولته

مثل ذلك ٦ : ١٠

(٥) ابن الأثير ٦ : ٢١

الشُرطة من تبين فيه حسن النظر والتدبير ، فاستوثق له الملك من الوجه الذى يرومه فى استمالة الناس إليه .

إلا أنه تواترت عليه فى منتصف هذه السنة ، والدهر له صاف ، رسائل من أبى عون عامله على خراسان يشكو فيها ضعف جنده واعتلال دولته وتغلب رجل أعور من مرو قد ادعى الربوبية وأغوى الخلق ، وقامت له فى الصّدف وبُخارى أنصار قد عاثوا فى البلاد ، واتخذوا البياض شعارهم لمخالفة السواد ، فتخوف المهدي أمرهم وأخرج إليهم مُعاذ بن مسلم موعِزا إليه بأن يلتئم مع الحرّشى الذى هو أمير الجيش فى خراسان ، حتى إذا كان على انتظار البشائر منه وصله من أبى عون أن قد وقع الخلاف بين الجيشين ، فعزم على توجيه رسول يكشف قناع الفتنة ويصلح بين الأمرين ، فوقع الخلاف بين يعقوب وأبى عبد الله فيمن يطوقانه أمر هذه الرسالة ، فرام يعقوب أن يقلدنيها ، وأحب أبو عبد الله أن يصيرها إلى أمير من آل حُطّبة وكان الربيع حاجب أبى جعفر راغبا فى توجيهي بها أيضا حبلى ، وكانت وقعت نُفرة ^(١) بينه وبين أبى عبد الله فاشتغل فى معاكسته وبلوغ المكروه منه .

ثم إن المهدي وقع رأيه على أن يبعثنى إلى مرو لأنظر فى أمر هذا المقنع الأعور ، وجعل لى التصرف فيما أرى حلّه وعقده من خلاف القواد ، إذ يكون خير الجيش المرجو ما لم تتقلب بأمرائه الأغراض ، ولا سيما أن له فى خراسان عدوين يتفقان جميعا عليه . جماعة خارجى يقال له يوسف البرم ^(٢) وشيعة هذا المقنع الذين يدعون ألوهيته وقيمون دعوته على بذل الدماء . فأما جماعة البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة إلا فى أمر من السياسة ، ولذلك كانوا أقل على الدولة خطرا من رجال المقنع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا أن الله تعالى خلق آدم فتحوّل

(١) الفخرى ٢١٦ وابن الأثير ١٩ :

(٢) ابن الأثير ١٦ :

في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة غيره من الأنبياء حتى تحول في صورة هذا المقنع بعد أبي مسلم رحمه الله . وقد نقلت الأخبار السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحي ويزعمون أنه أراهم في السماء قرا آخر يراه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره والعياذ بالله من شرور الأعمال .

ولما زعم هذا المقنع أن الله تعالى تحول قبله في صورة أبي مسلم ليستميل الناس إليه كما استمالهم داعية الإمامية رحمه الله وإن كان بعيدا عن إظهار دعوة أهل البيت . فكان استخدامه الدين لنيل مناه وجهها من السياسة ، يريد من شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن يتسارعوا إلى الانضمام إليه ، وقد رأى أن عصر موسى عليه السلام كان مقدما بالسحر فغلب السحرة ، وعصر عيسى عليه السلام مقدما بالطب فغلب الأطباء ، وعصر النبي صلى الله عليه وسلم مقدما بالبلاغة ففضل البلغاء ، فرأى أن عصره مقدم بالكيمايا فأراد أن يبهز الناس بما يستنبطه من المركبات .

وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة في ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرفة وأنا على أهبة السفر إلى نخراسان وسأصدر لك منها كتابا أودعه ذكر الشيعة فيها وأخبار أممها من الفرس والديلم وغيرهم وبالله نعتضد فيما نعتمد . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدي والهادي

ولما ^(١) وصلتُ إلى بغداد قصدت باب البرامكة لأقرأ عليهم سلام الفضل ^(٢) أعزّه الله وأطفئ ما بنفسى من الشوق إلى الأئمة بقرهم المحبوب ، إذ كانت المكتبة بيننا طول هذه الأيام لم تزدني إلا شغفا بحاسنهم واستطلاعاً إلى محيا جمالمهم . ثم إنى قصدت باب فقيه الإسلام وقد اتخذ المهدي (رحمه الله) قاضي قضاء المسامين ، وصارت إليه جوائز الهادي والرشد من بعده حتى بنى لنفسه في درب أبي خلف ^(٣) من ناحية الكرخ الدار التي لم يبن مثلها إلا ملك أو أمير ، فألفيته في مجلس حافل بالأدباء والأمراء وعليه ^(٤) المبطنة والطيلسان وقلنسوة طويلة ^(٥) قد حوَّطها بعمامة سوداء دعتة الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها على لون شعارهم ، وهذا هو الزيّ الذي يروم أن يكون مخصوصاً بالفقهاء ^(٦) لتمييزهم عن سائر الناس ، فكان لِمَلِّقَانَا موقف يستبكي الجمام لفرط ما بنا من الأشواق ، وصرفت اليوم بقيته بحضرته أجاذبه أطراف الحديث ، وقد نبأني بأحوال القوم في المدة التي كنت منفصلاً فيها عن دار السلام ، لأن القضاء قد

(١) الرسالة المكتوبة في خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه .

(٢) كان في ذلك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد كما هو مذکور في ابن الأثير .

(٣) محلة ببغداد ذكرها ابن خلكان ١ : ٣٠ .

(٤) المسعودي ٣ : ٣٣٧ .

(٥) وجدت في العقد الفريد ٣ : ٤٣ و ٢٣١ لفظة الطويلة بمعنى القلنسوة .

(٦) ابن خلكان ٣ : ٤٥٠ والأغانى ٥ : ١٠٩ .

يرد عليهم من طرائف الأخبار^(١) ما لا يرد على غيرهم ، ولا سيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليجلسه على سريره بجانبه^(٢) ، ويقوم له إذا دخل عليه ولا يقلد القضاء^(٣) ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلا من أشار به إليه .

ولقد ذكرت لك في رسالتي من خراسان ما اتصل بي من أخبار المهدي والهادي رحمهما الله فيما يتعلق بأمور الدولة . أما أخبارهما الخاصة فقد حدثني بها لسان الشريعة على إسهاب لا موضع له في هذا الكتاب ، على أن المهدي ما برح مستمرا إلى اقضاء خلافته على ما ذكرت لك من استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به تعزيز الملة والدولة ، ولقد جرت الشريعة في أيامه وإلى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لانقطاع النظر فيها إلى أبي يوسف من دون الخلفاء ، بحيث لم يتول القضاء إلا أهل العلم ومن لا يميل به طمع النفس إلى الخروج عن جادة العدل . وقد أقر رجاله في وظائفهم إلا وزيره يعقوب وقد وضح له ميله مع أهل البيت^(٤) ورفع إليه المفسدون بيتين من الشعر أغروا بشارا على قولها ، وأطاروا ذكرهما كل مطار :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا خليفة الله بين النأي والعود

فنكبه لذلك وألقى في بئر عمى فيها وهو يتوسد التراب إلى أن مات في خلافة الرشيد قبيل عودتي من خراسان .

(١) الاثني عشر ٧٩

(٢) الاثني عشر ١٤١

(٣) الماوردي والإصمعي ٩٠

(٤) ابن الأثير ٦ : ٢٦ والمسمودي ٢ : ١٩٦ والتفخري ٢٢١

وكانت ماثرة المهدي في آخر أيامه وضعه البريد ^(١) إبلا وبغلا في كثير من البلاد مما استنفق أموالا طائلة ، ولا سيما فيما بين مكة والمدينة إلى العراق ، وهو أول من أقام البريد من المجاز إلى الحضرة لما يروم من تناول الأخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة ، إذ كان على تيقظ من العرب في مناصرتهم لأهل البيت بالمواطن المشرفة كما كان على حذر من أهل الشام في استظهارهم على عماله بما يجاورهم من العرب الذين ما كانوا يحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لخلافة السواد الأعظم من قبائلهم ، ولذلك كان يرى المهدي إمداد عماله بالرجال والعرب بالمال حيناً بعد حين ، حتى دعت له الحال إلى الشخوص بنفسه إليهم فزار دمشق ^(٢) وبيت المقدس ^(٢) ، وأخذ في إزالة الخلاف الذي كان بينهم في بادية الشام بما فرق فيهم من الأموال الجسام .

أما الهادي (رحمه الله) فانه نسج على منوال أبيه وقد رسم له بتبع الزنادقة فمضى على ذلك وافتتح خلافته بقتلهم ووكل بهم رجلا يقال له عبد الجبار ^(٤) وهو المعروف بصاحب الزنادقة ، فاقتص أثرهم في الزوراء حتى لم يدع منهم عينا تطرف فما كان الزنادقة فيما أخبرني أبو يوسف إلا لزئير في عقيدتهم وإن بدا للناس ظاهر لهم من الظرافة وحسن السيرة ^(٥) ، كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله في رجل قد أثمهم بالزندقة ^(٦) :

لست بزنديق ولكنما أردت أن توسم بالظرف

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٦ وأبو الفدا ٢ : ١٠ والسيوطي والكنز ١٠٦

(٢) قضاة الشام .

(٣) الأغاني ٦ : ٦٧

(٤) الأغاني ٣ : ٧٢

(٥) ابن الأثير ٦ : ٣٨

(٦) الأغاني ١٧ : ٧٢

فانما يتعدون مذهبهم من التكذيب بالأنبياء وتعليم الناس بغض الخلفاء إلى أن
يمسوا الشرع الشريف بما لا يحلله كتاب الله ، فقل للفترين على الله إنه يحضرهم
في يوم لا يغني عنهم شيء ولا هم يرحمون . واعلم أنه لم يل الخلافة قبل الهادي أحد
في سنه ، ولكنه لم يستكمل ستا وعشرين سنة حتى مات ، فكانت مدة ولايته
سنة وشهرين إلا أياما ، وكان ذا جبروت ^(١) وإذا ركب مشى الرجال بين يديه
باليوف المشهرة والأعمدة والقيسي الموترة ، ولذلك كثر السلاح في عصره ،
وأحرز منه الشيء الذي كان يحب التباهي به ، حتى قيل إنه أعطى شاعرا مدح
سيفا عنده كان لعمر بن معدى كرب يقال له الصمصامة عشرين ألف درهم على
هذه الأبيات :

حاز صمصامة الزبيدي من يد جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين خديه برد من دُعا فتميس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذعاف القيون
فاذا ما سالت بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
ما يبالي من انتضاء لحرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصار كالقُبس المشعل ما تستقر فيه العيون
وكان الفيرند والجوهر الجا رى على صفحتيه ماء معين
نعم مخراق ذا الخليفة في الهيجاء يقضى به ونعم المعين ^(٢)

(١) الخنيس والمسعودي والسيوطي .

(٢) الحصري .

وقد صارت المراتب في أيامه إلى الناشئين من البرامكة والطاهريين والمهالبة وغيرهم ممن كنت أعرفه صبيًا قبل نزوحى إلى هذه الرحلة التي امتدت بي طويلا . وكان على وزارته الربيع بن يونس حاجب أبي جعفر (غفر الله له) وعلى بيت ماله المعلى بن طريف^(١) ، وعلى حجابته الفضل بن الربيع ، وعلى جنده آل أبي العلاء ، وقد حدثني بأخباره معهم بعض من كان مقربا إليه من الندماء ومنهم رجل من أهل الحجاز يقال له عيسى بن دآب ، وقد بلغ من الخطوة لديه والجلوس بحضرته على المتكآت ما لم يكن يطعم به غيره في ذلك^(٢) ، فكان يصف لي أخبار مولاه بما يرفعه إلى مساماة العظماء من أهل الرأي والتدبير ، غير أنى ما عرفت له شيئا من هذه المحاسن وهو صبي ولا رأيت في دولته الزهاء الذي أشرق على دولة المهدي قبله ثم الرشيد من بعده ، لأنه كان منهمك النفس بحب اللهو وولد له في فتاه سنه أولاد كثيرون وفيهم ولد أعمى^(٣) فيما سمعت . ولذلك كان الطامعون إليه من غير أهل المراتب أكثرهم أهل لهو وطرب . وكان أقربهم إليه مكانا وأفضلهم عنده منزلة إبراهيم الموصلي النديم ، وهو أعجمي الأصل بارع في جميع فنون العلم والأدب إلا أنه غلب عليه الغناء بعد أن تخرج على جوانويه^(٤) وسياط ، فبلغ من الإجادة فيه المكان الذي لم يبلغه المغنون من أهل الحجاز ، ولذلك كان الهادى إليه أميل منه إلى سواه من الندماء ، يقال إنه كان إذا استعطاه خمسين ألف درهم أعطاه مائة ألف^(٥) وقد قال لى إسحق ابنه والله لو عاش لنا الهادى لبنيينا حيطان دورنا بالذهب^(٦) .

(١) الأغاني ٣ : ١٥٣

(٢) المسعودى ٢ : ٢٠٢

(٣) العقد الفريد ٣ : ٥٤

(٤) الأغاني ٥ : ٤

(٥) الخصرى ٢ : ٢٠١

(٦) الأغاني ٥ : ٦٠

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولما جُلّت في المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتها في سعة من العمران ما كنت أعهدا قبل هذا الوقت ، فما كفى أهلها الموسرين ما رفعوا في مدينة المنصور من المباني المشرقة حتى توسعوا إلى سكنى الجانب الشرقى المعروف بالرُصافة ، فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات^(١) وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالبنائيات العامة ، حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد العتيق ، تجتمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي أحدثت في جواره .

ولقد أ كبرت من بغداد بلوغ العمران فيها بما رأيت من ازدحام الناس بأنحائها . وتوجههم كالبحر في أرجائها ، يقال إن عددهم يزيد عن ألف ألف وخمسمائة ألف^(٢) ، وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه في مدينة من العالم قط ، فأنما يدل اجتماع الناس إلى هذا القدر العظيم على أن ليس في المدن أيمن^(٣) ولا أيسر من الموضع الذي يتكفون فيه تكفؤ الرمال . ثم أعظمت بلوغ النعم في أهلها بما رأيت من توفر أرباب الغايات عندهم على الفنون التي لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران ، وإنما تتوسع المنفعة من صناعاتها ومصنوعاتها إلى مطالب الترف الذي يقع في الأمم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم .

وإنه يتعذر على بهذا القلم الذي لا مادة فيه أن أصف مفاخر المدينة^(٤) التي أقل ما تصيبه من الشرف أنها ترهبه بيهاء السلطان . وتضم إليها من عيون الأعيان

(١) قال ابن خلدون نقلاً عن الخطيب إن الحمامات بلغ عددها في بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومنقاربة تتجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لاتساع العمران .

(٢) في الاثني عشر ألف ألف وخمسمائة ألف .

(٣) ابن الاثير ٩٦ : ٦ وأبو الفدا ١٩ : ٢

(٤) يقول الحصري إن أدباء مصر يصفون الجمال بقولهم كان بغداد مسروقة من حسنه وظرفه .

كثيرا حتى إذا لقي السائر جماعة منهم في الطريق لم يقطن لهم من حيث الكثرة مع أن أقلهم في الثروة والجاه يتعذر على أ كبرالمدن أن تحمل سكناه وتسع جنده وحاشيته والطامعين إليه من كل الوجوه^(١) فلقد يمشى أهل النعمة فيها بالغلان^(٢) والحاشية إلى عدد يتوهمه السامع بعيدا عن الصدق ، فشاهدت في محلة العنابية^(٣) أميرا قد ركب في مائة فارس وأحرق به الغلمان حتى ملثوا الطريق وسدوا على الناس سبيلهم إلى أن مر ، وشاهدت في مشرع القصب^(٤) على دجلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكب عظيم من الخيل والرجل كأنى به قيصر على مركبه أو كسرى في جلال موكبه ، وربما عد المحصى في ولد العباس أكثر من ألف رجل^(٥) يركبون في مثل هذا الجمع ، وكلهم في سعة من الثروة وترف من الحضارة ، وإنما ساد العمران عند البغاددة إلى حد الترف تشبها بما يرون من الرشيد في إقباله على الدنيا بطلب النعيم ، حتى يصدق المثل الذي يقول « الناس على دين الملك » ، فهو الذي ألبس الدنيا هذا الجمال بسعة عطائه ، ولم يُسمع عن الخلفاء من كان أسمح منه ببذل المال^(٦) . يقال إنه ينفق على طعامه في كل يوم عشرة آلاف درهم^(٧) ، وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا من الطعام^(٨) ، وقد أخبرني أبو يوسف أنه لما بنى يزيدة بنت جعفر اتخذ ونيمة لم يسبق مثلها في الإسلام ، وجعل الهبات فيها غير محصورة حتى كان يهب أواني الذهب مملوءة بالفضة ،

(١) الأغاني .

(٢) الأغاني ٤ : ١٠٤ و ٨٤ : ٥ وابن الأثير ١٤١ : ٢٣١ والمستطرف ١ : ٦٥

(٣) ذكرها ابن خلكان ١ : ٧٤١

(٤) ذكره ابن خلكان ١ : ٧٩

(٥) في مروج الذهب ٢ : ٢٥٩ أن المأمون أحصى ولد العباس سنة ٢٠٠ فكان عددهم من رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفا .

(٦) الفخرى ٢٣٠ والخميس ٢ : ٣٣١

(٧) المسعودي ٢ : ٣٤٢ و ٢٢٠ والمستطرف ٢ : ٣٤١

(٨) السيوطي والعقد الفريد وثرين الأسواق والمقدمة .

وأواني الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر ، وبلغ جملة المنفق فيها من بيت المال خمسة وخمسين ألف ألف درهم ، وأمر أن تجلى زبيدة في درع من الدر لم يقدر أحد على تقويمه بثمن ، وزينها بالحلي حتى لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجواهر ، وهذا شيء من الإسراف لم يسبق إليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم ^(١) ولا صبية الأمويين مع ما تقلبوا فيه من المال الكثير .

ومن جمال الدنيا في هذه الأيام أن الرشيد لا ينفرد وحده بكثرة الإنفاق والتبذير ، فان زبيدة زوجه تصنع أعمالا تفوق مقدرة الملوك ، كمثل اصطناعها بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب وأعينها من يواقيت وجواهر ، يقال لأنها أنفقت عليه نحوًا من ألف ألف دينار ^(٢) وكثل اتخذها الآلة من الذهب المرصع بالجواهر ، والثوب من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل عليها الكلايب من الذهب الملبس بالوشي والديباج والسَّمُور وأنواع الحرير ، وكثل اتخذها شمع العنبر واصطناعها الخف مرصعا بالجواهر واتخذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون في حاجاتها ورسائلها ^(٣) ، إلى غير ذلك من الأمور التي تدون في سير الملوك لتعظيم موضعهم من السلطان وذكر ما تقلبوا فيه من الطيبات .

(١) وجدت في بعض الكتب أن المأمون بن الرشيد اتخذ في قصوره ثلاثة آلاف وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزركشة بالذهب وغيرها مطرز بالحرير واتخذ سبعائة خادم منهم ثلثائة عبد أسود فان صححت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا الفرس موضع في جانب العظيم من ترف العباسيين .

(٢) المستطرف ١ : ٩٨ وذكر أن التي صنعتها هي أم المستعين .

(٣) المسودى ٣ : ٥٠٢

ولم أر مثل هذا الترف في غير دور الخلافة إلا عند البرامكة الأتجاد ، وإليهم ينتهى جمال المملوك وإشراقهم ، فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروههم أكثر مما يجلسون للخليفة . ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب المحوّل من الجانب الغربى (١) فى موكب عظيم وقد طُرّز ملبسه وبين يديه الجند والعلمان ، والحفّاء والأعوان ، وهو واضع طرفه على معرّفة فرسه ، والناس ينظرون إليه وهو لا يلتفت إليهم كبرا وجلالة ، وكان الرشيد نفسه إذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة ، والخزائن المجزّعة ، والمطارح من الوشى والديباج ، والجواري يرقلن فى الحرير والجوهر ويستقبلنه بالروائح التى لا يدرك ما هى لطيبها ، خيل إليه أنه فى الجنة بين الجمال والجوهر والطيب .

وقد انتهى ترف شبابهم إلى الغاية التى لا وراء بعدها من التمتع بسعة النعيم ، وربما كانت مجالس الطرب فى دورهم أجلّ منها فى دار الرشيد وأجمع لمعدات اللهو (٢) ، لأنّ عندهم الغواني (٣) اللواتى لا مثيل لهن فى البلاد ولا سيما قوّز وفريدة (٤) وممنة (٥) وهن أطرف القيان غناء وأحسنهن ضربا بعود .

واعلم أن الغناء من قبل البرامكة ما كان يعلم فى دور الأمراء لغير الصفر والسود (٦) ، فلما نشأ أولادهم أحبوا أن يعلموه الجوارى الحسان (٧) ليزيد جمالهن فى الغناء تأثيرا فى النفوس ، وقد أخبرنى نافذ من بعض حجابهم أنه لما زارهم الرشيد فى يوم من أيام فراغه أنخرجوهن إلى البستان فاصطفقن مثل

(١) ذكر الأغاني ٦ : ٧٨ والمسعودى ٢ : ٢٣٧

(٢) الأغاني ١٥ : ١٤١

(٣) الأغاني ١٥ : ١٤١

(٤) الأغاني ٣ : ١٨٣

(٥) الأغاني ٤ : ٨٧

(٦) الأغاني ٥ : ٩

(٧) الأغاني ٥ : ١٤ و ١٧

العساكر صفين صفين ، وغنين وضربن بالعيدان وتقرن على الدفوف إلى أن طلع إلى مقاصير القصر .

ولا نعلم عن أحد الملوك السالفين أنه نال من الطيبات ما هو موفور عند ملوكنا في هذا الزمان ، فكأن بغداد قد ألفت جوانبها على مهاد الدعة ، ووجدت لأهلها أسباب النعيم والكبر^(١) بما توفر عندهم من المال .

ترف البغاددة وانغماسهم في طيبات العيش

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقص شيئاً فشيئاً عند من هم أقل منهم في الجاه إلى أن يبقى منه نصيب لعامة الناس . وهم وإن لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلالة قدر لهم واتساع نعمة عندهم أخذوا يتمتعون أنفسهم من الطيبات في جميع وجوهها ، بعد أن تغربوا بالأسفار التي أكسبتهم التجارب وأرثهم العجائب ، وأوجدت لهم التجارات والمكاسب . فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأنفر ما عندهم من جميع الأجناس إلى أن عمرت عندهم الأسواق ، وتطرقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران إلى إقتناء الأشياء للزينة والمباهاة ، كابتاعهم السلاح المنزل بالذهب ، وتنافسهم في الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر ، واقتنائهم العدد الكثير من الغلمان والقيان إلى غير ذلك مما كانوا يوجهون رسالهم في طلبه من الجهات^(٢) ، فلما حُلِمَ إليهم كل غال ونفيس من البلاد تحقق لدى أن محاسن الدنيا قد اجتمعت في بغداد .

ولقد شهدت سوق الجوارى بعيد عودتي من خراسان ، وقد أقيمت في الموضع المعروف بسوق النخاسين^(٣) وهم الرجال^(٤) الذين يجلبونهن من أطراف الدنيا

(١) ذكر ابن جبير ٢١٩ الكبير من عيوب بغداد .

(٢) ذكره تزيين الأسواق ١ : ٣

(٣) الأغاني ٩ : ١٢٨

(٤) الأغاني ٥ : ١٢٦

إلى بغداد، فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان ينهن الغانيات اللاتي يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذي لا غاية بعده ^(١) ، وبما يتخذن من العصائب التي ينظمها ^(٢) بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب .

ولقد يخال الناظر لأول وقوفه بهذه السوق أن بيعهن إنما هو جارٍ عليهن من قبيل الظلم والاسترقاق ، غير أنه لا يستقر في هذا الوهم الطارئ بعد أن يرى تطارحن على أهل النعم . ولقد سمعت أن بعض الغواني المترفات يتخلصن سرا من حيث لا يُحِبُّن المَقَام ، ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء إلى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ، ومواليهن بهن غير عالمين ، فيتصرف النخاسون في بيعهن مثل تصرف التجار ببضائعهم ، وإذا وقع سوقهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هي العادة المألوفة في البيع والشراء . ولقد وقفت في ذلك اليوم والدلال ينادى بمن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسن ما يكون من أوصاف الجمال ^(٣) وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق رائجة .

أعود إلى ما كنت بصدده من ذكر البغادة في ترفهم المفرط فأتى رأيهم يزبنون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ، ويلبسون حيطانها الوشى والدياج ، ويعتنون بغرس الأزهار في جنانهم ، حتى لمنهم ليحلبون لها الرياحين ^(٤) من بلاد الهند ، فيصير من هذه الجنان ما يقوم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار ^(٥) ، ويتخذون غلمانهم من أطرف الناس وأخفهم نشاطا ، ويميلون إلى

(١) الأغاني ٢ : ١٧٥ والعقد الفريد ٣ : ٤٣٩

(٢) الكز ٤٧

(٣) الأغاني وحلقة الكيت .

(٤) ياقوت ١ : ٦٨٧ والمسعودي ١ : ١٨١

(٥) الأغاني ٥ : ١١٥

اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان ، ويفتنون في ملاذ الطعام إلى أن يشترخوا الصيد في غير أوانه ، والثمار في غير إبانها بما يزن مثله فضة ، ويتمتعون بالذوق في غير طعامهم بما يعضغون من الطيب وورق التآبول الهندى الذى يمزجونه بالنورة المبلولة مع القوفل لتطيب النكهة وتشبه الأكل وإحداث الطرب والأريحية في النفس^(١) ، ويتخذون مقاعدهم في أوان الحزين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها ، مما ينقشون في الرخام فاذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس اتخذوا في السقوف مراوح^(٢) يعملون لها حبالا تجرها ، فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد ، ويستجيدون في اللباس والزينة وركوب الخيل باللبياج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم .

دخولى على هارون الرشيد

لقد ذكرت لك عن بغداد بالسير من الكلام ما فيه دلالة على عظيم ما صارت إليه في هذه الأيام ، فأكتب الآن إليك ما يأتى به القلم عن دولة الرشيد وما يقابلني به من جميل العطف والإحسان ، فاني مضيت إلى داره في ذلك اليوم الذى وصلت فيه إلى الحضرة فأصبت ابن البواب جالسا في حجرات الحجاب ، وهو الذى يخلف الفضل بن الربيع على حجابة الخليفة^(٣) ، فلما رآنى أوسعنى سلاما وتحية ، ثم جاوزنى إلى قصر الرشيد وهو قصر بناه^(٤) لنفسه تجاه دار الضيافة^(٥) من دور الخلافة ، وقد استجاد فرشاه وأفرغ العناية في تجميله بأنواع الزينة ، وأقام فيه

(١) المسعودى ١ : ١٠١

(٢) الكشكول والأغانى ١١ : ٩٩ والعقد ٣ : ٢٣٥

(٣) الأغاني ٣٠ : ٤٢

(٤) الأغاني ٥ : ٣٣

(٥) قصر من قصور الخلافة ذكره الأغاني ٦ : ١٣٣

الأساطين التي يصطف بجوانبها الغلمان^(١) ، وقد بناء على دجلة بحيث يسمع صوت الذين يعبرون في الزوارق^(٢) ، وكثيرا ما كنت إذا زرتة بعد ذلك أصبته جالسا إلى الشباك يستمع غناء الملاحين في الزلاّلات^(٣) ، فلما دنوت منه بادرت إلى يده فقبلتها فضمني إليه بالتحية والسلام . وأقبل يلاطفني برقيق الكلام .

وكان الرشيد طويلا عبل الجسم أشقر الخية عليه مهابة الملوك وجلالتهم^(٤) ، وعيناه وقادتان كأنهما لسانان ناطقان ، فاذا أصغى لمحدث بين يديه حوّطه ببصره حتى لا يجد سبيلا إلى أن ينطق في حضرته بغير صدق . فلما وقفت بين يديه أمر الفتراش^(٥) أن يأتي بما أتكى عليه^(٦) ، وهذا تعطف من الخليفة لا يكون إلا للبرامكة وأبي يوسف وجملة المشايخ من ولد العباس . ثم إنه استدنانى^(٧) إليه وأخذ يحادثني بما يستعذبه من أحوال صباه ، ويحفظ لي بنفسه من جميل الذكر ، وأنا أجيبه على ذلك بما تقتضيه جلالة الخلافة ، إلى أن ذكر لي حديثه عن خراسان فأخبرته عما كان هناك من الاختلال ، وأن الفضل رقق الفتق الذي دبره أهلها بالمحال . وأطلق يده فيهم بالضرب والنكال . وكنت عندما ذكرت ذلك قد بادرت إلى سيفي كما جرت العادة بألا يكلم الخليفة أحد بما فيه الوهن إلا بادر إلى سيفه^(٨) تعظيما للأمر وقياما بواجب الإجلال . فقال سبحانه الله لقد أوصينا الفضل بهم خيرا لأنهم محبوبون لنا^(٩) ، وهم سيوف دعوتنا وأنصار دولتنا ، ومن لهم حق الدالة علينا

(١) الأغاني ٦ : ٧٦ و ٥ : ٣٣

(٢) الأغاني ٩ : ٦٧

(٣) الأغاني ٣ : ١٧٧

(٤) العقد والخميس والسيوطي وابن الأثير .

(٥) ذكره الأغاني ٩ : ٦١

(٦) ابن الأثير ٦ : ٣٨ والأغاني ٥ : ٢٣ و ٩ : ٦١

(٧) الأغاني ٥ : ١٠٦

(٨) الأغاني ٥ : ٥٩

(٩) العقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٧

وحمة الوسيلة عندنا، فقلت يا أمير المؤمنين إن الفضل أخاك لم يمكن السيف في رقابهم إلا بموافقة القواد الذين إذا ما شاورهم في الأمر وقع بالموافقة من نفوسهم مقاتلةً خوارج قد تراخت بهم الحال. وصارت فتنتهم إلى سوء المال. فلما ذكرت له ذلك أعرض عن الإفاضة في هذا الحديث، وأخذ ينكت الأرض بشيء في يده، ثم قال وهذه مصلحة التجارة فما الذي يكتب إلينا الفضل عن لزوم حراستها بالجند؟ فقلت له إن في خراسان تجارة تباع بأبخس الأثمان فإذا أمن السابلة الأعراب جلبوا خيراتها إلى العراق واتجروا بها مع أمم البحر، فقال حسن ولكن لنا أعداء ينبغي أن نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الإسلام، ونحن ساهرون عليهم ومرقبون لهم بالجند إذ لا بد للزاعى من حراسة الرعية^(١)، ولقد يكفى التجار ما أمنا لهم من السبل في غير الديار العران، وما احتفروا لركبهم من الركايا، وأوجدنا لهم من المناهل في البلدان العامرة التي نحب أن تكون سوق التجارة فيها دائرة، وأما تجار خراسان وما إليها من البلدان النائية فانا لا نحسب زكاة أموالهم كافية لمصلحة الجند ووافية بأرزاقهم.

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضة عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة، ثم يقبل على نفسه بالتأمل والفكرة. فأوهمت أنه يرى فيها مسألة تتقبض نفسه دون بسطها إلى. فإذا الأمر على خلاف ذلك، وإنما كان مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وإيثار بعضهم على بعض بالخلافة^(٢)، فاتفق وأنا بالخلوة معه أن دخل عليه خادمه العبد فتفرسه الرشيد وقال له ما وراءك يا مسرور؟ فقال ما تحب يا أمير المؤمنين. ثم قام مقامه الذي كان إذا قامه علم الرشيد أنه يريد أن يسأله بشيء^(٣)، فأوماً إليه بالدنو فالتقى في أذنه كلاماً ثم تنحى، فقال لى الرشيد هذا خادمتنا الأمين نرتاح إليه في الأسرار والمهمات، لم يحدثنا جهرًا بحضورك ولكنه سارتنا

(١) قالها الرشيد وذكرها الطواط ١٠١

(٢) ابن الأثير ٦: ٥٨

(٣) الأغاني ٥: ٣٣

في أمر مما أخذنا من تقديم المأمون على الأمين بالولاية ، لأننا نرضى سيرته ونأمن
ضعفه^(١) ، ونعرف فيه حزم المنصور^(٢) ونشك المهدي وعزة نفس الهادي ، مع
أن بني هاشم يميلون إلى الأمين وأنشد :^(٣)

أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

فلما رأيت بلوغ القلق في نفسه من هذا الأمر تقدمت إليه فيما تقدم به يحيى
إلى أبيه^(٤) ، والفضل إليه^(٥) من مبايعة الولد بعد الآخر ، مع علمي بأن ذلك
أمر لا يجري فيه الوفاق ولا يتم على الوجه الذي يريده الرشيد بعد ما رأينا من
العباسيين تطاولهم في أمر الخلافة ونقضهم العهود التي كانوا يكتبونها على أنفسهم
في حدود الله والآدميين . فهذا أبو جعفر^(٦) لما ربح دولته ، ومضت في الناس
كلمته ، لم يجد من نفسه رادعا فخلع ابن عمه من الولاية وصيرها إلى المهدي من
بعده ، فلما ولي المهدي بحيلة الربيع ، وأخذ في استمالة الناس بما فرق فيهم من
المال لم يجد منهم عند إظهاره أغراضه فيهم إلا المتابع له والموافق على خلع ابن عمه
كما علمت ثم لما صارت الخلافة إلى الهادي وفي أعناق المسلمين المبايعة للرشيد
بعده أراد أن يخلعه^(٧) عنها ويصيرها إلى جعفر من أولاده لولا ما أجراه يحيى رعاه
الله من الدراية والحيلة المباركة كما علمت بعد الأوبة من خراسان .

وإنما كان المأمون أحق بالولاية من الأمين لأنه أكبر منه بأيام وإن لم تكن
أمه هاشمية مثله ، فلو صارت الخلافة إلى من هو أصغر منه وهو حاضر لم يصبر

(١) المسعودي ٢ : ١٥٠ والمستطرف ١ : ٩٣

(٢) الأغاني ١٧ : ٨٠

(٣) الحصري ٢ : ٩٩ والمستطرف ١ : ٩٣

(٤) المسعودي ٢ : ٢١٥

(٥) الأغاني ١٧ : ٧٨ وابن الأثير ٦ : ٤٣

(٦) ابن الأثير ٦ : ٥٨ وأبو الفداء ٢ : ١١

(٧) ابن الأثير ٦ : ٥٨

على ذلك ، فكان يخشى الرشيد من تقديم الأمين عليه بالولاية وقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعا إلى الواقفين لها من أهل البيت ، أو إلى من كان أقرب الهاشميين إلى استخلاف أبي العباس ، فإن عم عم الرشيد إلى ثلاثة أعمام حاضرون فعبد الصمد بن علي عم العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان عم هرون ^(١) فهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد ، فلا تسع الرشيد مخالفتهم في تقديم المأمون على الأمين ، وإنما يرجع إلى الرأي الذي تقدمت به إليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة في بيته ، ومصيرها إلى من يحب ^(٢) من أولاده .

الموازنة بين الرشيد وأبي جعفر

هذا فصل أفردته لذكر سياسة الرشيد وبيان الموازنة بينه وبين أبي جعفر ^(٣) إن صحت المقابلة بينهما ، فاني لم أجد في الملوك من جمع فنون السياسة إلى عقل الملوك وفضلهم ^(٤) وحكمتهم ودهائهم مثله ، تجتمع محامده في قربه من الخير وبعده عن البغي الذي كان طبيعة في أبي جعفر وبعض العباسيين ، حتى إذا صار إليه الأمر كان أول ما أصدر من الأمر أن تعاد إلى الناس الضياع التي اغتصبها آباؤه وترد الأموال المغصوبة إلى أهلها في جميع النواحي والأمصار ^(٥) ، فلو لم يكن له من المآثر غير هذا لكفى الناس فرجا ورحمة واسعة ، بعد ما شملهم من المكروه في خلافة أبي جعفر وما استمر عليه المهدي من حفظ الضياع المقبوضة عنهم ، إما لطمع في استغلالها ، وإما استصوابا لسياسة أبيه حتى لا يقال عنه إنه ظلم العباد في أموالهم .

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤

(٢) وهو المأمون عبد الله .

(٣) أجمع المؤرخون على أن الرشيد كان يقتنى سريرة جده في السياسة ويطلب العمل بآثاره .

(٤) الفخرى ٢٣٣

(٥) الماوردي ١٥٦

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبي جعفر بما هو آخذ في سياسته من الصدق وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على إحسانهم ، حتى إنه ليزيد عماله تجلّة كلما عظم قدرهم واستفحل في الإسلام ملكهم ، فهذا روح من أمراء آل المهلب ، لما عظم في الدولة أمره ، ودانت الرقاب المتطاولة له ، أفرغ النعمة الواسعة عليه ، وجعل الولاية من بعده إرثا في ولده ، وكذلك إبراهيم من أمراء الأغالبة ، لما تمكن سلطانه من أهل المغرب أمره على إفريقية إلى أطراف الثغور ، وجعل له الولاية في بيته ليكون ممتعا على العدو وكفيلا برد الفرّجة إلى ما وراء البحر . وهذا أمر يدل على الحكمة التي فيها مصلحة الملة وإن كان وراءه من استقواء الأغالبة خوف ما كان ليصير على مثله أبو جعفر مع ما عرفت له من التيقظ وسوء الظن بالعمال ، فان كان المنصور يخال للأمر حتى لا يقع فيه ، فان الرشيد يخال لما يقع في يومه من الأمور على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الإسلام .

ولقد سمعت من يقول إن الرشيد يقتفى سيرة جده في السياسة ، وذلك مردود عندي من حيث امتناع المماثلة بين الحلم والظلم ، وإلا فان كان الرشيد يمشى بالعدل أحكامه ليستميل الناس بالإحسان إليهم حتى لا ينصرفوا عن طاعته ، كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى لا يستطيعوا مغالبتة ، فما الغاية المقصودة من سياستهما إلا واحدة غير أن سياسة الحلم خير من سياسة القتل والظلم ، إذ يكون لصاحبها من دالة الرعاية غبطة يحرمها البغاة الذين في نفوسهم مرض من الظلم ، إذ يحجبهم عن رعيتهم ستر الخوف ، ثم يقتلهم استنكار من حولهم من الناس والأشياء ، كما تقدم في الكلام على أبي جعفر .

أما سياسة الرشيد مع أهل البيت فيظن فيها خروج عن العدل لاستمراره على هضم حقوق الذرية ، وإن لم تكن مجرأة على ما رسم أبو جعفر من تتبعهم في كل الوجوه فإنما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياستان بين اللين والعنف . ولقد كنت أساير الرشيد في بعض الأيام فقال لي بلغني أن العامة يظنون بي بغض على ابن أبي طالب فوالله وتربة أمير المؤمنين أبي إني ما أحب أحدا حي له ، ولكن

هؤلاء (يريد آلهم) أشد الناس بغضا لنا ، وسعيا في فساد دولتنا ، بعد أخذنا بثأرهم من بني أمية ومشاركتنا إياهم فيما حوينا ، حتى إنهم أميل إلى بني أمية اليوم منهم إلينا فكنت في ذلك الوقت بعيدا عن الوثوق بصحة هذا الإيهام ، ولكن ظهر لي بعد ذلك أنه لا يروم إقصاءهم إلا على غير مكروه يصيبهم ، وأنه لو قدر أن يرفع عنهم الضيم الذى يلحقهم من جور العباسيين ، وهو موقن ببقاء الخلافة في يده من غير منازع له فيها ، لفعل وطاب بذلك نفسا ، فلقد علمت أن المكروه الذى ألمَّ ببني عبد الله بن الحسن إنما كان بسعاية أقاربه من العباسيين الذين لم يسعه مخالفتهم ، وهو بموقف يخاف منه الفتنة ، وكذلك مقتل موسى بن جعفر الإمام لم يقع من نفسه برضاه ، لأنه لم يكن متهما في بدعة ولا ظنينا على دخلة مكروهة ، ولما قتلوه في حبسه أظهروا أنه مات حتف أنفه ، ومشى الرشيد في جنازته إلى باب التبن حيث مقابر قريش فويق نهر عيسى الهاشمي ، فكنت أحيط به في ذلك اليوم مع البرامكة فسمعت يترحم عليه ، ويظهر براءته من دمه ، غير أن تغاضيه عن هذه المؤامرة ، وإن هو لم يدخل فيها غرر يسأل عنه يوم الحساب ، لأنه يجب على خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم أن يتبعوا سنته التي هي العدل ، ولا يتساحوا في قتل الأبرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة ، رضى الله عنهم أجمعين .

هذا ما صححت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وأبي جعفر إلى الغاية التي يرجوانها جميعا من تأييد الدولة بها ، وإن لم تتوافق إليها السبل ، وقد وجدت للرشيد أعزاه الله فضلا في تدبير المملكة أحق بالثناء الجزيل ، وأبقى للذكر الجليل ممارأيته لأبي جعفر (غفر الله له) بما ينال الرشيد من المشقة في ركوبه إلى أطراف المملكة لتفقد ثغورها ، والنظر في تظلم الناس من ثقل يقع عليهم في الخراج ، أو ضيم يلحقهم من جور

العمال . فاذا صار إلى البلدان العالية مما وراء خراسان حيث لا يعرف اللسان العربي أخذ الترجمة^(١) معه حتى لا يفوته شيء من أمر الرعية، فهو يحج سنة ويفزو سنة، كذلك عادته من يوم ولي الخلافة^(٢) قال الشاعر يمدحه على بعد هذه المهمة منه^(٣) :

فمن يطلب لقاءك أو يردده فني الحرمين أو أقصى الثغور

وقال الآخر^(٤) :

ألف الحج والجهاد فما يند فك عن غزوتين في كل عام

وربما رام في أسفاره أو بالزوراء أن يعرف ما يدور بين الناس من الأحاديث والأخبار فيتخفى في زى التجار^(٥)، ويطوف الأسواق مع جعفر وزيره ومسرور خادمه لاستطلاع مالا يصل إليه خبره من أمر السوق والعوام، فنجم عن عنايته بهذا الأمر كثير من الفوائد التي صلحت بها دولته ورعيته جميعا، فقد قال جعفر (أعزه الله) إنا ما ضبطنا بغداد بالشرطة ولا عينا بتقدير الأمان وتميز المغشوش من السكة إلا بما وجدنا من الاختلال في تطوافنا بين الناس .

البرامكة نُكْة محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التي يباشرها الرشيد إنما هي بإشارة البرامكة الذين رفعوا منار الإسلام^(٦) بصلاح مشورتهم إليه في أمور الخلافة، ولذلك صير إليهم النيابة

(١) المقرئى ٨ : ١

(٢) هو أمر معروف نجده في كتب المؤرخين وزاد في العقد الفريد على ذكره ما شيا أنه لما مشى إلى مكة ومشت معه زبيدة كانت تبسط الدراكن أمامهما وتطوى خلفهما .

(٣) أبو الفرج والخميس ٣ : ٣٣١

(٤) فوات الوفيات ٣ : ٣٩١

(٥) الأغاني ٦ : ١٣٧ والالتيدى ١٢٦ والإسحاقى ٩١

(٦) العقد الفريد ٣ : ٢٧

في الدولة^(١) والنظر في ديوان الحسبان والترسيل لصون أسرار الدولة، وحفظ اللسان في بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من أهل الأمصار بعض الفساد^(٢) فصار جعفر يسمى بالسلطان إشارة إلى عموم نظره في عموم الخلافة، لأن الخطط كلها بيده إلا الحجابة لم تكن له لاستنكافه عنها لأن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود في تحياتهم وخطبهم والاداب التي تلزم بين يدي أمير المؤمنين^(٣)، وذلك مما يتره نفسه عنه، وهو بالموضع الذي علمت من جلالة القدر والقيام بسياسة الدولة.

ولقد كان يحيى اعزّه الله قائماً بأود الوزارة من قبل، وهو الذي قلده الرشيد الخلافة بحكمته ودرايته^(٤) حتى إذا استوثق له الأمر قال له أنت أجلسني في هذا المجلس يمينك وبركتك، وقد قلدتني الأمر يا أبت، ثم دفع إليه خاتمه وقلده أمر الرعية بأن يحكم بما يرى، ويعزل من يرى، ويستعمل على الولاية من يرى، وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي النديم^(٥) :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهرون واليها ويحيى وزيرها

فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفة إلى تقويم الدولة في المشرق حبا في الرشيد أن تعظم في الإسلام صولته، على حين لا يحرم أهل البيت قيام ملكهم فيما وراء البحر، مع ما يكون في ذلك من حقن الدماء الطاهرة، وسلوك السنن الشريفة، فأنجح له حسن نظره أن يطوق أمر الجند إلى غير العرب الذين لا يقدرّون

(١) المقدمة ٢٠٧

(٢) المقدمة ويتضح ذلك من كتب الذين دونوا اللغة في أيام الرشيد.

(٣) المقدمة ٢٠٧

(٤) ابن الأثير والقمي والطبري.

(٥) السعدي ٢ : ٢٠٧ وابن الأثير ٦ : ٣٩ والأغانى ٥ : ٤١ والمستطرف ٢ : ٩٧ والالتبدي ٩١ والمخاضرة ٣ : ١١٤ والسيوطي وابن خلدون.

بنفوسهم على كبح عنان الثائرين من إخوانهم بما يكون بينهم من القوابة والدالة ،
فلقى دون بلوغ غرضه من هذا الأمر صعوبة كادت تفضي إلى الفتنة ، بما وقع من
الضغائن بينه وبين يزيد بن مزيد^(١) وغيره من أمراء الجيش ، إلا أن الرشيد كان
على موافقته^(٢) فيما يرى فيه مصلحته ، فاذا فتح الناس عليه باب الفرقة أرسل إليهم
الفضل أو هرثمة بن أعين^(٣) بجبرا الوهي في أقل من طرفة عين .

ثم استقال يحيى من الوزارة بعد أن أدركه الشيب ، ففوضها الرشيد إلى الفضل
ثم إلى جعفر^(٤) بعده ، وعهد بالمراتب إلى إخوانه وأقاربهم^(٥) ، وهم بمكان من
القطانة^(٦) التي توارثوها مع المجد طرافا وتلادا ، فقاموا بأود الوزارة وجمعوا إليهم
مراتب السيف والقلم ، يقول سلم الخاسر^(٧) في شرف الدولة بحاسن عقولهم :
إذا ما البرمكي غدا ابن عشر فهمته أمير أو وزير

إلا أنه كان منتهى نظرهم في السياسة^(٨) إلى جعفر ، هذا السلطان ، وهو حاضر
الزوية ، مؤيد البديهة ، جامع لخصال الخير ، مؤتمن على الأسرار بارع في مهمات
الأمور ، وليس في أهل الأدب من هو أذكى^(٩) ولا أفطن ولا أعلم بكل شيء
ولا أفصح لسانا ولا أبلغ في مكاتبة منه ، خلق جميل ، وأصل نبيل ، وعلم حزيل ،

(١) ابن الأثير ٦ : ٥١ يذكر انحراف بني شيبان عن البرامكة كما مر .

(٢) المقدمة ١٥٩

(٣) راجع كتب المؤرخين .

(٤) و (٥) المقدمة والعقد الفريد .

(٥) ابن خلكان ٣ : ٣٦١

(٦) المحاضرة ٣ : ١١٤

(٧) العقد ٣ : ٢٧

(٨) الوطواط ٢٤٩ وابن خلكان .

(٩) الأغاني ٤ : ٨٥ والحصرى ١ : ٣٧٥ والعقد ١ : ٣٧٢

وكان الرشيد يقدمه على الفضل بما يُسرّع في استنباط الحيلة لتدبير ما يطرأ على المملكة من المهمات الصعاب، كما يقول فيه الشاعر :

وزير إذا ناب الخلافة حادثٌ أشار بما عنه الخلافة تصدر

ووجدت في نفس الرشيد من الميل إليه بحيث إنه لم يكن له صبر على مفارقتها في ساعة من نهار أو ليل^(١)، وإذا دخل أجلسه على سرير الخلافة بجانبه وأجلس بنى هاشم على الكراسي والوسائد^(٢) دونه، وربما قدمه في المشورة على أحب أهل بيته إليه، حتى إنه لا يعهد إليهم بولاية ولا يصلهم بمال إلا برأيه ورضاه، وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بنى هاشم^(٣) أن الرشيد غضب عليه فقصده باب البرامكة، فقال له جعفر أنت تقصدني فهل من حاجة تبليغها مقدّرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك؟ فقال عبد الملك نعم. إن في قلب أمير المؤمنين على موجدة أحب أن تخرجها من قلبه وتعيد إليه بحيل رأيه في، فقال له جعفر قد رضى عنك أمير المؤمنين، وزال ما عنده منك، قال عبد الملك وعلى أربعون ألف دينار دينا، قال هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين لأنني أجل قدرك عن أن يصلحك بالمال غيره، قال وابني إبراهيم تخاطبه فيه حتى يرفع الأولوية على رأسه، قال لتطب نفسك، إن الرشيد قد ولّاه مصر أو قال ما شئت من البلدان. فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والإعجاب به، حتى إذا كان الغد دعاه الرشيد وأمر له بأربعين ألف دينار، وكتب سجل ابنه على مصر^(٤). فهذا أمر يدل على مكانة جعفر عند الرشيد وما له من المانة المرحية والشفاعة المقبولة عنده، بحيث إنه

(١) الاتليدي .

(٢) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم يجلس الخليفة الأغاني ٩٢ : ٤

(٣) هو من القواد الذين غزوا الروم وقد عقد الفداء مع قففور في اللامس على جانب البحر على اثني عشر فرسخا من طرسوس واسترجع من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبع مائة . ابن الأثير ٥٧ : ٦

(٤) الأغاني ٥ : ١١٩ والفخري والأبشهي ٢ : ١٩٢ والعقد الفريد ٣ : ٣٤

والاتليدي ١٦١ وابن خلكان ١ : ١٥٢

يضمن عنه ضمانات لا يجد بدا من وفائها، كما يدل ذلك أن مشاركته في الملك لا تقف على حد السياسة فيما يبيده له من رأى جميل أو تدبير حسن ، وإنما يتناولها في أكثر الأحيان بما بينهما من الدالة التي ليس مثلها بين الاخوان^(١)، فما أذكر أنى رأيت الرشيد في مجلس يطيب له نفسا بغير محضره^(٢) ، بل كثيرا ما رأيتهما يتبادلان لباس الحلة الواحدة^(٣) ، ويجلسان معا . على محبة ومصافاة خلان .

وإن كان ليحيى فضل في تقويم هذه الدولة فإن لجعفر فضلا في تدبير مملكتها أتم وأجمل في عين الرشيد ، وقد أغناه بنفاذ سلطانه في المشرق عن أن يطمع في الاستيلاء على بلاد المغرب ، ثم بيّدت على خطر الفتنة التي لا يأمن إن حدثت أن تبقى الخلافة في يده ، فلم يكن بد لصالح أمره من سلوك السبيل الذي مهده له جعفر لثم له الفائدة التي رامها أبوه في تقويم الدولة وبلوغ غرضه منها في المشرق . فوقفت مصلحة الدولة والاسلام جميعا على أن يتبع الرشيد هذه الخطة التي كان ليحيى فيها الفضل السابق والمقدم ، ولجعفر من بعده الفضل اللاحق والمتمم .

ولقد شملت عناية جعفر خطط الدولة كلها بين مراتب سيف وقلم . إلا أنه كان إلى تدبير المملكة وتنظيم الدواوين^(٤) أشد منه عناية وأقرب ميلا إلى النظر في مصلحة الجند وهم الفرسان الذين لم ير لهم مع ما هو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد ، التي لا يطيق الأعاجم مناجرتها فيهم ، إلا أن يصرف إليهم أرزاقهم في إبانها ويرضيهم بسعة العطاء من غير مال الخليفة^(٥) بما يقتصد فيه من نفقات الدولة . وأما مآثره في تدبير المملكة فإنها تتناول ضبط الأموال وترتيب

(١) الحصرى ٢ : ١٠٢

(٢) الاتليدى ١٦٩

(٣) الأغاني والاتليدى وابن خلكان وابن خلدون .

(٤) إنما دون العرب الدواوين عملا بطريقة الفرس من قبلهم ولقطة الديوان فارسية كما هو

معروف .

(٥) د ر المسعودى ١ : ٨٢ أن الخليفة يعطى الجند من بيت ماله .

ديوان الأعمال والجبايات^(١) على غير ما رسم أبو عبد الله في كتابه^(٢) على الخراج ، وإنما اقتصد من النفقة قدراً أبقاه للزيادة في أرزاق الجند . وأقام على السجلات قوما مهرة في الحساب^(٣) ، ليجد الموازنة بين ما يدخل بيت المال وما يخرج منه ، وجعل لهذا الديوان شعباً ترجع مصالحها إليه ، كديوان الخراج وديوان الضياع والنفقات^(٤) ، وغير ذلك ، وأحب أن تحفظ دفاتر الخليفة للراجعة^(٥) لينظر فيما يتصرف فيه بموازنته للدخل الذي دُون في سجلات الديوان .

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة إلى النظر في أمر الرعية والرفق بهم وإدخال الراحة عليهم ، وصح عنده مساواة الناس بالأحكام التي لا تفرق بين المسلم وغير المسلم^(٦) إلا فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من العهود المحفوظة ، وأقام وجال العدالة في جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع^(٧) ليكون في ذلك حفظ حقوق الأمة وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكفالة ونحوها^(٨) ، وأمرهم بأن يجلسوا في الدكاكين والمصاطب ليسهل وصول الناس إليهم ، فتجرى معاملاتهم على سنن العدل الذي يروم أن يشملوا به نفوسهم كما تشملهم به الدولة فكان (أعزه الله) يقول^(٩) الخراج عمود الملك ما استغزر بمثل العدل وما استترز بمثل الظلم .

(١) المقدمة ٢١٢

(٢) ذكر القنبري هذا الكتاب ٦١٦

(٣) المقدمة .

(٤) الأغاني ٩ : ٢١ و ٢٦

(٥) ذكر الأغاني هذه الدفاتر ١٤ : ١١٤

(٦) المسوردي ٣٩٣

(٧) العقد الفردي ٣ : ٢١١

(٨) المقدمة ١٩٦

(٩) العقد الفردي ١ : ١٣

ثم إنه نظر في صلاح الزوراء ودس فيها العيون بأمر عبد الله بن مالك صاحب الشرطة^(١) لملافة الخلل الذى يطرأ عليها من وفود الأعراب واختلاطهم^(٢) ، وأقام العسس^(٣) بالليل لحراسة الدروب^(٤) إلى أن وقع الأمن في أحيائها ، وخيم السلام على أرباضها ، وذلك يتندر أن يكون في مدن الأعاجم ومحاشد ملهم ، فلقد ينمى إلينا عن قاعدة الروم أن المكروه نازل بها كل يوم لا محالة ، مع أنها محتشد النصرانية ومباة الملوك الذين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصولة . ونحن لا نريد بذلك أن الروم قوم جهلة لا نظام للملكهم ، مع أنهم حملة العلم المتقبلون في مهاد العمران على سعة واستقامة من الملك ، غير أن الترف قد غلب على عامتهم حتى لاسبيل إلى ردعهم عن معاقرة الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الأهواء^(٥) .

ولما وصح الرشيد فضل هذا السلطان فيما أصالح به الملة والدولة جميعا بلغت منه الثقة به إلى أن يطوقه الساطة التى تقارن سلطته ويشترك فيها معه ، ففوض إليه القضاء بمجلس المظالم ، وهو القضاء الذى كان يباشره الخلقاء^(٦) من الأمويين بنفوسهم ، ثم المهدي من بعدهم كما رأيت في موضعه من الكتاب ، فصار جعفر يحلس^(٧) بجانب الرشيد على سريره ويشاركه في توقيعه على القصص التى يرفعها

(١) ذكره الأغاني ١٧ : ٤٦ والمسعودى ٢ : ٢١٢

(٢) ابن خرداذبة ١١٦

(٣) الأغاني ٢ : ١٥٧

(٤) الأغاني ٧ : ١٩ والمستطرف ٢ : ١٨٦

(٥) المقدمة ٤١٩

(٦) وكان هذا من أسباب التواني في دولتهم .

(٧) أبو الفداء ٢ : ١١ وابن الأثير ٦ : ٢٩ وأبو الفرج والسيوطى والقرطبي ٢١

والماوردي

(٨) الأغاني ٤ : ١٦٢

الناس إليه ولكن بالعبارة التي يتنافس^(١) في بلاغتها العلماء^(٢) . فمن بعض ما حفظت له من هذه التوقيعات التي جرت مجرى الأمثال توقيعه في قصة رجل شكاه بعض عماله إليه « قد كثرت شاكوك . وقل شاكوك . فإما عدلت وإما اعتزلت »^(٣) . وتوقيعه في قصة قوم قطعوا الطريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله » الآية^(٤) . ووقع إلى بعض عماله « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » . ووقع في قصة محبوس « العدل أوقعه والتوبة تُطلقه »^(٥) . ووقع في قصة متظلم « طب نفسا فكفى بالله للظلم ناصرا » ووقع لرجل اعتذر عنده من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت نصيحتك ولا تغلب سيئة حسنتين » ووقع وقد قرأ كتابا فاستحسن خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه مشورها . ويفصل فيها شذورها » ووقع في قصة متنصح « بعض الصدق قبيح » ووقع في قصة رجل تظلم من بعض عماله « أنا لمثله حتى ينصفك »^(٦) ووقع في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابتهم « يرحل عنكم » ووقع إلى بعض عماله « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولي أمرك »^(٧) ووقع في قصة رجل استأذنه في الحج « من سافر إلى الله نجح » إلى غير ذلك من التوقيعات التي يتداولها الأدباء^(٨) إلى أن تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهما ثمنا^(٩) في أيدي

(١) الكنز ٩٤

(٢) ابن خلكان ١ : ١٤٧ والمقدمة ٢٠٧

(٣) ابن خلكان ١ : ١٤٧

(٤) العقد الفريد ٣ : ٢٣٣

(٥) العقد الفريد ٣ : ٢٣٢

(٦) العقد الفريد ٣ : ٢٣٣

(٧) الوطواط ٣٥

(٨) السيوطي .

(٩) المقدمة ٢٥

الناس . وهذا ما أكتفى بذكره من مآثر هذا السلطان الذي ليس له من الرجال ، وقد فضّل الملوك قاطبة بالعلم والعقل والسياسة ^(١) ، وزاد الرشيد عزة ومنعة على نحو لم نره قديما في دول الخلفاء فتولى الله مكافأته عن المسلمين والإسلام بما هو واسع له من الجميل ، وجعل المجد لا ئذا بجانبه والسعادة حاقّة ببابه . آمين .

صلاح التجارة والمعاملة

أخرج بك قليلا عن موضوع السياسة إلى بيان المعاملة الرائجة بين الناس بقدر ما يسمح لي المقام ، فإنه لما توفرت في أيديهم الأموال بما كسبوا من الفتوح العظام ، وقد نزلوا الأمصار التي كانت مستودع الدعة عندنا ومستقر ملاذ الروم فيما مضى لنا ولهم من ذلك الملك الغابر ، فتحوّل طباعهم من الخشونة إلى نعومة العيش ، وأخذوا يتأثّلون الكسب ويطلبون حاجات الترف من جميع البلدان بما تيسر لهم من أسباب الاتصال في زمن الخلفاء ، فما أتم الرشيد العناية بتأمين السبل لقوافلهم وتمهيدها لسفر تجارهم ، حتى حملوا تجارة الدنيا إلى العراق ، فحملوا من الهند آتياتها ومن أصبهان وشيراز ويزد شراها ^(٢) ، ومن خراسان حديدما ومن كرمان رصاصها ومن قشмир النسيج الملون ، ومن الصين الككّام والعود والمسك والسنور والسروج والغضائر والدارصيني وإلخولنجان ، ومن اليمن العطر ^(٣) وأنواع الطيب ، ومن فارس السلاح والمصوغات ، ومن عيذاب اللائي ^(٤) ، ومن الوقواق الذهب والآبنوس ، ومن الهند والسند القسط والقنا والخيزران والكافور والعود والجوزبوى والقرنفل والفاغره والكجّابة والنارجيل ^(٥) والياب القطنية

(١) إعلام الناس وابن خلكان ٢ : ٢٦١

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٤٤

(٣) القزويني ٢٠٩

(٤) المسعودي ١ : ٣٩

(٥) ابن خرداذبة ٦٨

والمُخَمَّلَة والفيلة ، ومن سرنديب ألوان اليواقيت وأشباهها والماس والدر والسُّنْبَادَج الذى يعالج به الجوهر^(١) ، ومن ناحية الجنوب البقَم الدارى ، ومن البحر الغرب المرجان ويكون بأرض الفرنجة ، ومن الروم المصطكا والغلمان والرقيق^(٢) ، ومن الشام الفاكهة والسلاح والحديد الذى يقلع من جبل لبنان . ومن روسيا جلود الخنزير والثعالب يأتى بها الروس إلى بغداد عن طريق سورية أو عن طريق جرجان^(٣) ثم تحمل إلى أصبهان والجزيرة وآمد ونصيبين^(٤) ويتجر بها .

هذه هى تجارة الشرق^(٥) قد حلت إلى العراق ، وأما تجارة الغرب فقد تعذر نقلها لبعد المسافة وتراعى الشقة ، ولذلك كان يرى الرشيد فتح البحر عند السويس^(٦) حتى يقرب المجال من المغرب إلى عمان فسيراف ففارس فأطراف العراق ، ولا سيما أن على البحر الرومى سواحل إفريقية وتونس ومصر وطرابلس والأندلس إلى الغرب والجنوب وسواحل صقلية والفرنجة إلى الشمال ، وسواحل الروم والشام إلى الشرق ، وإنما لبلدان كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات . فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها إلى بغداد على مراكب البحر من طريق السويس ، ولكن جعفر (أعزه الله) قد شناه عن هذا الأمر وخوفه أن تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة إلى جدة ، فيخربون المواطن المشرفة^(٧) ، على حين لا يتوقع لقدمهم أثر ، فقال جعفر « يا أمير المؤمنين إن خرق السويس نخرق في الإسلام ولو أنك وجدته مخروقا بأيدي

(١) الأغاني ٥ : ٢٤

(٢) ابن خرداذبة ٨١

(٣) ابن خرداذبة ١١٦

(٤) ابن الأثير ٥ : ١٠١

(٥) الأغاني ٥ : ٢٤ وابن الأثير ٥ : ٢٢٥ والقزويني ٩ : ٢٠

(٦) المسعودي ١ : ٢٩٩ والمقرئ في الخطط والسيوطي والمقدمه ٢١

(٧) السيوطي والمسعودي .

الملوك الذين سبقوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سده لأن مصالح التجارة لا تقضى على الإسلام بتضييع الفتوح التي دانت له ببذل الدماء « وهذا رأى لا يبدو إلا لمن ركب فيه إسماع الخليفة ومعدلة النظر ، فإن العلماء كلهم قد ضلوا عن إدراك ذلك ، وإنما خوفوا الرشيد علو البحر الرومي على بحر القلزم ، وأنه إذا ريم حرق ما بينهما طمى البحر على أرض مصر وأغرق عذاب والنوبة وسواحل اليمن والحجاز ، ولكن قولهم بعيد عن الصحة ، لما يعلم عن بحر الظلمات إلى ما وراء الأندلس أنه لم يطعم ماؤه على سواحل البحر الرومي مع كونه يعلوه من حيث الإقليم ، فما ثبتت عند العاقل إلا أن سطح البحور متساو في الشمال والجنوب ، ولم يسمع بحر أخفض من غيره إلا بحر لوط في أرض الأردن من إقليم فلسطين ، ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوقيانوس المحيط ، وإنما هو مياه تصب في متحدر من الأرض .

ولما اتسع نطاق التجارة في بغداد أصبحت موردا لأهل الإيعاز من البلاد كافة يتناولون فيها حاجتهم من المال ، فوقع غش فاحش في التجارة وصارت الصيارف من اليهود^(١) وغيرهم^(٢) يعطون ما لهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين^(٣) وأكثر منها ، فأقام الرشيد محسبا يطوف بالأسواق ويفحص عن الأوزان والمكاييل وينظر في معاملات التجار^(٤) أن تكون جارية على سنن العدل ، حتى لا يتعامل الشرفاء على الوضعاء ولا الأغنياء على الفقراء ، إذ الواجب على الملوك أن يمهّدوا سبيل الارتزاق لأهل الحاجة أكثر منه للمتمولين المنسلخين للتجارة الذين نواهم يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البخس ثم يبيعونها بما يشاءون من الغلاء ، فإن ذلك احتكار يفضى إلى فساد العمران كما مر

(١) الأغاني ٣ : ٨٥

(٢) الأغاني ٣ : ٨٣ و ٥٥ : ١٦١

(٣) كليات ٩٩ والأغاني ٢ : ١٥٤

(٤) الأغاني ١٧ : ١٠٨

في موضعه من الكتاب . وقد أخبرني الرشيد في بعض مجالس إلى أنه يروم أن يصلح معاملة التجار ويغير تقدير الدنانير والدرهم على وزن واحد صحيح ^(١) ، ولكنه لم يباشر ذلك إلى هذا اليوم ، مع أنه أصلح ما يكون للعمران ، وإن كان ضرب السكة في الإسلام قد حدث عن نكايه وقعت ضغائنها بين عبد الملك ابن مروان وقبصر الروم كما هو معروف ^(٢) فقد أصبح اليوم من الضرورة أن تقدر أوزانها بعد ما ساءت المعاملة في تأدية الخراج والبيع والشراء . وقد كان العرب يتعاملون قديما بالذهب والفضة وزنا ^(٣) ، وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التي يقال لها الكسروية والقيصرية ، فلما ذهبت سداجة الإسلام وصارت الخلافة إلى ملوك أمية ، وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور نفوسهم ، تفاحش القش في التجارة وصارت تنسب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقبصر ، فعنى عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدرهم ، ف ضرب السكة في دمشق ^(٤) وصرفها في جميع النواحي والأمصار ، ولكن من غير أن يقدر أوزانها ، فبقى منها الخفيف ^(٥) والثقل وما هو بين بين ، ولذلك لم تسهل المعاملة بها بين التجار ، حتى إذا تنبه لها فاته من تقديرها على وزن واحد وأحب أن يميز القديم منها عمدا إلى تعيين السنة على السكة المقدرة بعد أن كان يضر بها خلوا من التوقيت إلا «بركة الله» في أحد الوجهين واسمه في الوجه الآخر . وهذا كان منشأ الخلاف في أول من ضرب السكة التي ليس فيها توقيت ، فيقول بعض الناس إنها من ضرب عمر بن الخطاب ^(٦)

(١) المحاضرة ٢ : ١٧٤

(٢) الاتليدي ٢٧٤

(٣) المقدمة ٢٢٧

(٤) ابن الأثير ٤ : ١٧٤

(٥) ذكر الدرهم الخفيفة الأغان ١٠٤

(٦) المقرئ

ويقول غيرهم إنها لمُصعب بن الزبير^(١) ، ويقول بعض إنها لمعاوية بن أبي سفيان ،
ويزعمون أنه صور نفسه عليها متقلدا سيفاً^(٢) كأنه فاتهم علم موضعه من الخلافة
وخرصه على متابعة الملة والشرع ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الأقاويل ليس
يجمع على رأى منه . ولم يقع إلى من الدنانير الموقوتة إلا ما ضرب هذا الخليفة
المقدم ذكره في السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرفة ، وعليه جرى
الخلفاء بعده في ضرب السكة ، بأن رسموا فيها « بركة الله » من وجه^(٣) ، وعلى
دائره « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » واسمهم
من الوجه الآخر يحوطونه بتعيين السنة وذكر البلد الذي يضربون فيه السكة .

وأما الأوزان المقدرة فإن المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطبري وهو أربعة
دوانق ، والدرهم المغربي وهو ثمانية ، والدرهم ايمنى وهو ستة والدرهم البغلي
« وهو الذي يقال إنه ضرب في خلافة عمر رضى الله عنه على وزن الدراهم الكسروية »
وهو ثمانية دوانق ، فأمر الحجاج أن ينظر الأغلب في المعاملة فكان البغلي والطبري
وهما اثنا عشر دانقا ، فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدر الدرهم ستة دوانق .
وأما وزن مثقال الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم ، حتى إذا جمع عشرة دراهم
كان وزنها سبعة مثاقيل^(٤) والناس يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحجاج
إلا أن ما في أيديهم منها مختلف الأشكال ، فلا تتناول الدولة منهم في الخراج إلا
الدنانير العباسية والدنانير المسماة بالخالدية^(٥) واليوسفية والهييرية ، وهى أجود النقود
التي ضربها بنو أمية^(٦) على يد عمالهم في العراق مثل أبي هبيرة ويوسف بن عمر
وغيرهما ، ولذلك رأى الرشيد أن يقدرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبق للغش
في التجارة مجال ، ولا يحصل عنف في جباية المال .

(١) ابن خلدون ٣ : ٤٥٠ والماوردي ٢٦٩

(٢) الاتليدي نقلا عن الدميري .

(٣) الأئس الجليل ١ : ٢٤٠ والمخاضرة ٣ : ١٧٤ والاتليدي ٢٧٤

(٤) المقدمة ٢٢٧

(٥) الماوردي ٢٦٩

(٦) ابن خلدون ٣ : ٤٥٠

زينة الدولة بالعلم والأدب

هذا الماع بذكر محاسن دولة الرشيد وإنها لدولة خير وصلاح كما علمت ،
فما حدث أهل الأخبار أن الإسلام كان في أية دولة أعز جانباً ولا أوسع رُقعة
مملكة^(١) منه في خلافة الرشيد . ولعمري إن الملوك الذين يتعهدون النصر مثله
في جميع ما يباشرون من الأعمال قليل في العالم ، فما رأيتُهُ والبرامكة أعوان له قد
نكب في حرب قط ، ولا توجهت عليه هزيمة ، وإنما أعز الإسلام باجتماعه
في المشرق كله إليه ، ورمى ملوك الأعاجم بسهام بأسه حتى عصفت ريحه بهم
من الروم وسائر الفرنجة ، وهذا شرف للسيف لم ينله المسلمون فيما تقدم لهم من
الدول السالفة مقروناً بفضائل العلم وجمال الحضارة ، وكفى بشرف دولته أنه
اجتمع ببابه من الوزراء^(٢) والأمراء والقواد والعلماء والفقهاء والأدباء والخطباء
والمحدثين والقراء والرواة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفة غيره
مثله ، فإن البرامكة أعوان دولته ، وأبا يوسف قاضيه ، وهَرَمَةُ بن أعين أمير
جنده ، والعباس بن محمد عم أبيه جليسه^(٣) ، ومروان بن أبي حفصة شاعره ،
والأصمعي محدثه ، وأبا نوايس نديمه ، والفضل من آل الربيع حاجبه ، وإبراهيم
الموصلي وإسحاق ابنه مغنياه ، وابن بختيشوع جبريل^(٤) وبني ماسويه أطباؤه^(٥) ،
والعلماء والأدباء كلهم قيام على بابه لا يفارقونه في حضر ولا في سفر ، حتى إنه
ليطلب شاعره في أطراف الليل^(٦) فيجده ببابه مع غيره من محدث أو نديم .

(١) الفخرى ٢٣٣

(٢) ابن الأثير والفخرى ٢٣٣ والخميس ٢ : ٣٣٢ والمأوردى ٣٣

(٣) الخميس ٢ : ٣٣٢

(٤) الفخرى والمسعودى ٢ : ٢١١ وابن الأثير ٦ : ٧٥ والمقدمة ١٦

(٥) أبو الفرج .

(٦) الأغاني والالتلدى .

وإنما قرب العلماء إلى الرشيد ما بنفسه من الميل إلى الأدب^(١) والحرص على إحراز العلوم^(٢) ، حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سما إلى مناظرتهم^(٣) من حيث العلم والتواضع له ، لا من حيث السيادة عليهم ، وهو بموضعه الجليل من الخلافة ، وأنا لا أريد بذلك أن التواضع طبيعة في نفسه ، لأنه لو لم يأته الكبر من ناحية العلم لآتاه من ناحية السلطان ، وكلاهما داع إلى الإعجاب بالنفس ، فكثيرا ما كنت أراه إذا انتصب في عرشه يحتمل أن يمدح بما يمدح به الأنبياء ، وهو لا ينكر ذلك ولا يردّه^(٤) ، غير أنه ربما كان يتغنى بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع في نفسه من الإجلال له أن تحصل له الغاية التي يرومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من أهل العلم ، حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم كاستقامته له من ناحية السيف .

أما أدبه وفضله وصحة ما عنده من النظر في تخير ما يروق لديه من العلوم فهو الأمر الذي تقدم الإلماع إليه فيما مضى من الكتاب ، ورأيت يتوسع في أدب اللغة إلى أن يقول الشعر فيما يعرض له من تصورات أهل الغرام ، فإذا دخلت عليه عرضه على سبيل الفكاهة فمن ذلك قوله في جارية^(٥) تركية له :

يَا رَبَّةَ الْمَتَرَل بِالْفِرْك وَرَبَّةَ السُّلْطَانِ وَالْمَلِكِ

تَرْفَقُ بِاللَّهِ فِي قَتْلِنَا لَسْنَا مِنَ الدَّيْلِمِ وَالْتَرْكِ

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٨ والفخرى ٢٣٠ والإسحاق ٩٠ والدميري ١ : ٩٥

(٢) الشرفاوى ٢٢٢

(٣) القزويني ١٠٦

(٤) السيوطي والأغانى ٩ : ٨٦

(٥) الأغانى ١٢ : ١٨

وقوله في قينة له (١) :

تبدى صدودا وتخفى تحته مَقَّةُ فالنفس راضية والطرف غضبان
يا من وضعت له خدى فذله وليس فوق سوى الرحمن سلطان
وقوله (٢) في رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عمراه على فقدتها من
الحزن ما ضاق له الصدر ، وفرغ دونه الصبر :

قاسيت أوجاعا وأحزاننا لما استخص الموت هيلانا
فارقت عيشي حين فارقتها فما أبالي كيفما كانا
قد كثر الناس ولكنني لست أرى بعدك إنسانا
والله لا أنساك ما حركت ريحاً بأعلى نجد أغصانا

إلى غير ذلك ، وكان من الفضل بحيث إن مادبه لم تخل قط من عالم أو أديب
أو شاعر. وكان يستدعى إليه العمري والفضل بن عياض (٣) وابن السماك الكوفي (٤)
والمحقق الفزارى وغيرهم من الأولياء فيحاورهم في مسائل الدين (٥) ويبيكي (٦) من
مواعظهم ، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم ، حتى إذا جلس معاوية المحدث الضرير
إلى طعامه قام من موضعه وصب الماء على يده تعظيماً لقدر العلماء ، فقال له معاوية
يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك لأشرف من شرفك (٧) .

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٥٧

(٢) السيوطي .

(٣) المقدمة ١٥ والمستطرف ١ : ١٠١ والخميس ٢ : ٢٣١ والإيضاح ٩٠ والسيوطي .

(٤) العقد الفريد .

(٥) مراجع الملوك ٣٠

(٦) ابن الأثير ٦ : ٧٨ والعارطوشي ٣٨

(٧) الفخرى ٢٣١ والسيوطي .

أما زينة الدولة من الأدباء فثلاثة إسحق بن إبراهيم النديم وعبد الله الأصمعي والحسن بن هانيء المعروف بأبي نواس ، وكلهم إمام في العلم ، إلا أنه غالب على إسحق الغناء ، وعلى أبي نواس الشعر ، وعلى الأصمعي الأخبار والنوادر والملح .

فأما إسحق فإنه بالمكان الرفيع من الأدب ^(١) ، وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدونات العلم ما ليس عند الذين يُعَنَوْنَ بجمع صنف واحد من صنوفه مثله ، ولقد رأيت عنده من كتب اللغة مثلاً ما ليس مثله في خزانة ابن الأعرابي ^(٢) ، وله مقام سام بين العلماء حتى إنهم ليهدون إليه كثيراً من تأليفهم ودواوينهم كأبي نواس وابن أبي عيينة ^(٣) وابن الأعرابي ^(٤) وغيرهم تنشيطاً لعلمه وأدبه ، لأن انصبابه على الغناء لم يكن حرفة للتعيش ، وإنما هو ميل بنفسه إلى محاسن الأدب والصناعة ، فكان يترفع عن أن يغنى إلا في دور الرشيد والبرامكة وكانوا إذا حضر مجالسهم يؤثرون محاورته في العلم على جلوسه إليهم في صفوف المغنين ^(٥) .

ولقد كنت أسمع الرشيد يقول لو لم يشتهر إسحق بلقب المغنى لوليت القضاة بين المسلمين ^(٦) ، ووجدت في نفسه من جميل الميل إليه ما كان يحمله على أن يقصده داره ^(٧) على سبيل التحجب ، ولقد كنت يوماً بداره وهي بباب الشمسية ^(٨) من الجانب الشرقي تلقاء قُطْرُبُلٍ ^(٩) ، بجاء الخليفة على حمار صغير أسود وهو الحمار

(١) الأغاني والحصري ٢ : ٢٠٦

(٢) ذكر ابن خلكان ١ : ٩٣ أنه كان عند ابن الأعرابي خزانة جمع فيها كتب اللغة .

(٣) الأغاني ١٨ : ١٢

(٤) الأغاني ٥ : ٥٥

(٥) الأغاني ٥ : ٦٠

(٦) ابن خلكان ٩ : ٩١ وكتاب الأغاني .

(٧) الاثليدي ٢٨٦ والأغاني .

(٨) الأغاني ٥ : ٧

(٩) ذكره المسعودي ٢ : ٣٨٥ و ٣٩٧

الذي يركبه (١) في ساحات القصر وجناته للترهة ، ومعه خمسمائة نفر من خدمه وغلمانه وندمائه (٢) ، فقام إسحق بالواجب من إكرام وفادته (٣) ، وأخرج الحلوى إلى خدمه بما كفى الجمع كله ، ثم أشار إلى جواريه أن يجلسن للغناء ، فقال الرشيد لست أريد هذا وإنما شوق في النفس دعاني إلى الأُنس بقربك .

وأما الأصمعي فإنه قديم بغداد (٤) في خلافة الرشيد في جملة من وفد عليه من العلماء . وهو إمام في النوادر (٥) والأخبار وأيام الناس مشهود له بصدق الرواية ، ولقد حدث الرشيد يوما عن ملوك بني أمية فقال إن سليمان كان نهما إذ قدم إليه السباط لا يصبر حتى يبرد بل يتناول اللحم بكمه ، وإن يزيد كان إذا جلس للشراب يسقط الخمر في ثيابه فصاح به الرشيد قاتلك الله ما أصدقك في نقل الأخبار ! والله إن ثيابهما عندي وإن الدهن لفي أكم سليمان والخمر في ثياب يزيد (٦) ، على أنه لم يكن يبنى وبينه مع طول المدة التي أقمتها في بغداد قرب ولا استلاف لانقطاعه عن مجالس البرامكة ، وإنما كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع ما يحكيه عن طرائف بغداد ، فأراه لا يغفل عن نادرة مليحة إلا يذكرها له ، ولكن بالألفاظ التي تأخذ بمجامع القلوب ، وكنت يوما بين يديه وقد بدر من رجل ظريفة فالتفت إليه الرشيد وقال له حررها يا أصمعي (٧) . وقد أخبرني بعض أصحابه أنه أقام في صباه بالبادية أياما طويلا يستطلع فيها عادات العرب ويستكشف أخبارهم ويستنطق آثارهم ، وقد شاهد ما يقيمون من المجالس

(١) الأغاني ٥ : ٣٠ و ٤٦

(٢) ذكر ياقوت ٤ : ١١٨ أن الخليفة كان يركب في كذا وكذا رجلا وخداما .

(٣) واتخذ القرش من الخمر المظهر بالسجاب كذا في العقد الفريد ٣ : ٢٤٠ وهذا نص كلامه "قدخلنا دار إبراهيم الموصلي فإذا هي لا أشرف منها ولا أوسع وإذا بفرشها خمر مظهر بالسجاب" .

(٤) ابن خلكان ١ : ٤٠٨

(٥) الشريشي ٢ : ٢٧٩

(٦) المسعودي ٣ : ٦٢٨ وابن خلكان ١ : ٤١٠ وتزيين الأسواق ١ : ١٤٣

(٧) المسعودي ٣ : ٢١١ والأطليدي ٩٦ والعقد الفريد .

والأسواق ، وما ركب الله فيهم من السجايا والأخلاق ، وما وقع لبساتهم مع الشعراء ، فلما أقام ببغداد أخذ يحدث بكثير من أخبارهم ثم اشتهر اسمه بين الناس بما هو آخذ بكلامه من الرشاقة والبلاغة حتى صار علماً في المدينة ، وصار يتفق له فيها من النوادر ما لم يسمع أحد بأعجب منه .

وأما أبو نواس فإن الشعر هو الذي يقدمه اليوم عند الرشيد ، وقد (١) كان أبو نواس يحدثه من قبل بنوادر الناس ولكن من غير أن يفكه بأعراضهم ، ثم أعرض عن ذلك ، فقال له ذات يوم حدثنا يا أبا نواس فقال لا يحضرني شيء ، فقال بجياني (٢) إلا ما قلت شيئاً ، قال كان الكذب عملي واليوم هجرته يا أمير المؤمنين (٣) ، فضحك وقال هذا أحب إلي من الحديث ، وله كلام ظريف في المجنون والخلاعة (٤) وحوادث تدل على خفة روحه . وكان إسحق يتعصب له (٥) ويؤشيد بذكوره ويجهز بتفضيله ويحلب له الرغد من الرشيد ويحط من قدر الأصمعي لتنافس بينهما (٦) حتى أخذ المقام الأول بين الندماء وبني لنفسه الدور (٧)

(١) وربما حفظ له شيئاً من أبياته يمثل بها في مجالسته الأدياء فلقد سمعته مرة يقول لو قيل الدنيا صنى لنا نفسك وكانت ممن ينطق ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا ليت تكشف
له عن عدو في ثياب صديق
وما الناس إلا هالك وابن هالك
وذو نسب في الهالكين عريق

العقد الفريد ١ : ٣٦٩

(٢) كلمة يقولها الخليفة عند التحجب الأغاني ٦ : ٧٥

(٣) المستطرف ٢ : ١٠

(٤) الكنز ٩٤

(٥) الأغاني ٥ : ١٠٧

(٦) الشريشي ٢ : ٢٧٤

(٧) ابن خلكان ١ : ٢٩٥ والأغاني ٣ : ١٦١

التي لم يبن مثلها عظماء الناس ، بينما الأصمعي يستقرض من أصحابه (١) حاجته من المال .

ومن خلال أبي نواس الماثورة أنه يميل مع أهل البيت سرا لا يحسر على المجاهرة به ، وقد قيل له في إعراضه عن مدحهم لقد ذكرت كل معنى في شعرك وهذا على بن موسى الرضا في عصرك لم تقل فيه شيئا ، فقال والله ما تركت ذلك إلا إعظاما له وليس في قدرة مثلي أن يقول في مثله وأنشد (٢) :

أنا لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادما لأبيه

وقد وقع تدوين هذه الرسالة في السنة الحادية والثمانين بعد المائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم لثلاث خلون من شوال والناس يتجهزون للخروج إلى الحج الشريف أرانا الله بركته بمنه وكرمه .

(١) المستطرف ١ : ١٢٣ وذكر المسعودي ٢ : ٢٢٣ أنه رأى في دار الأصمعي خبأ مكسور

وعليه دراعة خلفة ومقعد وخبخ وكل شيء عنده رث .

(٢) ابن خلكان ١ : ٤٥٧

الرسالة السادسة

بيت الرشيد

لقد مضى علىّ في بغداد بعد العودة من خراسان نحو ست سنين ما زلت منقطعا فيها إلى البرامكة حافظا لمقامي في الدولة تحت ظلهم وعنايتهم ، وكنت أتردد في خدمتهم إلى دور الرشيد وهو يأنس بي في خلواته إلى أن صرت منه بالمتزلة التي لا يطمح إليها غيري من المقرين إليه ، وكنت أقف على أمور بيته وأولاده ، فوأيته (أكرمه الله) صالح السريرة شديد الإغراق في الدين محافظا على أداء الصلاة في أوقاتها وشهود الصبح لأول وقتها ، يصلي في كل يوم ليلة مائة ركعة لا يتركها إلا لعلّة (١) ، وأذكر أنه لما حصل في أحد الأعوام لزنة وغلاء سعر للناس واشتد عليهم الكرب اشتدادا عظيما أمرهم بكسر الملاهي وكثرة الدعاء والتوبة (٢) ، وذلك دليل على موقع العبادة عنده ، ومظهر يروم منه تأييد الدولة بإجلال الدين حتى يكون الإسلام مغتبطا بمناحيه .

ولإن كنت رأيت له في تدبير المملكة ذلك التصرف الجميل فإني ما وجدته له في تدبير أهل بيته ومواليه ، وإنما يرجع الرأي في ذلك إلى زوجه أم جعفر ، وهي أنفذ نساء العباسيين كلمة في الدولة ، وقد ربيت في مهاد الدعة والدلال كما يشير إليه اسمها ، فأنما سماها أبو جعفر جدها بزبيدة لفضاضة بدنها ، وقد كان يرقصها تهللا بها وإعجابا بملاحتها ، فسماها بزبيدة لذلك (٣) فلما بنى بها الرشيد ووجدها طرفة حديث ومصدر رأي جميل لم يربدا من الانقياد إليها في قضاء ما ترومه من

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٧ والفخرى ٢٣٠ والمقدمة ١٥

(٢) المستطرف ١ : ٨٢

(٣) الاغا ٩٤ : ١٠٢ والشرقي ٢ : ٢٤٥ والخصري ٣ : ٢٢٦

الحاجات ^(١) ومن ذلك أنه مكنها من بيوت المال فأنفقت من سعة ما يُنْفَى على ثلاثين ألف ألف دينار، فبنت مسجدا مباركا على ضفة دجلة بمقربة من دور الخلافة يسمى بمسجد زبيدة ، ومسجدا سائى الحسن فى قطيعتها المعروفة بقطيعة أم جعفر ^(٢) بين باب خراسان وشارع دار الرقيق ^(٣) ، وحفرت بالجهاز العين المعروفة بعين المشاش ^(٤) ، ومهدت الطريق لمائها فى كل خفض ورفع وسهل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثنى عشر ميلا إلى مكة ، فبلغ ما أنفقته عليها ألف ألف دينار، وهذا من الأعمال التى لم تباشرها امرأة فى الإسلام إلا الخيزران أم الرشيد فانها عَمَرَت كثيرا من المساجد ^(٥) أيضا وبنت بمكة دار ابن يوسف التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسلم مسجدا ^(٦) جزيل البركة ، وتوافرت عندها الأموال حتى بلغ الذى خلفته مع ما توسعت فيه من النفقة مائة ألف ألف درهم ^(٧) فان لم يكن عند زبيدة من المال ما يبلغ هذا القدر الجسيم فإن لها فى السياسة رأيا تسمو به إلى التدخل فى أمور الدولة كأفطن من يكون من الرجال .

وقد صير الرشيد أمر بيلته بعد زبيدة إلى مسرور خادمه العبد ، وهو حاجبه وسيد مواليه ^(٨) . وله فى قصور الخلافة دواوين تقيم فيها حوزته من خدم وحرس وغلمان ، والكاتب له زياد بن أبى الخطاب ^(٩) يقيم بمقربة من مجلس يوسف

(١) فى المسعودى أنها كانت من الرشيد بالمتزلة التى لا يتقدمها أحد من نفعرائها ٢ : ٢٢٧

(٢) ياقوت ٤ : ٤٢١

(٣) ابن خلكان ١ : ١٨٩ والمستطرف ١ : ٢٨٩

(٤) المسعودى ٣ : ٤٠٢ وابن جبير ١٧٣ والشرينى ٢ : ٢٤٥

(٥) ابن جبير ٢٧٦

(٦) المسعودى ١ : ٣٠٦

(٧) المسعودى ٣ : ٢٠٧

(٨) ابن خلدون ٣ : ٢٢٣

(٩) الأغانى ٤ : ٩٩

ابن القاسم صاحب ديوان الإنشاء^(١) ومن قام بين يدي الرشيد حين أخذت له البيعة ، وفي ذلك دليل على مكانته من الشرف وعلو المرتبة . ولا غرو فإن له من نفوذ الكلمة ما ليس للأمرء والحكام مثله ، إذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها إلا بإذنه ورضاه ، وكثيرا ما رأيت الملوك يتلفون بالهدايا إليه ليخاطب الرشيد في حاجاتهم ، إذ ليس في أهل بيته من يتجرأ عليه سواه^(٢) حتى كان إذا ركب الخليفة لا يحسر أحد على سؤاله إلى أين يذهب غيره^(٣) .

وإلى مسرور الأمر فما يختص بالسراري والقيان وإنهم لكثير في دار الرشيد يبلغن زهاء ألفي جارية^(٤) يرقلن في أحسن زى من كل نوع من أنواع الجواهر والوشى المذهب ، غير أن المقدم عليهن جميعا ثلاث أهدهن إليه الفضل بن الربيع : سحر . رضاء . وخت ذات الخال .

أما حريم الخلافة فإنه دوائر كبيرة لا اتصال لبعضها ببعض ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر ، وأعظمها دائرة أم جعفر ، لها قصر السلام كله ، وهو أطرف القصور وأبهجها زينة وأجملها في العيون والقلوب موقعا يقول فيه إبراهيم النديم^(٥) :

سُقيت الغيث يا قصر السلام فنعمة محلة الملك الهام
لقد نشر الإله عليك نورا وخصك بالسلامة والسلام

(١) المحاضرة ٢ : ١٣٢

(٢) الاثليدي ٢٨٦

(٣) الأغاني ٩ : ٩١

(٤) الأغاني ٩ : ٨٨

(٥) الأغاني ٥ : ٨١

ثم دائرة أولاد المهدي ، ثم دائرة أولاد الهادي ، ثم دائرة أولاد الرشيد من غير زبيدة زوجه . ولهن جميعا من الخدم والغلمان ما ينتهي إليه إسراف الملوك في السعة ويتجلى به جمال السلطان بالبهاء والإشراق . ولقد رأيت الجوارى من خدم الهاشميات يتقلبن في أطيب العيش والنعيم ويتخذن العصائب مكاملة بالجواهر اقتداء بعليّة أخت الرشيد إذ كانت أول من اتخذ العصابة لعب في جبينها فسترته بها فكان ذلك أحسن ما ابتدعه النساء (١) .

أما لباس الرشيد فهو لباس غيره من العباسيين السواد لا يتأق فيه إلا بما تقتضيه الرسوم المحفوظة ، وإنما ينصرف همه إلى لذة المطعم بالتأق في صنوف الألوان ، وقد جلست إلى طعامه (٢) أكثر من مرة في مجلس كامل الزينة قد فرش به الرخام الأخضر ولبس حيطانه بالوشى المنسوج بالذهب (٣) فرأيت أنه يفتن في طعامه ولكن على غير شره في الأكل ، يبدأ بالمرق من السكاج وغيره تنشيطا لجسمه ، ثم يأكل الفاتر (٤) من الطعام من البقول وأشباهها ، ثم الدجاج وأنواع الطير ، ثم الشواء ثم أنواع السمك ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدته لا تخلو من السنبوسق (٥) ، وهي رقاق تحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت وتطرف بالخلد (٦) ، وهو يتخلل طعامه بتناول البسير من التوابل التي تشبه إليه (٧) ، فإذا اكتفى منه تناول الحلوى من الأسوقة والربيكة واللوزينج والفالودج أو غيرها ، ثم الفاكهة بعدها ،

(١) الأغاني ٩ : ٨٣

(٢) ذكر الأغاني ٥ : ٢٤ أنه ما كان يجلس إلى طعام الخليفة غير أمير وعالم .

(٣) ذكر الوشى المنسوج بالذهب الأغاني ٣ : ١٨٤

(٤) المسعودي ٢ : ٢٢٠

(٥) المسعودي ٢ : ٤٢٦

(٦) الأغاني ١ : ٣٩

(٧) يتبدى بالطعام الحار ويتهى بأكل البوارد المسعودي ٢ : ٢٢٠

ثم الثقل (١) وهو الذى يتناوله بعد طعامه للتعلل ، ولكن فى الصباح التى لم أر
أظرف منها فى آنية الصين ولا أغلى ثمنًا وقيمة ، فكنت أحسب لشدة تأنقه
فى فنون المطعم أنه لو لم ينه النبى صلى الله عليه وسلم عن الأكل فى صحاف الذهب
والفضة (٢) لاتخذها كذلك وتزل فيها اليواقيت والجواهر . فإذا اكتفى من التعلل
جاءه الغلمان بماء الورد المسك (٣) فى قماقم الذهب مع شئ من الريحان فيغسل يديه
ويتبخر ، فإذا انتهى من الغداء دخل مخدعه للقيولة (٤) ، وإذا فرغ من العشاء
جلس للمغنين والندماء . كذلك عادته من يوم ولّى الخلافة .

أما أولاد الرشيد فكلهم مترف يتقلب فى النعمة والإسراف إلا أحمد (٥) فإنه
يحاول العزلة ويقعد مقعد ضنأة ويتكسب بيده فيما يقولون شيئًا ينفقه على نفسه
مع مقدرة أبيه كلها (٦) ، أما القاسم فإنه ذو كبر شديد ونعمة طائلة وبذخ زائد ،
وإليه ينتهى جمال ولد الخلافة (٧) ، وكان أبوه قد طوقه أمر الفداء الذى وقع
بين المسلمين والروم بعيد عودتى من نخراسان بخرى ذلك على يده (٨) وعمره يومئذ
اثنتا عشرة سنة ، فتراحم ركب الملوك على يابه ، ومكنه أبوه من بيوت المال
فهو اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشتري الجوارى (٩) والغلمان ، ويقيم المجالس
للشعراء والمغنين والندماء ويقطعهم الضياع ويصلهم بما يشاء من الهبات (١٠) إلى
أن يصيب بعضهم فى ناحية ما لا يصيبه من جوائز الخليفة من المال .

(١) المسعودى ٣ : ٢٢٠ والأبشهى ١ : ٨٤

(٢) الانليدى ٩

(٣) الانليدى ١١٣

(٤) الأغاني ٥ : ١١ والمستطرف ١ : ١٣٢

(٥) ولده من سرية لبعض نسائه العقد الفريد ٣ : ٥٦

(٦) ابن خلكان ١ : ٥٧

(٧) الأغاني ٣ : ٩٦ و ١٥٩

(٨) ابن الأثير ٦ : ٥٧

(٩) الأغاني ٣ : ٥٧

(١٠) ذكر الأغاني ٣ : ١٦٨ و ٤ : ١١٦ عطاء أولاد الخلفاء .

أما الأمين والمأمون وليا العهد فإنهما دونه في الإسراف ولا سيما الأمين فإنه يومهم أنه كثير العقل وإن كان ضعيفه ^(١) ، ويتخذ الوقار برقعا لوجهه لما يحدث به نفسه من أمر الخلافة . ولأنه ابن هاشمي وهاشمية وذلك لم يتفق لغيره من خلفائهم ، فإن أبا العباس وأبا جعفر والمهدي والهادي والرشيد كلهم أولاد سراري ^(٢) وأما عبد الله المأمون فإنه زينة أولاد الرشيد ، وبمته سمة خير وفضل وعفاف ، لم أر في أبيه خلّة من الخلال المحمود ولا خلّقا من الأخلاق الرضية إلا وجدتها في نفسه طبيعة تسمو به إلى أرفع مقام في أدب الدنيا والدين ، ولم أر في أولاد الملوك غير البرامكة (أعزهم الله) من يتعشق العلوم الحكيمية ^(٣) على حدائث سنه ويقيم بين العلماء لمناظرتهم ^(٤) في جميع أنواع العلوم مثله ، فما أذكر أني دخلت عليه مرة إلا وقد لقينته في مجلس من العلماء والأدباء وهو متوسط فيهم كالشمس من حولها الضياء .

ولقد قصدت بابه من عهد قريب مع أمير من البرامكة فألقيت بحضرته ^(٥) جماعة من أئمة العلم ومنهم الخزيي والعباس بن زفر ومنصور النوى ، وهو السليم شعره من العيب لولا أن له طعنا في الشيعة يبتغي به مرضاة العباسيين ، ومحمد الراوية المسمى بالبديق لقصره وهو المنشد للرشيد أشعار المحدثين ^(٦) ، وفتي من أمراء آل نوبخت يقال له الفضل بن سهل وهو خليل المأمون ^(٧) وصديقه لا يصير على فراقه في نهار ولا ليل ، وإذا ركب في موكب أركبه معه على النجائب المخضوبة

(١) ابن الأثير والمسعودي والفضري .

(٢) السيوطي .

(٣) المقدمة ١٨

(٤) الدميري ١ : ٩٨ والمسعودي ٣ : ٤٠٢ والعقد الفريد ٣ : ٤٣

(٥) الأغاني ٢ : ٢٢

(٦) الأغاني ١٢ : ٢٠

(٧) ابن الأثير وذكره الطوطا ١٤٢

بالحناء وعليها القطوع والديباج^(١) ، وكانت بجانب المأمون جماعة من النحاة قد أحذقوا به إحذاق الحالة بالقمر، منهم الكسائي وأبو محمد مؤدباه^(٢) وهم يتباحثون معه في مسائل نحوية وكنت أستمعه يقول لهم (زيد) على الرفع والكسائي يقول بل (زيدي) منصوبة بأن فتطارح العلماء الجملة الإعرابية التي دار عليها كلامهم وهي « إن من خير القوم أو خيرهم نية زيد »^(٣) فأجمع رأيهم على موافقة المأمون فتحققت فضله في ذلك اليوم وعرفت أنه يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلا منه كما يتبادر إلى العقل عن آداب المترفين من أولاد الملوك .

وكان هذا الأمير إذا جلس للاستراحة يثني انصبابه إلى ما يجد فيه من التسلية أدبا وفائدة ، ولم يكن شيء من الملاهي أحب إليه من لعب الشطرنج^(٤) يمارسه كأبيه^(٥) لاستنباط الحيل فيه ، حتى لم يكن في الناس من يفضلُه فيه وهو القائل في الشطرنج^(٦) :

أرض مربعة حمراء من آدم	ما بين إلقين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شهما	من غير أن يسعيا فيها بسفك دم
هذا يُغير على هذا وذاك على	هذا يُغير وعينُ الحرب لم تم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعركة	في عسكريين بلا طبيل ولا علم

(١) ذكر زينة المراكب هذه الأغاني ١ : ٨٨

(٢) الأغاني ١٧ : ٧٢ والمستطرف ٢ : ١٣ والمسعودي ٢ : ٢١٣

(٣) الأغاني ١٨ : ٧٧

(٤) العقد الفردي ٣ : ٢٥٤

(٥) لعب الرشيد بالشطرنج أمر معروف .

(٦) المستطرف ٢ : ٣٠٦ والمسعودي ٢ : ٤٠٦

وأما لعبه بالأكرة والطبّاطبة ورميه في البرجاس النشّاب . وكرّه بالصواجلة في الميدان واقتناؤه طرائف الطير والخليل^(١) والحيوان . واتخاذة الديكة ليقاتل بعضها بعضا والأكبّاش ليناطح بها بين يديه إلى غير ذلك من ملاذ الملوك الذين يبلغون من الترف إلى أن يُعتوا أمثال هذه الملاحى على سبيل المفاخرة والمباهاة ، فإنه كان يتخذها لما يدعو إليه موضعه من الملك المترف وهو غير غافل عن اتخاذ الأشياء التي تعود عليه من وراء الزينة والمكاثرة بفوائد من الأدب والصناعة . فقد عني بجمع آثار الملوك من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك حتى جمع من طرائفها القدر العظيم الثمين ، رأيت في بعض مجموعاته صندوقا أودعه خواتم الخلفاء جميعا من العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم وفي صدر الدولتين ، فكان جامعا لجميع خواتمهم^(٢) إلا خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن ضاع من عثمان في بئر أريس كما تواتر في الأنباء^(٣) ما كف عن طلبه حتى يحده ، وفي هذا المجموع وأمثاله من المجموعات أدب مع الفكاهة والزينة . وهذا ما أذكره من فضائل هذا الأمير وليس هو إلا التمر اليسير في جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه .

(١) من المعلوم أنه كان لأمرء العرب العناية التامة بتربية الخليل ووجدت في العقد الفريد أن المأمون كان يتخذ خيلا يسابق بها خيل أبيه وأقاربه في الحلبة قال في الجزء الأول ٦١ : ركب الرشيد في سنة ١٨٥ إلى الميدان لشهود الحلبة قال الأصمعي فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص الخليفة والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون وسليمان بن جعفر ولعيسى بن جعفر بقاء فرس أدهم يقال له الريذ لهرور الرشيد سابقا فابتهج لذلك ابتهاجا علم في وجهه وقال على بالأصمعي فنوديت من كل جانب فأقبلت مريعا حتى مثلت بين يديه فقال يا أصمعي خذ بناصية الريذ ثم صفه من قوسه إلى سنبكه فإنه يقال إن فيه عشرين اسما من أسماء الطير قلت نعم يا أمير المؤمنين وأشدته شعرا جامعا ما فيه . . . فأمر لي بألف درهم . وذكر المسعودي ٣ : ٢٢٠ أن الرشيد أجرى الخليل يوما بالرفقة وكان في أوائلها سوابق من خيله يتقدمها فرسان في عتار واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه فتأملهما فقال فرسي والله وفرس ابني المأمون .

(٢) في العقد الفريد والمسعودي والمقرئزي والنخيس وابن الاثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء وما كانوا يتقشون عليها .

(٣) أبو الفداء ١ : ٧٧ وابن جبير ١٩٩ وتفويم البلدان ٨٧ وغيرهم .

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم

أما دور ملوك البرامكة (أعزهم الله) فإنها في الجانب الشرق بإزاء دور الخلافة ليس بينهما إلا عرض دجلة ^(١) ، وهي من الجمال والإشراق بمكان تسامى ^(٢) به قصور الرشيد ، لأنهم بنوها على السعة التي لم يبلغها أحد من الملوك فقد أنفق جعفر بن يحيى على دار بناها عشرين ألف ألف ^(٣) درهم ، فهي مظهر الأتس والصفاء ، ومشرق الأنوار والسناء . مغطاة بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج ، وعليها صور من إلص المجسم ^(٤) ، وقد فرشت مجالسها بالوش والإبريسم وزينت بالمتاع الثمين والقماقم الذهبية ^(٥) والجوامع المنقوشة ^(٦) والقوارير الفرعونية ^(٧) ولطائف الصين وغيرها من التحف التي تأتيهم من الملوك في سبيل المراضاة والاستمالة ^(٨) ، ولبست طيقانها بأستار من الديباج عليها أبيات مرسومة ^(٩) مما قالته الشعراء في مدحهم ، وهي تأتيهم من مصنوعات الفرس ، لأن العرب لا يعملون الطراز منذ نهاهم عنه عبد الملك بن مروان ^(١٠) ، ولا يكتبون على البسط والستور إلا كلاما يتبرك به ، بخلاف الفرس فإنهم يزينون نسيجهم بالرسوم ويكتبون فيها ما يطيب لهم من الشعر أو يتبركون به من الآيات .

(١) الفخرى والتليدي ١٦٧ والقزويني ٢١٠

(٢) الدميري ١٥٤: ٢

(٣) ابن الأثير ٦٢: ٦

(٤) كانت العرب تعرفه كما في المقدمة ٣٥٧

(٥) الكنز ٣٦

(٦) الأغاني ٣: ٢٧

(٧) الأغاني ٦: ١٣٠ و ١٠٣

(٨) الفخرى ١٨٦ والمقدمة ١٤ وفي ابن الأثير ٦: ٥٨ أنهم كانوا من المنزلة الكبرى في عيون الملوك بحيث إن خاقان ملك الخزر حمل ابنته إلى الفضل بن يحيى تقربا إليهم في المصاهرة .

(٩) رسم الأبيات على الأستار مذكور في الأغاني ٥: ٨٦ و ١٠٠

(١٠) التليدي ٢٧٢

وقد اتصلت عمارة البرامكة في حي لا يخالطهم فيه أحد ، وهى من السعة بحيث تنتهى من الجنوب إلى شارع المدينة ^(١) ، ومن الشرق إلى درب دينار الصغير ^(٢) ، ومن الشمال إلى باب الشماسية ^(٣) ، وهو الموضع الذى فيه قصر يحيى المعروف بقصر الطين ^(٤) ، المسمى بذلك معارضة لما أنفق عليه من الذهب واتخذ فيه من الزينة والزخرفة ، وفي جوارهم موضع يقال له البردان ^(٥) . يشترى فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامع فيهم من أهل العلم والأدب ^(٦) ، لأنهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكرم والسماحة ^(٧) ، وأصبحت أعطياتهم كأعظم ما يكون من أعطيات الملوك ، فإن يحيى إذا ركب يُعدُّ صُرا في كل صرة مائتا درهم ، ويدفعها للمتعرضين له في الأسواق والشوارع ^(٨) . وقد قالت الشعراء في ذلك :

يا سبى الحصور يحيى أتيحت لك من فضل ربنا جتان
كل من مر في الطريق عليكم فله من نوالكم مائتان

أما وقوف الملوك والأمراء على أبوابهم فما لا تحضرني عبارة نفى بالإفصاح عنه ، وإنما للعين أن ترى ازدحام الخيل في ساحات قصرهم واقفة بالخدم والحفد والغلمان مما ليس على باب الرشيد مثله ، وإن إقبال المؤمنين عليهم من جميع الوجوه وأبعد الآفاق يمتطون إليهم رجال الرجاء ويستقون من موارد إحسانهم ،

(١) ذكره الأغاني ٦ : ٧٨

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣١١

(٣) الأغاني ٥ : ٨ وذكره المسعودى ٢ : ٣٨٥ وقال إنه في الجهة الشرقية تلقاء قطربل وذكر ابن الأثير ٦ : ٩٨ أنه نزل به جند المأمون يحاصر بغداد .

(٤) الأغاني ٥ : ٨ وياقوت ٤ : ١١٤

(٥) الأغاني ٥ : ٨ وذكر المسعودى هذا الموضع ٣ : ٢٦٧

(٦) الأغاني ٥ : ٧٢

(٧) الأغاني ٥ : ٧٢ والاتبليدى والابشهى والوطواط وأبو الفداء وابن خلدون والفخرى وابن تيمية وابن خلكان وغيرهم .

(٨) ابن خلكان ٢ : ٣٦٣ والفخرى ٢٢٠

نهلاً وعللاً لأشهر من أن أحاول نعته بالوصف الذى لا يعبر عنه القلم ، فكأنما
يلتهم محط الركائب يضعن فيه المدائح ويحملن منه المال .

ولقد رأيت من الأعراب من قصد الفضل من قضاة فسأله عن حاجته
فاستجده عشرة آلاف درهم فاستقل ذلك له وقال له قد ازدريت بنا وبنفسك
يا أخا العرب ، وإنما تعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة ، فلما أخذ المال انصرف
وهو يبكى فقال له الفضل مم بكائك أستقلالا للال الذى أعطيتك ؟ قال لا
ولكننى أبكى على مثلك تواريه الأرض ويا كله التراب وأنشد^(١) :

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا فرس يموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حُرِّ يموت لموته خلق كثير

فنظر إلى الفضل بعد انصرافه وقال لى إن مثل هذا يقصدنا من البلد البعيد
ليسترفدنا مرة واحدة فى زمانه فيقوم بحرمة الصنعة ، ومن الأمراء من نغمره
باحساننا كل يوم^(٢) ثم يغمط النعمة ويدب فيه مرض الحسد فيكون من أشد
الناس بغضا لنا وسعيا فى فساد ملكنا .

وقد انفجر البرامكة بالكرم^(٣) حتى صار يضرب بهم المثل الأكبر فى سعة
العطاء ، فيقال فلان من الملوك يتبرمك ، وقد أخبرنى الخازن القائم على بيت مالهم
أنهم يغلون فى كل سنة عشرين ألف ألف دينار^(٤) فإذا انقضى الحول لا يبقى منها
فى الخزائن دينار واحد ، فهم يتخذون الكرم قاعدة فى الحالين من نعيم الدنيا

(١) الاتليدى .

(٢) الفخرى ٢٤٠ والوطواط ٢٤٩ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والمستطرف ٣ : ١٩٢

والأغانى ٥ : ١١٩

(٣) الأغاني وابن خلدون وابن الأثير وأبو الفداء والمسعودى والعقد الفريد والمستطرف والاصمغاني

والاتليدى والفخرى والسيوطى وابن خلكان .

(٤) العقد الفريد ٣ : ٢٨

ويؤسها . يقول أبو الفضل (١) (أيد الله ملكه) إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها لا تفي
وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى . وقال أبو نواس في مدحهم (٢) :

إن البرامكة السكرام تعلموا فعل الجميل وعاموه الناسا
وإذا هم صنعوا الصنائع في الوري جعلوا لها طول البقاء أساسا
وقال فيهم نصيب (٣) :

عند المأوك مَضَرَّةٌ ومنافع وأرى البرامك لا تَضُرُّ وتنفع
إن العروق إذا استسر بها الثرى أشر النباتُ بها وطاب المزرع
فإذا جَهِلَتْ من امرئ أعرافه وقديمه فانظر إلى ما يصنع
وقال أبو النضير البصري :

إذا كنت من بغداد بمنقطع الثرى وجدت نسيم الجود من آل برمك
وقيل فيهم وهو منتهى المدح :

أتانا بنو الآمال من آل برمك فيا طيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة في كل عام إلى العدا وأخرى إلى البيت العتيق المستر
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ييجي وبالفضل بن ييجي وجعفر
فتظلم بغداد وتحولنا الدجى بمكة ما تمحو ثلاثة أقمصر
فما خلقت إلا بالحدود أكفهم وأقدامهم إلا لأعواد منبر
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعا به وناهيك من راع له ومدير

(١) الاقليد في كتاب أعلام الناس .

(٢) الأغاني ٥ : ١١١ و ٣٠ : ٣٤ والحصري ١ : ٣٧٥

(٣) الأغاني ١٠ : ١٠٠

وقال سلم الخاسر في يحيى^(١) أعزّه الله تعالى :

يا أيها الملك الذى أضخى وهمته المعالى
انت المنوّه باسمه عند الملهمات الثقال
لله درك من فتي كم فيك من كرم الخصال

وقال فيه أبو نصر^(٢) وأنا أستحسن البيتين وأرى لهما وقعا لطيفا في القلوب :
نام الخليلون من همّ ومن سقم وبث من كثرة الأحران لم أنم
يا طالب الجود والمعروف مجتهدا اعمد ليحيى حليف الجود والكرم
وقال فيه آنر^(٣) :

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ولكننى عبد ليحيى بن خالد
فقلت شرا قال لا بل وراثة توارثنى من والد بعد والد
وقال غيره^(٤) :

لا ترانى مصافحا كفّ يحيى لئننى إن فعلت ضيّعت مالى
لو يمسّ البخيل راحة يحيى لستّ نفسى يبذل النوال
وقال غيره فى كرم الفضل^(٥) رعاه الله تعالى :

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد فقامت به التقوى وقام به العدل
إليه يسير الناس شرقا ومغربا فرادى وأزواجا كأنهم نحل

(١) الوطواط ٢٤٩

(٢) الأغاني ٥ : ١٣ واللائلى ٢٣٨

(٣) اعلام الناس والعقد الفريد ١ : ١٠٠

(٤) الفخرى ٢٣٦

(٥) اعلام الناس .

واعترضه وقت خروجه إلى خراسان فتي من التجار كان قد شخّص إلى الكوفة
فقطّعه عليه الطريق وأخذ جميع ما كان معه ، فأخذ يعنان دابة الفضل وقال (١) :

سأرسل يتنا ليس في الشعر مثله يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والبأس في كل منزل أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

وقال آخر من شعراء البادية (٢) :

قد كان آدم حين حان وفاته أوصاك وهو يحود بالحبّاء
بينه أن ترعاهم فرعيّتهم وكفّيت آدم عيلة الأبناء

وقال فيه أشجع السّامي الشاعر (٣) :

وما قدّم الفضل بن يحيى مكانه على غيره بل قدّمته المكارم
لقد أربّه الأعداء حتى كأنما على كل ثغر بالمنية قائم

وقال أبو النضر البصري (٤) :

ويفرح بالمولود من آل برمك بغاة الندى والسيّف والرمح والنصل
وتبسّط الآمال فيه لفضله ولا سيما إن كان من ولد الفضل

وقال غيره (٥) :

ولأمة لامتك يا فضل في الندى فقلت لها ما يقدح اللوم في البحر
أردت لئنّني الفضل عن سنن الندى ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر

(١) - العقد الفريد ١ : ١١٩

(٢) ذكر في العقد الفريد ١ : ١١٤ أن البيهقي قالا في الحكم بن حنطب .

(٣) الأغاني ١٧ : ٣٤

(٤) الأغاني ٥ : ١٤ و ١٠ : ١٠٠

(٥) اعلام الناس والعقد الفريد ١ : ٢٩٨

مواقع جود الفضل في كل بلدة مواقع ماء المنزل في البلد القفر
كان وفود الناس لما تجملوا إلى الفضل لاقوا عنده ليلة القدر
وقال آخر (١) :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة رأيت بها غيث السماحة يُنبت
وقال ابن الخياط المكي (٢) :

لمست بـكفـي كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي
فما أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلفت ماعندي

وذلك أن الفضل أمر له ذات يوم بخمسة آلاف درهم فاستأذنه في تقييل يده
فأذن له فما انتهى إلى الباب حتى فزق المال بأسره ، فعوتب على ذلك فقال
البيتين المذكورين ، فبلغ ذلك الفضل فأعطاه عشرين ألف درهم . وقال
بعضهم (٣) وهو أمدح بيت في الكرم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء
وقال مروان بن أبي حفصة في جعفر وهو صبي (٤) :

بني لك خالد وأبوك يحيى بناء في المكارم لن ينالا
كان البرمكي لكل مال تجود به يدها يفسد مالا

(١) المستطرف ١ : ١٩٦

(٢) حلة الكمي والوطواط ٢٥٠ والأغانى ١٨ : ٩٤ وهو يقول إنه أنشدهما في المهدي .

(٣) ابن خلكان ١ : ٥٦٨

(٤) هما من بحر القصيدة التي رثى بها معنا ولم ينبه عليها أحد من أولاده وقد قالها في مدح جعفر
البرمكي وألحق بهما بعض أبيات . وما قاله مروان في هذه القصيدة في رثاء معن :

كانت الشمس يوم أصيب معن من الإلغام ملبسة جللا
هو الجبل الذي كانت معن تهد من العدو به الجبالا
أقنا بالنيامة بعد معن مقاما لا يزيد به زيلا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب التوال فلا نوالا

وهي من جيد الشعر . الأغانى ١٨ : ١١٦ والحصرى ١ : ٣٧٧

وقال فيه أيضا (١) :

أف كل يوم أنت صبٌّ ولسلةٌ إلى أم بكر لا تُفِيْق فتُصِرُّ
أحب على الهجران أكاف بيتها فيا لك من بيت يحب ويهجر
إلى جعفر سارت بنا كل حرة طواها سَراها نحوهُ والتهجر
إلى واسع للمجتدين فناؤه تروح عطاياهُ عليهم وتبكر
وقال فيه (٢) :

لدولة جعفر حَمْد الزمان إِيابَكَ كُلَّ يومٍ مهرجان
جعلت هديتي لك فيه وشيا وخير الوش ما نسج اللسان
وقال العتّابي ، وكان في نفس الرشيد عليه موجدة واستعطفه جعفر عليه ،
فقال فيه (٣) :

ما زلت في غمرات الموت مَطْرَحاً قد ضاق عني فسيح الأرض من حيلي
لم تزل دائماً تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يَدَيَّ أَجَلِي
وقال فيه أُمّ شَيْع السُّلَمَى (٤) :

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
تلوذ الملوك بأبوابه إذا نابها الحَدَث الأفظع

(١) الأغاني ٥ : ١٥

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٧٧

(٣) الأغاني ١٢ : ٧

(٤) الأغاني ١٧ : ٢٤

وقال فيه (١) :

ذهبت مكارم جعفر وفعاله في الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس
فإذا تراوته الماك تراجعوا جهر الكلام بمنطق همس
ساد البرامك جعفر وهم الألى بعد الخلائف سادة الإنس
ماضر من قصد ابن يحيى راغبا بالسعد حل به أم النحس

إلى غير ذلك من الأشعار التي لو حاولت تقييدها في هذا الكتاب لبلغت أكثر من عشرة آلاف بيت من الأبيات الجيدة ليس فيها بيت سخيف بارد . وقد وجدت للرقاشي (٢) وحده ديوانا يحوى أكثر من ألف بيت في مديحهم ، وهى من البلاغة بحيث إن البرامكة (أعزهم الله) يروونها لأولادهم تفضيلا لها على شعر غيره من المحدثين .

الدولة فى خلافة الرشيد

نعود إلى ما نحن آخذون به من ذكر مملكة الرشيد وسياسته ، فقد سبق القول بأن دولته من أوسع دول الإسلام بل دول العالم رقعة مملكة ، فإنها تبسط من الهند وفرغانة فى الصين إلى طرف المغرب الأقصى من ناحية الرقاق ، كذلك كان امتدادها فى أيام أبيه فيما عدا البلدان التى غلب عليها الروم فى حروب متواترة قد استمرت بينه وبينهم على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء فى رفع السيوف عليهم منذ صدر الإسلام ، فإن الدولة الأموية قد حملت عليهم المرة بعد المرة وحملتهم

(١) الأغاني ١٧ : ٣٣

(٢) الأغاني ١٥ : ٣٥ ويظهر من كلام ابن الأثير ٦ : ٦٤ أن الرقاشي كان شاعر البرامكة .

خسائر عظيمة من الرجال والمال ، وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا إليهم الجيوش ولم يزل أبو جعفر في مغالبتهم حتى أذاقهم مرّة البلاء ، وكانوا مع ذلك لا يفترون عن الثورة ويأبون إلا نكث العهود ونقض العقود المبرمة ، فلما ولي المهدي أنخرج إليهم الرشيد^(١) وهو فتى بقيادة يحيى وزيرنا ، فركب في عدّة وأهبة لم يكن مثلها في الإسلام ، وتحركت في نفسه نحوه الجهاد حتى اتسم بسمّة المحاربين في الجيش ، وحمل الرمح في يده^(٢) . وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها ريني لم تطق مقاومتها ، فهزم جندوها وفرق المسلمون في البسائط^(٣) يعقون الآثار ويبيحون الذمار ولا يبقون على أحد من الروم ، حتى إذا نزل بجوار القسطنطينية ونصب على أسوارها المنجنيقات خافت عليها من الحريق فصالحته على كيليكية ، وحملت إليه الجزية التي كان يحملها أسلافها إلى الخلفاء ، وتلك أحسبها للروم من حيل السياسة في إخماد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين ، ففي نفسى أنه لو لم يتهاون الخلفاء في أمرهم ما بقي لهم ملك تجاه دول الإسلام العظيمة .

ثم إنه بعد أن ولي الرشيد وقع في نفوس الروم أن يتقاعدوا عن حمل الجزية إليه . فعبا لهم العساكر وشحنها في أسطول يسوقه حميد بن معيوب أمر الأساطيل بسواحل الشام^(٤) وسير الفرسان من ناحية البر يحرقون المدن ويثبون الخراب ، ففتحوا وغنموا^(٥) وأثخنوا وأوغلوا حتى انتهوا إلى جوار القسطنطينية وأطافوا بمعقل الروم وأخذوا عليهم مهاربهم ، فلما أدركت الملكة العجز عن دفاعهم ، ورأت الجند بين يديها وهوشيت ، صالحتهم على الجزية وراحت تحملها إلى بغداد وهي صاغرة إلى انتضاء ملكها بعد أن نال المسلمون غنائمهم أعظم النيل واستشعروا

(١) أبو الفداء ٣ : ١٠ والخميس ٢ : ٣٣١ وابن الأثير .

(٢) الأغاني ١٧ : ٤٨

(٣) ابن الأثير ٦ : ٧٠

(٤) أبو الفرج : وذكر إمارة الأساطيل بسواحل الشام ومصر أبو الفداء ٢ : ١٩

(٥) نزل حميد بن معيوب قبرص وسبي من أهلها سنة عشر ألفا ابن الأثير ٦ : ٧٠

من عزة الإسلام في غزوتهم تلك ما أفاضوا في التحدث به إلى هذا اليوم. والحمد لله الذي بنعمته تمّ الصالحات ، وتصدر رايات الإسلام راويات .

ولما هلك ربي نصب الروم عليهم تقفور وكان ملكا شديد البأس إلا أنه قليل الخبرة بأمور السياسة غير عارف بمكان الإسلام من الصولة والدولة ، بل كان يظن في المتمصرين من العرب فتورا في العزيمة وتشاغلا عن أمر الجهاد بما ركنوا إليه من دعة العمران. فكتب إلى الرشيد في منتصف هذه السنة كتابا بنقض الهدنة التي كانت بينه وبين ربي يقول فيه :

«من تقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب . أما بعد فإن الملكة التي كانت قبل كانت أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها أحمالا (١) ، وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيني وبينك » .

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى لم يحسر أحد أن ينظر إليه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر كتابه :

«بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه » (٢) .

ثم حشد الجنود ليومه ، وركب في صفوف المترجلين والفرسان ، وحمل القوات والأقوات استظهارا على نفوذ العزيمة ، ولم يزل حتى وافى مدينة هرقله (٣) ونصب عليها القتال ، وهي مدينة للروم لم يطمع أحد من ملوك الإسلام في الوصول إليها لخشونة مكانها ، فذك أسوارها بالمنجنيق ومنحه الله أكتاف الروم فنقلهم رقابهم وأموالهم وفي ذلك يقول الشاعر المكي (٤) :

هوت هرقله لما أن رأت عجبا حواما ترتقى بالنفط والنار
كأن نيراننا في جنب قلعته مصبغات على أرسان قصار

(١) في تاريخ أبي الفداء أنه قال حملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه إليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن إلى آخر الكتاب .

(٢) الأغاني ١٧ : ٤٥ والطبري وابن خلدون والسيوطي والمسعودي ١ : ١٥٨ وأبوالفداء ٣ : ١٨

(٣) أبو الفداء ٣ : ١٩

(٤) الأغاني ١٧ : ٤٧ والمسعودي .

وهذا كلام ضعيف لين ولكن قدره عظيم في ذلك الموضع والوقت (١) ،
ولم تقف هزيمتهم على هزيمة فقط بل كانوا يسمون كثيرا من المعقل والبلدان ،
فكان ذلك الفتح فتحا عظيما لا كفاء له . وهنأت الشعراء الرشيد قال أبو العتاهية
في ذلك (٢) :

قضى الله أن صفى لهرون ملكه وكان قضاء الله في الخلق مقضيا

تحببت الدنيا لهرون بالرضا وأصبح تقفور لهرون ذميا

فلما ضاقت بهم الحيل ولم يكن لهم بالمسلمين قبل رغبوا في المسالمة والمواعدة ،
وأوجبوا على نفوسهم إعطاء الجزية وهم صاغرون . ولست أقول إن هذا الفوز
كان سهلا على الرشيد فإنه قد طوح من الرجال وأنفق من الأموال ما هو حقيق
بأن ينظر فيه ، فإن الروم أهل بأس ومراس شديد ، وهو يقاسى (٣) معهم الحروب
الصعاب ، ولم يكن في شأنه معهم حيلة ولا سياسة ، وإنما هي حروب تواصلت
تباعا وأخذ بعضها برقاب بعض لما يروم من نفوذ السلطان حتى يركب عليهم
سيف الإسلام ، وإلا فإن الجزية التي يطمع فيها لا تنفى بالقليل من الأموال التي
تنفقها الدولة ، وهي بمكانها من الهجوم ومكان الروم من المدافعة في ظلال الأسوار ،
وفي ذلك تفاوت بعيد في خسائر القتال ، والذي يدل على قوة الإسلام أنه غزاهم
غزوات كثيرة ما أحقق في واحدة منها كما رأيت .

(١) الأغاني ١٧ : ٤٧

(٢) المسعودي ١ : ١٥٨

(٣) ذكر الأغاني ١ : ٣٨ أن الرشيد قال لآل صمعي عقب قدومه من بلاد الروم أنشدني أحسن
ما قيل في رجل لوجه السفر فأشده قول عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشى فيخسر
أخاسفر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

وفي العقد الفريد ٣ : ١٧٨ تكملة هذه الأبيات وهي قصيدة مشهورة يستحسن الطرفاء طريقة نظمها
لكن ربما وقع فيها محريف من الناسخين .

هذا كان شأن الرشيد مع صهْب السبال ، أما السياسة التي أتعبت خاطره فكانت منصرفة إلى إذلال العلويين في المغرب قبل أن تسود بهم الحال ، وتسود عندهم جموع الرجال . لأنه تعذر عليه محاربتهم مثل الروم لتجافى عظماء دولته من أهل الرأي والتدبير عن قتال المسلمين على غير فائدة إلا ضياع المال وضیعة الرجال ، ولذلك جعل الملك في إفريقية لآل ابن الأغلب حتى يقاوموا جندهم فلا يتمكنوا من إقامة مملكة تنهال من المغرب فتطمو على الشرق كله ، فكانه وقع بين أمرين مخوفين فاختر ما هو أقرب إلى النجاة بأن يملك الأغلبة المغرب حتى إذا قامت دولتهم رستت في مكانها ولم تتجاوز الرمال التي بين إفريقية ومصر .

على أن العلويين مع ذلك كله قد ملكوا البلاد إلى طرف المغرب ، ولم يأل ابن الأغلب في مناوأتهم جهدا وهو لا يبلغ الغاية التي يرومها من إذلال ملكهم وتضييع نفوذهم في المسلمين ، لأن جندهم مطيع لهم فيما استقروا فيه من تلك الأقاليم ، وكلهم صادق الحملة مدرب على القتال ولا سيما قبائل صنهاجة من بطون حمير^(١) ، وهم أمنع الناس ذمارا ، وأبعد الفرسان مغارا . وذلك أمر طيب مني النفس لا بغضا في آل العباس لأنني لا أريد بهم مكروها ، وإنما العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم الانتحاب الذين تعرف البطحاء وطائهم والبيت يعرفهم والحل والحرم^(٢) كما يقول الفرزدق الشاعر في مديحهم . فلعمري إنهم أحق من الأغلبة بهذا الملك الذي أراه اليوم يثبت في أيديهم إلى ما شاء الله من الزمان لاتجاههم إلى غاية واحدة وسياسة راشدة ، فقد عرفت أن تمزقهم فيما مضى إنما حصل بتفرق دعائهم على أغراض لم تجمع بينهم إلى الوحدة . وفيما تقدم من الكلام عن أبي جعفر ما يبين لك أنهم لو لم يفرقوا لظفروا . أما اليوم فإنهم مجتمعون إلى إدريس ابن إدريس وله دون غيره من أهل البيت «السلام عليك يا ابن رسول الله»^(٣) .

(١) ذكرهم ابن خلكان ١ : ١٢٢

(٢) الاغانى ١٤ : ٨٧ والالتىدى ٥٤ والشلبجى ١٧٠

(٣) ابن خرداذبة ٧٩

وإنما سار العلويون إلى المغرب وأقروا فيه مملكتهم بإيعاز البرامكة الأتجاد، وهم الآخذون بناصرهم والمتغرضون معهم^(١) والمقلدون الولايات لكثير من أهل الشيعة^(٢) إلا أنهم لا يتعمدون في ذلك ضرر الرشيد وهو المؤتمن لهم على مملكته، لأن المغرب فيما يرون إذا انسلخ عن بغداد لا يُحدث في الخلافة ضررا لعظم الممالك الإسلامية، وإنما يضر التجزؤ بالدول إذا كانت الدولة منحصرة في إقليم غير متسع إلى طرف العالم وكان في جوارها أمة ثانية متغلبة فإنها تسطو عليها شيئا فشيئا إلى أن تلتهمها جملة واحدة، كما رأينا في سير الأمم الماضية، أما الخلافة الإسلامية فإن الجهاد في الأعاجم يعمل على استمرار ملكها ووقايتها، ويعود عليها من استقلال بعض الملوك في أطرافها أنهم يمنعون عنها عدوها من قبل أن يصل إليها فتحفظ خزائنها من إنفاق المال، ورجالها من تغرير القتال. وتبيت في شؤونها آمنة بحراستهم. اللهم إلا أن يكون فيهم من هو أشد سلطانا، وأكثر جنودا وأعوانا، وهذا بعيد عن أن يكون في دولة متجزئة من الخلافة، ولو انضمت جميعا إلى قيادة واحدة ما ناوت الرشيد وانتزعت الخلافة منه وهو بموضعه من عظم الشأن وضخامة الملك، وله الهند والسند وأرمينية وكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان، فهذا معظم الدنيا المعمورة وأوفر بلادها ثروة وأطيبها تربة وغلّة، حتى لقد يُحبّى إليه من إقليم واحد من هذه الأقاليم كمصر مثلا ما لا يجبي إلى غيره من سائر أقاليم الأطراف.

فكان ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) يرون أن قيام الدولة العلوية في المغرب داع إلى صلاح الرشيد، وأنها تكون حجة للخلافة بما تجاهد لها في رد الأمم النصرانية.

(١) في تاريخ أبي الفداء ٢ : ١٢ أن الرشيد لما جهز الفضل بن يحيى إلى قتال يحيى بن عبد الله كتب إليه الفضل وبذل له الأمان وربما جعل الرشيد نفسه يحسن إليه ويكرم وفادته عليه وفي ذلك دليل واضح على محبة البرامكة لأهل البيت. وذكر ابن الأثير أن الفضل بن مهمل الملقب بذي الرياستين كان يشيع وأن البرامكة هم الذين اختاروه لخدمة المأمون ٦ : ٧٠.

(٢) المحاضرة ٢ : ٨

وكان جعفر يقول لى إنه اولم يكن للرشيـد فى هذه البلاد النائية إلا قضاة حاكون
كما كان للملوك بنى أمية فى الأندلس ما ظهروا على الفرنجة والـجند بين أيديهم قليل ،
ولو أنه أثمنهم لاستنفدوا ماله ، أو استنصـحهم لكانوا عليه لاله ، فيثبت بعد ذلك
أن حبه وآل بيته للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيـد والمصاحـة على جميع المسلمين ،
لأنه إذا قامت دولتهم فى المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الأندلس فى يد المسلمين^(١) .
وربما أعاد الله سبحانه على يدهم ما استعاده الفرنجة من البلدان التى فتحها طارق
ابن زياد والله يبيد أمما ويحيى أمما لا إله إلا هو ذو الملك والسـلطان .

عمران بيت المال

لم يبق علينا لبيان عظم دولة الرشيـد إلا أن نذكر قدر المال الذى يحمل إليه
من جميع الممالك والبلدان ، فإنه لم يسمع عن دخل دولة من دول الخلفاء أنه تجاوز
التـدر الذى يحمل إلى بيت المال فى زمانه ، مع أنه يسلك مع الملوك مسلك الحلم ،
ولا يضرب عليهم الخراج إلا على قدر ميسرتهم . وإن كان قد زال عنه القليل
مما يحمل إليه من المغرب فقد استعاض عنه بالكثير مما فرض على بلدان النصرانية
التي غلب عليها الروم من الأموال التي لا يصح أخذها^(٢) من المسلمين كـالخراج
والعشور التي تؤخذ على جميع غلاتهم^(٣) ، فقد بلغ المحمول إليه فى كل سنة نحو
من خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب ،
ما عدا الغلال والمصنوعات كما ستراه . فحمل الناس كثرة هذا المحمول على أن
يعوده بالوزن لا بالعدد ، فيقولوا إنه يبلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب^(٤) ،

(١) نذكر هنا أنه قامت فى المغرب بعد ذلك الوقت الدول العظيمة التي فتحت الفتوح وأعزت

الاسلام .

(٢) ابن جبير ٧٦

(٣) الزرقاوى .

(٤) مقدمة ابن خلدون .

إلا أن ذلك غلو وإفراط في تعظيم الشيء ، فمن المعروف أن القنطار إنما هو زنة ثلاثين ألف دينار . ويبعد أن يكون في العالم ألفا ألف دينار من الذهب ، ولو جاز وجودها ما صح أن تحمل كلها إلى بيت المال ولا يبقى منها شيء في أيدي الناس لمعاملاتهم . وتقديرهم هذا وإن كان بعيدا عن الصحة يدل على الكثرة وأن المال يحمل إلى بغداد بالصُّبْر^(١) لوفور الخير .

وعندى أن ما يحمل اليوم إلى بيت المال لم يكن يحمل نصفه إلى خزائن الأمويين ولا الخلفاء الأولين من بني العباس ، ولا يبعد أن عمالهم كانوا يحجزون من مال الجزية قدرا لا يحملونه إليهم لاختلاف تقدير الجزية على أهل الذمة بين ثمانية وأربعين درهما تؤخذ من ذوى اليسار وأربعة وعشرين من الصناع وأهل الحرف واثني عشر درهما من ذوى الفاقة والإعسار^(٢) : دون أن يكون في الدواوين عمل لذلك . ولما قام وزيرنا^(٣) ، أيدته الله بأعباء الدولة فرض على العمال ما هو مفروض على ناحيتهم من جزية ونحراج وغير ذلك حتى صار يقرر الدخل في السجل من قبل أن يحصل في يديه ، فلم يبق سبيل إلى نقص الأموال إلا فيما يؤخذ من المكوس على السلع وما يتصرف به العمال من نفقات^(٤) ولاياتهم وليس هو إلا القليل في جانب الكثير من دخل الدولة .

ولا يطرأ على تقدير هذه الأموال شيء من الزيادة والنقصان بتنقل البلاد من حال إلى حال . وربما غلبت عليها الزيادة لوفور الخير والعدل فقد كان حاصل السواد وهو أرض^(٥) ما بين الموصل وعبادان في الطول وما بين عذيب بالقادسية

(١) القزويني ١٠

(٢) المقرئ والمتطرف ١ : ١٣٨

(٣) هو جعفر بن يحيى البرمكي .

(٤) ذكره المقرئ ٣ : ٢٧

(٥) الماوردي ١٩٩

إلى حلوان في العرض عشرين ألف ألف درهم في زمن المجاج (١) لكثرة الظلم ، فلما ارتفع عنها الجور ساد فيها العمران (٢) حتى صار يحمل منها اليوم نحو ستين ألف ألف درهم . وكان حاصل فارس وأصبهان وكرمان في عهد الأمويين ثلاثين ألف ألف درهم فلما انتظمت فيها الأحكام وانتشر فيها العدل حمل منها البرامكة خمسة وأربعين ألف ألف درهم . وكذلك عهد الخلفاء بخراج مصر « بعد ما جباها عمرو ابن العاص في زمن الخيراتي عشر ألف ألف دينار » (٣) تدلّ إلى ألف ألف وتسعمائة ألف دينار ، وذلك لاختلال أمرها وسوء سياسة العمال فلما تولّاها البرامكة جباؤها للرشيء ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ، (٤) واستمرت على ذلك إلى هذا اليوم .

ويحمل إلى بغداد غير هذه الأموال المقررة والغلال الكافية لأرزاق الجند وعلف خيلهم قدر من المصنوعات والغلات التي تكون في البلدان ، فيحمل من السواد مائتا حلة من الحلل النجرانية ومائتان وأربعون رطلا من طين الختم الأحمر الذي يطبع به على طرف الرسائل السلطانية ، ويحمل من الأهواز ثلاثون ألف رطل من السكر ، ومن فارس ثلاثون ألف قارورة من ماء الورد ، ومن أصبهان عشرون ألف رطل من الزبيب الأسود . ومن مكران خمسمائة ثوب من المتاع ايماني وعشرون ألف رطل من التمر ومائة رطل من الكمون ، ومن السند مائة وخمسون رطلا من العود الهندي ومن سجستان عشرون ألف رطل من السكر وثلثمائة ثوب ، ومن خراسان ألفا ثقرة من تقار الفضة وأربعة آلاف برذون وألف رأس من الرقيق يتخذون خدما في دور الخلافة ، ويكون لأمرأى بنى هاشم وغيرهم من عطاء الدولة نصيب وأفر منهم ، وعشرون ألف ثوب من المتاع وثلاثون ألف رطل من الإهليج وألف وثلثمائة قطعة من صفائح الحديد ، ومن جرجان ألف شقة من الإبريسم . ومن قومس خمسمائة ثقرة من تقار الفضة . ومن طبرستان ونهاوند ستمائة

(١) المستطرف وابن خرداذبة ٣٦

(٢) المستطرف ١ : ١٢٥

(٣) القرينى ١ : ٩٨

قطعة من الفرش الطبرى ومائتا كسوة وخمسمائة ثوب وثلاثمائة ألف منديل وثلاثمائة جام . ومن الرى وقزوين عشرون ألف رطل من العسل ، ومن همذان ألف رطل من ربّ الرمان واثناعشر ألف رطل من التين ، ومن الموصل وما إليها وأعمال نينوى عشرون ألف رطل من العسل الأبيض . ومن الجزيرة وأعمال الفرات ألف رأس من الرقيق واثناعشر ألف زق من العسل وعشرة بزة مرباة لصيد الملوك وعشرون كسوة من الحرير للبيت الحرام ، ومن أرمينية قدر من البسط ومن قنسرين والهند ألف حمل من الزيت ، ومن جند فلسطين ودمشق قدر كبير من الفاكهة اليابسة وثلاثمائة ألف رطل من الزيت ، ومن إفريقية مائة وعشرون بساطا ، ومن اليمن شئ كثير من المتاع ، وكذلك من نجد وعمان واليامة والحجاز وكنكور وحلوان ومهران وشهرزور وأذربيجان ومصر وجند الأردن يحمل كثير من الحبوب والمصنوعات التى تصرف على الهند وتتفق فى مصالح الدولة ^(١) .

وهذا المال كله يتصرف فيه الخليفة دون أن يعارضه فيه أحد من أرباب الدولة إلا فيما يعرضه عليه البراءكة من دفاتر الدواوين للوازنة بين دخل الدولة ونخرجها . وقد تجمع كثيره فى بيت المال منذ صدر هذه الدولة حتى إن أبا جعفر (غفر الله له) لما أدركه الموت قال للهدى فى وصيته إنه خلف له من الأموال ما إن كسر عليه الخراج عشر سنين كفاه لأرزاق الهند ومصلحة البعوث وغير ذلك ^(٢) ولقد أخبرنى يحيى (أعزه الله) عن خالد أبيه وكان قائما على بيت ماله أنه بلغ ما خلف من المال أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم ^(٣) ، فلم يكن إلا هذا فى خزائن الرشيد ^(٤) لكفى دولته نفرا على دول الخلفاء ، وبهاء ليس مثله من بهاء . فأما الفخر فيكون لها من حيث المنعة لأنه مادام بيت مالها

(١) مأخوذ من مقدمة ابن خلدون ٢١٤ وتكاتب قدامة ورسالة ابن خرداذبة .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٧

(٣) المسعودى ٢ : ١٩٤

(٤) ذكر ابن الأثير ٦ : ٧٦ أنه كان فى بيت المال لما توفى الرشيد ستمائة ألف ألف ونيف .

عامرا فلا تزال ممتعة على العدو ، وأما البهاء فيأتيها من المال وإنفاقه في الوجوه التي ترفع الدولة وفيما يدعو الملوك المترفين الذين يتوسعون في نعيم العيش إلى تزيين دولهم برواج الأدب كما رأينا من إقبال الرشيد على تقريب العلماء إليه وانتفاعه بعلومهم في دينه ودنياه .

مجلس الغناء بدار الرشيد

كان الرشيد يتخذ للعلماء والندماء والشعراء مجالس مناظرة وعرض أدب وصناعة كما كان يصنع أبوه (رحمه الله) ثم يميزهم على موضعهم من العلم بما لا ديكاً يحصى من الجوائز ، وإن الذي كنت أرتاح إلى شهوده من المجالس بداره إذا حضر وقته هو مجلس الغناء ، على أنى لم أره في السنين الماضية أحفل منه في هذه السنة ، وكان الرشيد قد نشط له وقام بلبسته التي يلبسها في الصيف ، وهي غلالة ^(١) رقيقة يتوشع عليها بazar رشيدى عريض العلم مخرج ، وكان بين يديه جامات ذهب فيها دنائير ^(٢) يميز بها من يطيب منه المسموع وتصلح عنده الصنعة ، ومن حوله جماعة من بنى هاشم والفضل وجعفر من البرامكة (أعزهم الله) ، وهما جالسان بجانبه على سرير الخلافة .

ولما اجتمع المغنون جلسوا في صفوفهم بناحتين من المجلس للمناظرة ^(٣) بينهم في الغناء . فمنهم المتعصبون للغناء القديم وهم جماعة إسحق النديم ، ومنهم المقصرون عن أدائه والمغيرون له وهم جماعة إبراهيم بن المهدي . وكان سبب هذا النزاع بين إبراهيم وإسحق أن إبراهيم تغنى بلحن قديم أضاع صناعته فرد عليه إسحق وعاب عليه تغنييه فقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا في ذلك فانضم إلى غرض إبراهيم إسماعيل بن جامع وقليح بن العوراء ويحيى المكي وعمرو

(١) ذكرها الأغاني ٥ : ٣٣

(٢) الأغاني ٩ : ٥٨

(٣) ذكر هذه المناظرة الأغاني ٥ : ٢٦ بين الموصلي وابن جامع .

ابن بانة وشارية وزيق وبنو حمدون وحسين بن محرز والهذلي وغيرهم ، وبقى مع الموصلي المترفعون عن الأغراض والآخذون بحاسن الغناء من حيث طرائق الصناعة مثل مُحَارِق وعُلُويّة وعَرِيب وبَذل وسُليم بن سلام وزير بن دَحْمَان وأحمد بن يحيى المكي ومحمد بن حمزة بن الوصيف وغيرهم ^(١) وكان قوم إبراهيم بن المهدي قبل وزارة جعفر (رفع الله قدره) أكثر عددا من حزب إسحاق ، لأنهم كانوا يتقربون بكفالاته إلى الرشيد فلما أخذ البرامكة بناصر إسحاق وجهروا بتفضيله رجع إلى غرضه كثير من المجيدين ، ولم يزل المغنون في أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ويحملونه كما يسمعون ، فلم يكن من مفسد له إلا الذين تقدمت أسماؤهم وجماعة من أولاد العباسيين مثل إبراهيم وأخيه يعقوب وأختها عُلَيّة وعبد الله بن الهادي وعيسى بن الرشيد وغيرهم ^(٢) ممن يترفعون عن أن يقيد غناؤهم بالمحفوظ من أصوات المتقدمين وإن كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة . فهذا إبراهيم ليس في الناس أعلم منه بالنغم والوتر والايقاعات ولا أطبع على الغناء . ولقد رأيتُه إذا غنى يجلس الرشيد قُرْب كل من في دور الخلافة من أقرب موضع يمكنهم أن يسمعوه فيه لحسن صوته ، وقليل ما كانوا يسمعون إذ كان لا يغني إلا على حال تصوي عن الغناء وترفع إلا أن يدعوه إليه الرشيد في خلوة أو إذا كان عنده جعفر فيقول له أحب أن تشرف جعفر ^(٣)

(١) من كتاب الأغاني .

(٢) انظر أخبار من غنى من أولاد الخلفاء في الكتاب التاسع من الأغاني .

(٣) كذا في كتاب الأغاني وربما قال الخليفة هذه الكلمات تحبباً لأخيه وهي « لا تنقص من قدر جعفر شيئا » فقد ذكر صاحب العقد ١ : ١٠٠ أن منزله كانت عظيمة حتى إذا دعا إبراهيم بن المهدي لجعفر قال له إبراهيم جعلني الله فداك إنما أسعد بمساعدتك وآس بخالاتك وأعاد القصة نفسها في الكتاب الثالث صفحة ٣٤ وذكر في الكتاب الأول صفحة ١٦٧ أنه لما زار جعفر سليمان صاحب بيت الحكومة قبل سليمان يده وقال له بأبي أنت ما دعاك إلى أن تحمل عبدك هذه المنة التي لا أقوم بشكرها ولا أقدر أن أكافئ عليها . وذكر صاحب مروج الذهب ٢ : ٢٢٧ عن مسارة الرشيد لجعفر أنه كان إذا انصرف من مجلسه خرج الرشيد حتى يركب مشيعا له .

بأن تغنيه صوتا فيغنى . ولقد كنت ذات يوم في خدمة أميرنا (أعزّه الله) فغنى إبراهيم على أبيات لمروان بن أبي حفصة يقول فيها ^(١) :

طرفتكَ زائرة ففى خيالها زهراء تخاطب بالجمال دلالها
هل تطمسون من السماء نجومها بأ كفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها

فلما بلغ قوله « جبريل بلغها النبي فقالها » هنز حلقه فيه ورجعه ترجيعا
زُلزلت الأرض منه ، فما أظن أحدا يقدر على أداء الأصوات مثله إلا إسحق
المخالف له على هواه والمقرب بما له من جميل الصناعة لولا أنه أفسد الغناء القديم وجعل
للناس طريقا إلى الجسارة على تغييره .

وأول من غنى في ذلك اليوم إبراهيم أبو اسحق وكان ذلك بإشارة مسرور العبد
إذ كان أمر المغنين مفوضا إليه ^(٢) ، وإذا أحب الرشيد أن يسمع صوتا ^(٣)
أشار إليه فأشار هو إلى المغنين فغنى إبراهيم :

ولى كبد مقروحة من يدينى بها كبد ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح
والحن فيه ماخورى ^(٤) لا يعرفه أحد مثله . ثم غنى على أبيات قالها
في بعض قرى الرى :

أنا فى الرى مقيم فى قرى الرى أهيم
ربما نهنى الاخ سوان والليل بهيم
حين غارت وتدلت فى مهاويها النجوم
للى تعصر لما أينعت منها الكروم

(١) الأغاني ٩ : ٧٢ والاعتلى ٢٨٧

(٢) الأغاني ٦ : ٧٤ والمسعودى ٢ : ٢١٩

(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٤٢

(٤) الأغاني ٥ : ٣٦

ولحنها من الثقيل الأول باطلاق الوتر في مجرى البنصر ^(١) ثم غنى :
ألا يا مسلمى يادار مى على اليلى ولا زال منها بجوعائك القطر

الشعر لذى الرمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثانى ^(٢) . ثم غنى :
وقفت على ريع لمية ناقتى فمازلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبته تكلمنى أحجاره وملاعبه

الشعر لذى الرمة أيضا والغناء ثانى ثقيل مطلق فى مجرى البنصر ^(٣) ، فأجاد
إبراهيم حتى كأن كل مافى المجلس يحميه ويردد الصوت معه لحسن غنائه ، فطرب
الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ولا سيما من اللحنين اللذين سمعهما فى شعر ذى الرمة
لأنه كان يحفظ أبياته كلها فى صباه ، فكان إذا غنى فيها صوت أعجبه أكثر من
جميع الأصوات التى يصنعها المغنون فيها لا يحفظه من الشعر ، ففطن إبراهيم لذلك
وطاب إليه أن يقطعه شعر ذى الرمة ويحفظه على غيره من المغنين أن يداخلوه فيه
فأجابه إلى ذلك فأصاب إبراهيم عليه من الجوائز ما يتجاوز التقدير ^(٤) .

ثم أشار مسرور إلى إسماعيل بن جامع القرشى وهو من المتعصبين على
إسحق فغنى :

لم تمش ميلا ولم تركب على قتب ولم تر الشمس إلا دونها الكليل
تمشى الهوى بنى كأن الريح ترجعها مشى اليعافير فى جيئاتها الوهل

الشعر للأعشى ^(٥) والغناء الأول لابن سريج بلحن الرمل بالبنصر ^(٦) ثم غنى
بلحن خفيف الثقيل الأول بالوسطى ^(٧) على أبيات عمر بن أبى ربيعة :

(١) الأغانى ١ : ٢

(٢) الأغانى ٥ : ٣٩

(٣) الأغانى ١٦ : ١١٦

(٤) الأغانى فى الجزء الخامس .

(٥) العقد الفريد ٣ : ١٧٣

(٦) الأغانى ٦ : ٨٢

(٧) الأغانى ٦ : ٨٢

كان أحور من غزلان ذى بقر أعارها شَبَّ العيينين والجيدا
أجرى على موعد منها فتخلفنى فما أملّ ولا توفى المواعيدا
كاننى حين أمسى لا تكلمنى ذو بغية يتبغى ما ليس موجودا
ثم غنى بلحن الهزج بالوسطى^(١) على هذين البيتين :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذلك لأن النوم يغشى عيونهم سراحا وما يغشى لنا النوم أعينا

فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب^(٢) ممن يحب الخلعة في الأصوات ،
فهو يميل إلى ظُرف الغناء والنغم الكثير العمل^(٣) كما يميل إلى ظُرف المعاشرة
والافتنان في خلعة الملبس^(٤) .

ثم أشار صاحب الستارة إلى إسحق بن إبراهيم صاحب هذا الفن بغناء غلام
من غلمان الدار يعود هندى^(٥) كان مودعا له في خزانة المجلس^(٦) قد أصابحت
أوتاره قبل ذلك الوقت ، لأن العيدان لا تصلح في مجالس الملوك^(٧) ، فضرب
عليه نغمات صاح لأجلها القوم جميعا ثم غنى :

قل لمن صدعائبنا ونأى عنك جانب
قد بلغت الذى أردت وإن كنت لاعيبا

(١) الأغاني ٦ : ٧٧ و ٨٢

(٢) المستطرف ٣ : ١٨٨ والأغاني ٤ : ٩٨ و ٦٥ : ٦٥

(٣) ذكر ابن جامع هذا صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٣٩ وقال إنه أحلى المغنين نغمة .

(٤) الأغاني ٦ : ٩٦

(٥) ذكر العود الهندي الاطليدى ١٣٠

(٦) الأغاني ٥ : ١٠٩

(٧) الأغاني ٥ : ٥٨

الشعر والغناء له ولحنه من النقيض الثاني بالسبابة في مجرى الوسطى (١) ، ثم غنى بلحن وضعه معبد في أبيات لأبي صخر الهذلي (٢) . وهى :

عجبت لسعى الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويأسلوة الأيام موعذك الحشر
ولمى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بالله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فطرب الرشيد وقال له زدنا يا أبا صفوان من غنائك ، وأبو صفوان كنية يلقب بها عند التحجب (٣) ، فغنى بهذين البيتين :

الطلول الدوارس فارقتها الأوانس
أوحشت بعد أهلها فهى قفر بسابس

غناء لم أجد أحسن منه موقعاً في القلوب ، وكنت في ذلك الوقت جالسا بمقربة من أبيه فقال " لو لم يكن من بدائع إسحق غير هذا لكفى . « الطلول الدوارس » كلمتان و « فارقتها الأوانس » كلمتان أيضاً وقد غنى فيهما استهلالاً وصاح وسمع ورجع النعمة واستوفى ذلك كله في أربع كلمات وأتى بالباقى مثله . فمن شاء فليفعل مثل هذا أو ليقاربه " . ثم قال " والله ما فى زماننا فوق ابن سريج والغريص ومعبد ، ولو عاشوا حتى رأوه لعرفوا فضله واعترفوا له " (٤) والغناء

(١) الأغاني ٥ : ٧٥ و ١٢٦ و ٩ : ٥٤ و ٥٧ والشرى ١ : ٣١٢

(٢) الأغاني ٥ : ١٦ والوطواط ٩٠ والالتهدى ١٤٣

(٣) الأغاني ٥ : ٥٢

(٤) الأغاني ٥ : ٨٧ و ١٢٨

لاستحق خفيف بالينصر . ثم وجد في نفس الرشيد إقبالا عليه وطربا من صناعته
فغنى لحنا صنعه في شعر للنخل اليشكري بقوله في بعض بنات المملوك المناذرة (١) :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير
فدفعتها فتدافعت مشى القطة إلى الغدير
فلثمتها فتتنفست كتتنفس الظبي الغدير

فأجاد في الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد وقد كاد يخرج من ثيابه لشدة
الطرب « والله ما الغناء الذي يكن العريكة ويُفسح في الرأي والصدر ويُحدث
في النفس طربا إلا غناء هذا الرجل » :

ثم أشير إلى فليح بن أبي العوراء فغنى على لحن صنعه في بيتين لعدي بن الرقاع
العامل (٢) :

وكانها بين النساء أعارها عينيه أحور من جاذر جاسم
ومنان أقعده النعاس فرنقت في عينه سِنَّة وليس بنائم

ثم أتبعه بلحن من الثقيل الأول باطلاق الوتر في مجرى الينصر صنعه (٣)
في بيتين للأومل من شعراء الدولة الأموية :

ألا يا ظيعة البلد براني طول ذا الكد
فردي يا معذبتي فؤادي أوحذي جسدي (٤)

(١) الأغاني ٩ : ١٦٦ و ١٨ : ١٥٢

(٢) المستطرف والشرطي ٣ : ٢٨٠

(٣) الأغاني ١٩ : ١٤٧

(٤) في قول الشيخ ابن الفارض :

أخذتم فؤادي وهو بعضي فالذي يضركم لو كان عندكم الكل

النفات إلى هذا البيت .

وهو يعارض فيه اللحن الذي صنعه أبو إسحق فأجاد ولكنه قصر عن أن ينحو نحو صناعة الموصلي ، وإن كان قد مضى في بعض كتب السالفة ما يشهد لموضعه الجليل من هذه الصناعة^(١) ، إلا أنه قد وجد اليوم من برعه وبرع الناس كلهم^(٢) في طيب المسموع ومحاسن الصنعة .

ثم أشير إلى مخارق^(٣) من حزب إسحق ، وهو طيب الصوت يعد هو وإبراهيم ابن المهدي وابن جامع وعمر بن أبي الكنات من أحسن الناس صوتا^(٤) فغنى بصوت رخيم :

يا ربع سلمى لقد هيجت لي طربا زدت الفؤاد على علاته وصبا
فكنت أحسب أن الدنيا قد صارت أحرانا^(٥) لما ألم في غنائه من إبراز معنى البيت وما وراءه من توجع العاشقين ، ثم غنى :

إني استحييتك أن أفوه بحاجتي فإذا قرأت صحيفتي فتفهمني^(٦)
وعليك عهد الله إن أخبرته أحدا وإن أظهرته يتكلم

الشعر لابن هرمة والغناء لعبادل من مغنى الجحاز ، ثم غنى :

فبت فيما شئت من نعمة يمنحنيها نحرها والقسم
حتى إذا الصبح بدا ضوءه وغارت الجوزاء والمُرزم
خرجت والوط خفي كما ينساب من مكنه الأرقم

الشعر لاسماعيل بن يسار والغناء له بلحن الرمل^(٧) .

(١) ذكر مثل هذا الأغاني ٤ : ٩٨ ، ٩٩

(٢) الأغاني : وابن خلكان والاثليدي وحلة الكيت .

(٣) ضبطه ابن خلكان ١ : ١١ بضم الميم .

(٤) الأغاني ٩ : ٣٥

(٥) الأغاني ٢ : ١٨٩

(٦) الشعر المذكور في الحصري ٢ : ١٨٣

(٧) الأغاني ٤ : ١٢٣

ثم غنى يحيى المكي بلحن صنعه في بيتين لمحمد بن أمية من كتاب إبراهيم
ابن المهدي (١) :

أحبك حبا لو يفيض يسيره على الناس مات الناس من شدة الحب
وأعلم أنى بعد ذلك مقصر لأنك في أعلى المراتب من قلبي

ثم غنى بلحن خفيف الرمل (٢) :

طرقك زينب والمزار بعيد بنى ونحن معرسون هجود
فكانما طرقك برياً روضة أنف تسحیح من نهج وتجود

فكان لحنه كثير العمل حلو النغم صحيح القسمة محكم الصنعة ولولا ذلك ما أطرب
الناس غناؤه وهو شيخ مسن :

ثم غنى سليم بن سلام من جماعة إسحاق (٣) :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجمل
اغرك منى أن حبك قاتل وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ثم غنى (٤) :

أتيتك عائدا بك منك لما ضاقت الحيل
وصيرنى هواك وبى لحنى يضرب المثل
فان سلمت لكم نفسى فما لا قيته جال
وإن قتل الهوى رجلا فانى ذلك الرجل

(١) الأغاني ١١ : ٢٤

(٢) الأغاني ٦ : ٢١

(٣) ذكر المسعودي ٢ : ٢٩٦ غناء بهذين البيتين .

(٤) الأغاني ١٨ : ٨٣

الشعر لمحمد بن أبي محمد اليزيدي ويكنى أبا عبد الله ، والغناء له ثقیل أول
بالبنصر إلى أن قال :

وقفت على ريع لسمي وعبرني تَرَقُّقٌ في العَيْنين ثم تسيل
أسائل ربعا قد تعفت رسومه عليه لأصناف الرياح ذيول
واللحن له هزج خفيف بالسبابة ^(١) فطرب الرشيد وقال لو كنت حَمَمًا الوادي
ما زدت على هذا الاحسان في هزجك ^(٢) .

ثم غنى حسين بن محرز بلحن صنعه يحيى ^(٣) المقدم ذكره في هذين البيتين :
هل هيجتك مغاني الحى والدور فاشتقت إن الغريب الدار معذور
وهل يحل بنا إذ عيشنا أُنُقُ بيض أوانس أمثال الدُمى حور
ثم غنى :

نمى دسسن إلى في لطف حُورُ العيون نواعم زُهر
فطرقتهن مع الجرى وقد نام الرقيب وحلق النسر

الشعر للأحوص والغناء لمعبد رمل بالسبابة في مجرى البنصر ^(٤) ، فأجاد لكنه
لم تظهر له صناعة يسمونها إلى مقامات المتقدمين في الغناء ، وكذلك جميع من غنى
بعده في ذلك اليوم إلا الزير بن دحمان فاني وجدت لغنائه موقعا حسنا في النفوس
وكنيت أرى الرشيد يتمايل طربا من غنائه إذ غناه :

رضيت الهوى إذ حل بي متخيرا نديما وما غیری له من ينادمه
أعاطيه كأس الصبر بيني وبينه يقاسمניה مرة وأقاسمه

(١) الأغاني ٦ : ١٢

(٢) الأغاني ٦ : ١٣

(٣) الأغاني ٦ : ١٩

(٤) الأغاني ١٦ : ٩٢

الشعر لبشار بن برد والغناء له هزج بالوسطى ^(١) ثم غنى :

أسرى بطارقة الخيال وما أرى شيئا ألد من الخيال الطارق ^(٢)
أهواك فوق هوى النفوس ولم يزل مذ بنيت قلبي كالجناح الخافق ^(٣)

الشعر لحرير والغناء لابن عائشة رمل بالوسطى ثم غنى :

حييا خَوَلَة منى بالسلام درة البحر ومصباح الظلام
لا يكن وعدك برقاً خُلِبَا كاذباً يلعب في عرض الغمام
واذكري الوعد الذي واعدتنا ليلة النصف من الشهر الحرام

الشعر لأعشى همدان والغناء لأحمد النصيبى ولحنه من القدر الأوسط من
الثقل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البصر وعروضه من الرمل ^(٤) فأجاد فى هذا
الصوت الإجادة التامة حتى ليس فى المغنين من يقاربه بلحن الثقل .

ثم تعاقب المغنون على طرح الأصوات فى نوباتهم فلم أستحسن منها إلا صوتا
لعبير صنعته فى بيتين لابن الدمينية ^(٥) :

وأذكر أيام الحمى ثم أنتنى على كبدى من خشية ان تصدعا
ولست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا ^(٦)

(١) الأغاني ١٧ : ٧٣

(٢) العقد الفريد ٣ : ٢٣٦

(٣) الأغاني ٩ : ٥٠

(٤) الأغاني ٥ : ١٤٦

(٥) الأغاني .

(٦) العقد الفريد ٣ : ٢٤٠

ولحنا واحدا صنعه في شعر وضاح التين :

إن الوشاة إذا اتوا لك تنصيحوا ونهوك عن
إني تبيجني إليك حمامتان على فن
فاسقي خليلك من شرا ب لم يكدره للدرن
الريح ربح سفرجل والطعم طعم سلاف دن

حتى إذا ظن في نفسه اقتدارا على الصناعة وأراد أن يعارض إسحق بالحن
الذي صنعه في شعر العباس بن الأحنف وهو :

لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لسانى
كنت مثل الحجاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

سقط في يده وقصر دون بلوغ المرام . وكان في جملة المغنين رجل أعمى يقال
له أبو زكار وهو شديد التعصب للغناء القديم وكان آخر من غنى في ذلك اليوم بدأ
بلحن صنعه في هذا البيت :

يا راكب العيس التي وفدت إلى البلد الحرام
وثني بأخر لآبراهيم الموصلى صنعه في بيتين لعمر بن أبي ربيعة ^(١) وهما
قوله :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفقت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فلم تظهر له بهما صناعة إلى أن نفى هذه الأبيات :

با أيها القلب المطيع الهوى أنى اعتراك الطرب النازح
تذكر جملا فاذا ما نأت طار شعاعا قلبك الطامح

(١) الأغاني ٦ : ١٥٠ وذكر ابن خلدون في المقدمة أنه غنى الرشيد بهذين البيتين ليوفر صدره
على البرامكة . وقد أترك ذلك ١٥

هَلَّا تَنَاهَيْتِ وَكُنْتِ امْرَأً يَزْجُرُكَ الْمُرْشِدُ وَالنَّاصِحُ
مَا لَكَ لَا تَتْرَكِ جَهْلَ الصَّبَا وَقَدْ عَلَاكَ الشَّمَطُ الْوَاضِعُ
وَلَحْنَهَا ثَانِي ثَقِيلٌ بِالسَّبَابَةِ فِي مَجْرَى الْوَسْطَى ^(١) فَأَحْسَنَ كُلَّ الْإِحْسَانِ
فِي تَأْدِيَةِ النِّعَمِ كَأَنَّهُ لَا تَظْهَرُ صِنَاعَتُهُ إِلَّا بَغْنَاءٌ مَا فِي مَعْنَاهُ زَجْرٌ وَتَذَكِيرٌ مِنَ
الْأَبْيَاتِ ^(٢) .

وَمَا تَوَلَّى النَّهَارَ أَوْ مَا الرِّشِيدَ إِلَى الْمَغْنِينَ بَأَن يَحْلُوَ صَفْوَتَهُمْ ، ثُمَّ فَرَقَ فِيهِمْ
الْجَوَائِزَ بِقَدْرِ أَهْلِيَّتِهِمْ مِنَ الصَّنَاعَةِ ، فَمِنْ مُصِيبِ أَلْفِ دِينَارٍ وَمِنْ مُصِيبِ خَمْسِمِائَةٍ ،
وَمِنْ مُصِيبِ دُونَ ذَلِكَ . ثُمَّ فَرَقَ فِيهِمْ يَتَخَلَّلُ الْغِنَاءُ بِضَرْبِ الْمَعَازِفِ دُونَ مَا فَرَقَهُ
عَلَى الْمَغْنِينَ مِنَ الْمَالِ ، فَأَصَابَ الْجَوَائِزَ السَّنِيَّةُ أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مَنْصُورٌ زَلْزَلٌ ^(٣)
وَكَانَ يَضْرِبُ عَلَى عُودٍ مِنَ الْعِيدَانِ الَّتِي صَنَعَهَا مَعَارِضُهُ لِعِيدَانِ الْفَرَسِ وَهِيَ عَجَبٌ
مِنَ الْعَجَبِ ^(٤) ، وَكَانَ تَزْلُزُ الْمَجَالِسَ بِحَسَنِ نِغْمَتِهَا ^(٥) ، وَبِرُصُومِ الزَّامِرِ ^(٦) وَهُوَ
أَحْسَنُ النَّاسِ زَمَرًا بَنَائِي ، كَانَ إِذَا زَمَرَ فِيهِ يَحْدُثُ النِّغْمُ الَّذِي يَرِيدُهُ مَعَ صِحَّةِ
الْمُقَاتِيعِ وَالتَّقْسِيَمَاتِ حَتَّى كَأَنَّهُ يَنْطِقُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِلِسَانِ آدَمَى . وَجَعَلَ الطُّبَالَ وَهُوَ

(١) الْأَغَانِي وَلَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ لَأَنِّي ذَكَرْتُ صِنَاعَةَ بَهَا .

(٢) إِنَّمَا سَبَّحْتُ لَأَنِّي ذَكَرْتُ صِنَاعَةَ النِّغْمِ الْحَزْنَ لَأَنِّي طَالَمَا ذَكَرْتُ الْيَتِيمِينَ الَّذِينَ غَنَى بِهِمَا جَعْفَرًا قَبْلَ
أَن يَتَكَبَّرَ الرِّشِيدُ وَهَذَا قَوْلُهُ :

فَلَا تَعْدُ فِكْلٌ فَتَى سِبَاقِي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يَغَادِي
وَكُلُّ ذَخِيرَةٍ لَا يَدُ يَوْمًا وَلَئِنْ كَرَّمْتَ تَصِيرَ إِلَى نِفَادٍ

فَلَمْ تَمَثَلْ لِي صِنَاعَتُهُ إِلَّا بِمَثَلِ مَا ذَكَرْتَهُ لَكَ بِلِسَانِ الرِّوَايَةِ .

(٣) ذَكَرَ صَاحِبُ الْعَقْدِ ٣ : ٢٣٩ أَنَّهُ مَعْنَى مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَلَكِنَّهُ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّهُ كَانَ

أَضْرَبَ النَّاسَ لِلْوَرِّ .

(٤) الْأَغَانِي ٥ : ٢٤

(٥) ابْنُ خُلِكَانٍ ١ : ١١

(٦) ذَكَرَهُ الْأَغَانِي ٦ : ١٢ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَالْعَقْدُ الْفَرِيدُ ٣ : ٢٥٩ وَقَالَ إِنَّهُ كَانَ مَغْنِيًا .

يحسن التوقيع على الطبل (١) وكان يضرب بالكوبة (٢) في ذلك اليوم ، ورابعهم الغريض وهو مشهور بضرب العود والتوقيع بالقضيب والتقر على الدف (٣) . ولما انصرف المغنون لم يبق في مجلس الخليفة إلا إسحق النديم وجعفر والفضل من البرامكة وقد طلع علينا من هواء دجلة في ذلك الوقت نسيم طابت النفوس به انتعاشا بعد هاجرة أصابنا بالنهار حرها ، حتى إذا رفعت أستار الطيقان التي تطل على حدائق القصر وقعت في موضعنا شمس الغروب وهي ترسل علينا شعاعا متناثرا كالذهب يهتر في نواحي المجلس كاهتزاز الغصن الرطيب تحت خطرات النسيم حتى كأن القصر يرقص بنا سرورا بأهله وعزرة مقامهم الرفيع .

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو إلا المحفوظ في ذهني من غنائهم مجردا عن بيان طرائقهم في الأصوات وصناعاتهم في وضع النغمات ، لأنني لو أخذت في ذلك ما وعته الصحف الكثيرة الواسعة (٤) . وقد وقع تدوين هذه الرسالة في غرة المحرم من السنة الخامسة والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية .

(١) الأغاني ١٤ : ٥٤

(٢) ذكرها القناوى ٢١

(٣) الأغاني ٢ : ١٢٩

(٤) راجع كتاب الأغاني إن شئت فيها مطولا

الرسالة السابعة

في ذكر آداب العرب

هذه رسالة إليك أفردتها لذكر آداب العرب وعلومهم ، فقد طالما شهدت مجالسهم بدار الرشيد في محاوره فقهاء ، وحلق علماء ، ومنادمة أدباء . ومناظرة جدليين ، ومراواة رواة ، ونوب مغنين^(١) . وذلك من الخطوط التي لا يتفق مثلها لغيري من المتصلين بالملوك ، لأنني كنت أقرب الناس مكانا إلى الرشيد تحت ظل البرامكة ، وكنت من الخطوة لديه بحيث إذا جلست إلى منادمته عدل عن جلال موضعه من الخلافة ورجع إلى محاسن المنادمة من إطلاق النفس على صفاء الإخوان ، فكان يعمد إلى مخدة^(٢) يجعلها تحت فخذه ويمكن منها جلوسه ثم يقول لهم بمحدثك^(٣) ، وهذا غاية ما يكون من الملوك إذا طابت نفوسهم بمنادمة الجلساء . وكنت إذا انفردت يجلسه دون أحد من المقرئين إليه أخرج جواريه على غير ستارة فيجلسن مكالات بالأزهار^(٤) مزينات باللؤلؤ والزبرجد^(٥) وأخر أنواع الجوهر فيغنين ويضربن بالملاهي إلى هذء من الليل ، فإذا أتاه من الحرم^(٦)

(١) واحدا نوبة وقد ذكرها الأغاني ٣٠ : ٦٤ بمعنى الاسم من المناوبة والناس اليوم يطلقون

اسم النوبة على ضرب المازف وآلات الطرب .

(٢) الأغاني ٥ : ١٢٢

(٣) الاثليدي ١١١

(٤) الأغاني ٧ : ٣٦

(٥) الأغاني ٤ : ٦٢

(٦) المسعودي ٣ : ٥٦

التفاح (١) المنقوش المطيب (٢) وغيره من الفاكهة وأنواع الحلوى عزم على أن
أجلس إلى طعامه (٣) ، وكان يحب أن أحدثه عن علوم الفرس وصنائعهم لما
طبع الله فيه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الوقوف على أخبار الماضين من
الأمم ، ولذلك كانت دولته تزداد خيرا وصلاحا ، وينعم فيها العلم وروحا واسترواحا .
حتى إذا أقبل إليه العلماء من جميع الوجوه يستمطرون غيث نداءه حقق لهم جميل
أملهم فيه ، وبسط يده لإقطاعهم الضياع العامرة ، وصلتهم بالهبات الوافرة .

وكانت همة الرشيد مصروفة إلى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم ،
بعد أن رأى جعفر وزيره يتنازع من صحفهم ما يأمر الترجمة بتعريبه (٤) ثم يعطيهم
زنة الكتاب المعرب ذهباً ، لأن سوق العلم نافقة عند البرامكة (٥) (أعزهم الله)
وهم الذين استهزؤا هم العلماء إلى تعريب صحف الأعاجم ، وأشاروا بعمل
الكاغد لنسخ أسفارهم ، وودعوا الرقوق التي تستعمل في الصكوك ورسائل
السلطان لا تكفيهم في تدوين مصنفاتهم ومعارفاتهم فأروا من عمل الكاغد (٦)
ذريعة إلى نشر العلم الذي عنوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلا إلى انتفاع الأمة
به إلا سلكوه ، وقد أعقبتهم هذا المسلك فخرا تتناقله الألسنة عنهم بطيب الأحداث
ففسدهم الرشيد على ذلك ، وفي نفسه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الاطلاع
على كنوز الحكمة ما قد رأيت في كتبي السالفة إليك ، فأنفذ رسله في إحراز
الأسفار القديمة ، وكتب بأشخاص الترجمة الذين يحسنون العربية من الروم وغيرهم

(١) وجدت في بعض الكتب أن الرشيد كان يحب التفاح ويقول هو أحسن الفاكهة لأنه اجتمع
فيه بياض القضة ولون التبر ويلذ به من الحواس العين بهجته والأنف بريحه والفم بطعمه . العقد الفريد
٣٧٥ : ٣

(٢) الأغاني ١١ : ٣٥

(٣) العقد الفريد ٣ : ٣٠٠ والقناوى ٣٦

(٤) ابن خلكان ١ : ٢٣٦

(٥) الفخرى ٢٣٥ وابن عبد ربه .

(٦) لمقدمة ٣٦٨

من أمم النصرانية ، وتقدم إليهم بتعريبها إلى اللغة السهلة التي تفهمهما العامة وترضى بها الخاصة .

فلما تناول العرب هذه الأسفار مهرؤا في استخراجها ووقفوا على أغراض الحكماء منها ^(١) ، فرقوا من الأدب المقام الذي لم ترقه أمة قبلهم في المشرق . وهذا من الأمور التي تدل على ذكاء العرب ^(٢) ونبل الهمة عندهم وأنهم يبلغون الغاية التي يرومونها من جميع المطالب في برهة يسيرة من الزمان ، فإنا لانجسد في أخبار الأمم السالفة من حاز من أطراف الدنيا مثل ما حازه المسلمون في مثل المدة التي وقعت فيها الفتوح ، فقد كان من شأنهم عندما صار الأمر إلى بني أمية أن حازوا أكثر الأقاليم وابتزوا الأعاجم ساطانهم ، ووصلوا من الشرق إلى السند والهند وتجاوزوا المغرب إلى أبعد من الأندلس شمالا . وما مثلهم في سرعة هذه الفتوح إلا مثلهم في سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنية ، على قرب عهدهم بها ، ما لم تبلغه أمم العلم من قبلهم . فن الغريب الذي ينطق بما عندهم من الهمة والفتانة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة اليونان بل وجدناهم يرمون إلى أغراض من الفلسفة بعيدة ، ويضعون على قواعد اليونان شرحا ^(٣) أصابو الرأي بالزيادة فيه بعد البحث والتحصيل ^(٤) ، وذلك غير ما فتحوا من الأبواب الواسعة للنظر في العلوم الرياضية وتحريرها وإصلاحها وغير ذلك .

وكان أول عهد العرب بالعلم في خلافة أبي جعفر ^(٥) لأنه كان يعزز جانب الحكمة ويبحث عن مكامن العلم للوقوف على آداب الأولين ويعزم على أهل الكتابة

(١) راجع المقدمة وكتاب حاجي خليفة .

(٢) المسعودي ١ : ٢٣٦

(٣) حاجي خليفة ٣ : ٩٢

(٤) ابن خلكان ١ : ٢٦٣

(٥) السيوطي وأبو الفرج ٢٤٦

أن يدونوا الأسفار الكثيرة لإذاعة العلوم بين الناس ، إذ لم يكن معزوفاً عندهم من قبله إلا علم الرواية وأخبار العرب وعلم الأحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث وعلم العروض الذي وضعه الله تعالى في صدورهم وبضاعة مزجاة من النجامة وعلم الأفلاك مما اقتبسوه من الفرس والهنود ، فلما جاءت هذه الأيام تسحب عليهم أذيال الدعة والنعيم بعد أن فرغوا من أعمال الحروب التي وقعت في صدر هذه الدولة وجهوا همهم إلى النظر في فنون الأدب لتجديد ما طمس من معالم العلم ، فكتبوا في جميع فروعه وفنونه بحيث إنه لو جمعت كتب أمة قديمة عهد بالعمران ما وجد ما تحويه من العلم أعظم مما تحويه كتب العرب . ولما أذكر أن الرشيد لما ركب إلى الرقة في بعض أسفاره حمل معه ثمانية عشر صندوقاً من أسفارهم^(١) ليقطع بمطالعتها زمانه مع أنه لم يأخذ منها إلا نخبة مما في خزائنه وقد وجدت في قصر بناه بالقاطول ليخرج إليه للتره^(٢) خزانة كتب تحتوي على أكثر من ألف كتاب . وحسبنا ذلك شاهداً على ما نروم ذكره من كثرة الصحف التي دونها العرب بين تعريب وتصنيف .

الطب والأطباء

كان أبو جعفر (غفر الله له) يوجه عنايته إلى علم الطب من بين العلوم فبنى لتعليمه حلقة كبيرة فوَّض أمرها إلى طبيب أعجمي يقال له « فرات بن شختانا » وهو من تلاميذ تياذوق^(٣) الذي كان طبيباً بدار الحجاج أمير العراق ، فتخرج عليه طائفة من النصاري^(٤) دون المسلمين ولست أحسب السبب في إعراضهم عن هذا العلم إلا ظنهم كفاية ما لديهم من المخرَّبات التي توارثوها من مشيخة الحنابلة

(١) الأغانى ٥ : ٦٧

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٦٦

(٣) أبو الفرج ٢٠٠

(٤) في الأغانى ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصاري دون المسلمين .

وعدم حاجتهم إلى مثل هذه الصناعة في كسب الرزق وترفعهم عنها كبرها أنفة .
وذلك خطأ عليهم شئنه وخسرانه ، إذ قد خلت منهم في دور الخلافة مراتب
استندت إلى أطباء النصرانية فبرعوا عليهم في هذا العلم وعزبوا كتب جالينوس
وأبقراط من حكماء اليونان وأضافوا إليها كثيرا مما عرفوه من علم الحيوان بعد وفوفهم
على مقالات ارسينخاس^(١) وديمقراطيس^(٢) وغيرهما من العلماء الذين يرجع إلى
كلامهم في طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره .

ولقد كان مُظْهِرُ الطِّبِّ في النصرانية رجل يقال له ماسويه أبو حنا وكان أميا
لا يعرف القراءة إلا أنه تلقى الطب من أفواه اليونان وطالت به المراتة لا والتجربة
فيه إلى أن بلغ منه المكان الذي لا يدفع ، وكان له ولدان يقال لهما يحيى ويوحنا
فتخرجوا عليه في علمه ومعهما ثالث يقال له جبريل بن يحنثشوع فبرعوه في شفاء
الأمراض .

فأما يوحنا فإنه صار طبيبا بدار الخلافة ودون رسالة طويلة أودعها ما عرض
له من التجربة في معالجة أهل السقام ، واتخذ مجلسا أفرده للنظر في استنباط طرق
العلاج باجتماع الرأي مع غيره من الأطباء ، وكان الرشيد قد ولاه ترجمة الكتب^(٣)
التي وصلت إليه من مدونات الأطباء والحكماء مثل أبقراط وجالينوس وغيرهما
فأحسن تعريبها كل الإحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التي نال منها مشقة
عظيمة . وذلك بخلاف الكتب التي عزبت في خلافة المهدي وأبى جمفر فإنها
لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات إليها ، إذ كانت عارية من القواعد التي
وضعها الحكماء وليست تحوى سوى طرق من العلاج أشار بها ضعفاء العقول من
الأطباء ، وكانت إلى الجهل والخرافة أقرب منها إلى العلم والحقيقة ، فلم يجد التراجمة

(١) المسعودى ١ : ٩٢

(٢) حاجى خليفة ٣ : ١٢١

(٣) أبو الفرج ١٣٧

في تعريبها عناء يجهد النفس . أما الكتب التي عربها ابن ماسويه فإنها من أصح ما صدرت به أقلام اليونان وأنفسه .

وأما جبريل بن بختيشوع فإنه تبحر في جميع العلوم الداخلة في علم الطب ، وكتب في حياة الحيوان رسائل^(١) تدل على سعة اطلاعه ، وكان جعفر^(٢) (أعزه الله) شديد الحب له والاحتفاظ به حرصا على ما وسع صدره من العلوم ، فقربه الرشيد إليه برأى البرامكة واتخذ في دور الخلافة بدل صالح الهندى الذى كان مقدما^(٣) من قبله على أطباء بغداد ، فلما صار إلى هذا المقام الجليل ورأى الناس يرجعون إلى رأيه فيما يشيره من هذا العلم حملهم على الإعراض عن الدجالين ، وهم الشيوخ الذين بعدت المهابة عنهم ودل ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الخرف منهم فيزعمون أنهم يَطْبُونُ الناس بالمواعظ^(٤) يملكون أثدة العوام بما لا فائدة فيه من الخرافة ، فوفق بعلمه إلى بلوغ الغاية التي رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التي تमित الأذهان الضعيفة .

ويأتى بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة ثانية من الأطباء كلهم من أمة النصرانية إلا عيسى أباقريش الصيدلانى ، وليس هو بطبيب ماهر ولكنه رزق الشهرة بين الناس عن اتفاق وقع له بأن بشر الخيزران في خلافة أبى جعفر بأنها تحمل مولودا ذكرا يصير إليه أمر الأمة ، فلما ولدت وكان ما ولدته غلاما أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيبا في دار الخلافة^(٥) ، وقد سمعت من يقول إن الخيزران إنما قربته لمهارته في المجامة لا في الطب ، فإن صححت الرواية كان

(١) حاجى خليفة ٤ : ١٢٥

(٢) أبو الفرج ٢٣٥

(٣) أبو الفرج ٢٣٨

(٤) المسعودى ٢ : ٥٨

(٥) أبو الفرج ٢٩

عندى أحق بالثقة به حجما منه بالثقة به طبييا ، إذ لست أثق من الطب إلا بما يحفظ الصحة للصحيح ، أما وسائل العلاج التي يزعمون أنها تبعد العلة عن العليل بعد تمكنها منه فما أنا من الثقة بها على شيء ، لأنني أحسبها من باب الغوص على أسرار الطبيعة ، وطالما وجدت للأطباء في العلة الواحدة آراء متباينة ، ومن المعروف عند العقل أن الخلاف في الأمر الواحد لا يطابق الحق فيه إلا وجه واحد أما الحجة فإنها على خلاف ذلك ، والرأي فيها واحد يقضى بحذف الجزء الفاسد وفصله ، وإني وإن كنت على بعد من الطب لا أجد بدا من الإقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاج وما عرفوه من مركبات العقاقير التي لم يسبق إليها أحد من المتقدمين ولا المتأخرين ، ولا غرو فإن للطب صناعة لا تبلغ أمانة منها إلا على طول التجربة والاختبار في المراتبة والممارسة ، ولذلك كان المتأخرون يفضلون فيها المتقدمين في كل عصر وأمة ، وقد قال علي عليه السلام (١) :

ألا لن تنال العلم إلا بسة سأنيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبلغه وإرشاد أستاذ وطول زمان

النجامة وعلم الأفلاك

لقد سبق الإلماع إلى ذكر النجامة وأنها من العلوم التي كانت معروفة قديما عند العرب ، غير أن الاجتهاد فيها كان محصورا في نفر قليل من أتباع الأقبال الذين تداولوا ملكهم قبل الإسلام ، فلما جاء أبو جعفر قزب إليه المنجمين وقدم عليهم توبخت (٢) المنجم المشهور عندنا بين أعظم المجوس وفضلائهم ومن له كبير علم وجزيل فضل ، فاتخذ في الزوراء حلقة شهدها كثير من الناس ، إلا أنه لم

(١) الكز ١٣٩ والشبلنجي ١٠٢

(٢) ذكره القزويني وابن الأثير وغيرهما في استشارة أبي جعفر أياه في بناء الزوراء .

يخلفه في علمه كالموصلِي المنجم ، فانه كتب في الاضطراب سِفْراً أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أصولاً يُعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار ويرجعون إليها في علم النجامة والأفلاك .

ثم نجم بعده في المسلمين على بن عيسى الأضرلابي^(١) وإبراهيم الفزاري المنجم ومهرا في استخراج النجامة من كتب الفرس ، وقد عثرت في خزائن البرامكة (أيد الله دولتهم) على أرجوزة في علم الأفلاك وهيئتها نظمها لإبراهيم هذا المنجم^(٢) بغضات ناطقة بحسن نظره ولطيف مأخذه وجليل موضعه من هذا العلم . وله كتاب مشهور في الزيج ذكر فيه من غير حركات الكواكب جوامع من مساحات الممالك والبلدان أذكر مما قيده في أقاليم الاسلام أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ والعرض من باب الأبواب إلى جُدَّة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلاً^(٣) ، وعمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ٣٠٠ فرسخ ، وعمل إدريس ١٢٠٠ في ١٢٠ فرسخاً ، وعمل فاس لأبي المنتصر ٤٠٠ فرسخ في ٨٠ فرسخاً^(٤) . ثم نبغ بعدهما تيوفيل بن توما الرهاوي^(٥) وكان المقدم على جميع المنجمين في خلافة المهدي (رحمه الله) ، وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما إلى ترجمة كتاب شاعر يقال له أميروس عن فتح مدينة إيليون في العصر الخالية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة^(٦) ، وأميروس هذا شاعر مجيد كان يعترف المعاني من بحار

(١) المسعودي ٣ : ٤٠٠

(٢) المسعودي ٣ : ٤٠٠

(٣) المسعودي .

(٤) ذكر ابن خلدون في المقدمة متجهاً من الروم يقال له تيوفيل الرومي وأنه كان في أيام بني أمية .

(٥) أبو الفرج ٢٢٨

(٦) المقدمة ٥٣١

التصور ويبرزها في الصورة التي يعجز عن مثلها الشعراء فوقف نظمه بين الحكمة والإجادة موقفا لا يسمو إلى متناوله إلا العقول النيرة والأذهان الثاقبة ، وقد أثنى عليه أرسطو^(١) في كتاب بمديح يرفعه إلى أسمى مقامات العقول .

أما المنجمون في هذه الأيام فهم اثنان مشهوران ما شاء الله اليهودي ، وأحمد ابن محمد النهاوندى ، ودونهما في الشهرة ثالث يقال له محمد بن موسى^(٢) المنجم . فأما ما شاء الله فيقال إن له حظا في علم الغيب^(٣) ، وكان في جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبي جعفر بعد نوبخت وكسبوا الإنعامات منه ، وهو اليوم بدار الترجمة أخذ عن أمر الرشيد بتعريب الكتب التي تبحث في علم الأفلاك . وأما أحمد النهاوندى فإنه في الموضع الأجل من علم الرصد ألف فيه كتابا سماه المستمال وأودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرض له من أمور الفلك بما رصد في مدينة جنديسابور ما لم يسبق إليه أحد من المنجمين ، ودون في الموازنة بين علوم الفرس والهند واليونان فيما عرفوه من النجامة وسلكوا طريقته إلى آخر زمانهم كتابا آخر صور فيه الدنيا كلها للرشيد ببحورها وجبالها وأوديتها وأقايمها وبلدانها وسائر أماكنها ، وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخا والفرسخ اثني عشر ألف ذراع والذراع اثنتين وأربعين أصبعا ، والأصبع ست حبات وتسعين مصفوفات بعضها إلى بعض^(٣) ، وهذا مما يحتاج إلى دقة النظر في معرفة عرض الأرض وطولها ومناسبة الأقاليم فيما بينها وغير ذلك .

وقد أهدى إلى هذا المنجم نسخة مصورة من كتاب المستمال في السنة الرابعة والثلاثين بعد المائة من الهجرة ، ولكنه أخبرني أنه لم يرسله بين الناس لما يحتاج

(١) الأغاني ١٥ : ٨١

(٢) أبو الفرج ٢٤٨

(٣) ذكرها السعدي ١ : ٢٧٨

إليه من المراجعة والاصلاح بسبب ما يعرض له من أمور الفلك الذى يباشر رصده فى هذا الوقت .

ولقد مضى فى كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين وكذلك تقول فى هذا الباب إن الفرس برعوا فى النجامة على العرب ، لآثى رأيت هؤلاء يتجافون عنها ويعدونها هى والسحر^(١) الذى ينهى الشرع عنه علما واحدا ، بخلاف جماعتنا من الفرس فإنهم يوجهون عنايتهم إلى العلا فى مباحثهم ومناظراتهم ، ولذلك تجد انصبابهم إلى الرصد وما ينبئ عنه من إشارات النجوم والكواكب أعظم من انصبابهم إلى ما سواه من العلوم ، وكان المقرّب لهم فى الإسلام أبو جعفر المنصور^(٢) كما ذكرت ذلك فى مواضع من الكتاب لأجل أن يطلعوه على طوارئ الجو وحدوث الأنواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب فى بروجها وينبئوه عن جذب الأرض وخصبها لما يكون من معرفة ذلك قبل أوانه من المنفعة العظيمة للولك ، ثم قريهم البرامكة (أكرمهم الله بأكرم الكرامات) لاستشارة الأضرلاب^(٣) فى جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الأعمال وينظروا فى النجوم ويدركوا علم الأبعاد ويوقعوا زمن الكسوف^(٤) وعقدوا لهم محاسبا يتناظرون فيه لتحقيق ما يستنبطونه من حركات الكواكب المتحركة والمتحيزة وأسبابها بطرق هندسية ، وما يرون من الأفلاك التى تخص بالكواكب الثابتة وغير ذلك . وتقدموا إلى من له علم بالنجامة

(١) القناوى ٥١

(٢) السيوطى .

(٣) ذكر صاحب الأغاني والالتيلدى أن جعفر استشار الأضرلاب يوم نكبه الرشيد .

(٤) العقد الفريد ٣ : ٧٨٥ و ٢٤ المقدمة .

أن يعرب كتاب المحسنى لبطليموس من حكماء يونان واتخذوا آلة للرصد تعرف بذات الخلق (١) فكان يجتمع عليها المنجمون وفيهم جماعة من أدياء العرب الذين لم يشاركوا في هذا العلم إلا بما يلمسون من معرفة الأيام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب وهو الفرع الذى يسمونه بعلم الأزياج (٢) .

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذى هوت إليه أفئدة المسلمين ، وكان شأن العرب فيه فى صدر الإسلام أن يرحلوا من بلد إلى بلد ليسمعوه من الصحابة ثم من التابعين ثم من سمع من التابعين من غير أن يدونوه فى الصحف ، فلما أسرع الموت فى العلماء وكانوا كلهم شيوخا فزع أهل العلم إلى الطروس وأخذوا يدونون (٣) الحديث مثل ما وجدوه فى الناس محفوظا بطريق الإسناد ، ولكن من غير أن ينظروا فى الرواية النظر الجلى ولا أن يعتمدوا فى النقد الأصل المرمى . فكتب ابن جريج بمكة ، (٤) ومالك بن أنس بالمدينة ، ومعمّر باليمن ، وسفيان الثورى بالكوفة ، وهشيم بن بشير (٥) بالعراق ، والأوزاعى ببيروت (٦) من ساحل الشام ، وحامد بن سلمة وشعبة بن الحجاج وابن أبى عروبة بالبصرة ، وذلك كله فى خلافة أبى جعفر (٧) رحمه الله . وكان

(١) وقال إن المأمون أول من اتخذها فى الإسلام وإنها كانت معروفة عند اليونان كما استدلل على

ذلك من العقد الفريد .

(٢) المقدمة ٢٧ : وحاجى خليفة ٣ : ٥٦

(٣) الزرقانى ٥١ : ١٠

(٤) الزرقانى ١ : ١٠

(٥) ابن خلكان ١ : ٥٢ : واللائلى ٥ : ٥٤

(٦) حاجى خليفة ٣ : ٢٨ وذكر ابن الأثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٥٧

(٧) السيوطى

أصحهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن أنس وهو رأس المحدثين^(١)، رأيتُه إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث ، فقلت له في ذلك ، فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به إلا متمحاً على طهارة ، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجلاً ، ويقول أحب أن أتفهم ما أحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه لما جاء هذا العصر والناس مطعون على حكمة الفرس واليونان وما في أنواعها من الخروج عن الملة ، أخذ الأئمة في وضع علم الكلام صيانة للدين أن تخالطه البدع ويقع فيه التخالف ، ثم أخذوا في تمييز المحفوظ من الحديث كله لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع ، وكان أول من أخذ في ذلك فقيه الإسلام أبو يوسف ، وكان من عليّة أهل الحديث وهو الذي أخذ الناقلين بأغلاطهم^(٢) ونبذ الموضوع من أحاديثهم ، وكان يقول اثنان لا يسلمان من اثنين من طلب النجوم لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب^(٣) ، ثم أخذ أخذه العلماء المجتهدون من بعده ، ومنهم أبو إسحق الفزارى وعبد الله ابن المبارك وهما أشهر الأئمة لأيماننا هذه ، والرشيد لا يسمع الحديث إلا عنهما . ولا يتمس الرد على الزنادقة إلا متهما فكان إذا أخذ على الزندقة جماعة يقولون له وهو يضرهم الحدود أين أنت يا أمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبي صلى الله عليه وسلم ما فيها حرف نطق به ؟ فيقول لهم وأين أتم يا أعداء الله من أبي إسحق وابن المبارك يخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً^(٤) .

(١) ابن خلكان ١ : ٦٢٦

(٢) ابن خلكان ١ : ٧٦

(٣) العقد الفريد ١ : ١٧٩ و ٢١٣

(٤) السيوطي .

ولقد أخبرني هذان الإمامان أنهما يؤلفان في فقه الدين وعلم الكلام رسائل يذكران فيها مذاهب الأئمة ثم يتطرقان منها إلى الرد على الذين يقولون بخلق القرآن ويزعمون أنه يحوى غير العربى الفصيح من الكلام ، وهذان المذهبان ^(١) فاشيان اليوم بين الناس ، والأول منهما أشد خطرا على الإسلام لأن زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجّة واهى الدعامة بما يعلم عن العرب أنهم خالطوا الأمم في تجاراتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم ألفاظا استعملوها في أشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربى الفصيح ، فما ورد فى القرآن من الألفاظ الأعجمية إنما دخل فى العربية الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق ^(٢) بحيث إنه لا يكاد يرى فيه من هذه الألفاظ ما لم يرد فى شعر البلغاء من الجاهليين ، وفى هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفتريين فيما يزعمون . أما الذين يذهبون إلى أن القرآن مخلوق فللعلماء من أهل الاجتهاد حجاج قامة لاقتراءهم على الله منجدة لنار الفتنة التى كنت طى مذهبهم ، وهذا من الأمور التى ينبغى أن ينظر فيها الأولياء بعين الحذر ، لأن الفتنة لا تؤمن غائلتها بعد فساد الدين ، ويكون آخر أمرها بوارا على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين مافتحوا البلدان وحازوا سلطان الأعاجم إلا بخوة الدين وقوة الإسلام .

ولقد عثرت فى مدقونات الفقه على كتب جلييلة أجملها كتاب لأبى حنيفة فى الكلام ^(٣) اسمه الفقه الأكبر ، وله فى هذا العلم الشاؤ الذى لا يدرك ، وكتاب لمالك بن أنس سماه الموطأ ، وذهب فى استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث إلى مذهب ينفرد به عن مذهب أبى حنيفة ، وهو الكتاب الذى يقرؤه الرشيد ويحفظه فى صدره ^(٤) تفضيلا له على غيره من كتب الفقه . وعثرت أيضا

(١) الدميرى ١ : ٩٨ والكشكول والانتقان ١ : ٦٨ وابن الأثير والالتلبدى ٢٤١ وغيرهم .

(٢) الإقتان فى تفسير القرآن ١ : ١٤٩

(٣) حاجى خليفة ٤ : ٥٧

(٤) الزرقاوى ١ : ٩

على كثير مما دونه العلماء فيما يُشْتَقُّ عن الفقه من علوم الأحكام ، منها لأبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله ، ومنها لابن شبرمة وابن أبي ليلى^(١) ، وقد أفردا نظرهما في علم الفرائض . ومنها كتاب لفتى يقال له يحيى بن أكرم جمع فيه ما استحسِن من آراء أصحاب المذاهب ، وهو الكتاب الذي أصبو إلى مطالعته من بين هذه الصحف الشرعية ، لأنني وجدت قِبَل صاحبه من قوة الفطنة^(٢) وصدق الحدس ما يؤكد لي أنه إن مدَّ له في العمر سيظهر الفقهاء .

أما الكتب التي وقفت عليها في علوم الحديث فإنها أكثر من أن يأخذها الإحصاء^(٣) ، غير أن الإفادة منها كانت محصورة فيما جمعه كبار العلماء وبقى أن جملة ما في غير كتبهم مراجعة وإعادة لما سبقوا إلى تدوينه ، فكان أنفع للعلم لو صرف الباقون عنايتهم إلى النظر في غير ذلك من العلوم ولم يضيعوا العمر في نقل ما سبقهم إليه العلماء .

في تدوين اللغة

أما اللغة فإن العلماء قد وضعوا قواعدها على أصول وقفت عندها الغاية في الإصلاح وتدقيق النظر ، لأنه قد سبق اهتمامهم بها اهتمامهم بما سواها من العلم اضطرابا إلى تفسير القرآن ، إذ كانت الكتابات مجهولة عندهم في صدر الإسلام ولم يكن يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنسانا^(٤) وكانت ألفاظ العرب بعضها محفوظ في صدور الرجال ، وكثيرها ضائع بين الرمال ، فبادروا إلى التقاطها من البادية يطرقون منازل أهلها ويشهدون محاوراتهم ويتبعون آثارهم ويستنطقون أطلال ديارهم حتى وقفوا على ما كان متفرقا من لغاتهم ، وقيدوها في الصحف بطريق الرواية والإسناد .

(١) حاجي خليفة ٤ : ٣٩٦

(٢) ابن خلكان ١ : ٩٢

(٣) كتاب حاجي خليفة .

(٤) العقد الفريد ٢ : ٢٠٦

وكانت حروف الكتابة في أول الأمر موضوعة بغير علامات ^(١) وظل الناس يقرءون في مصحف عثمان وهو بتلك الكتابة نحووا من أربعين سنة حتى كثرت التصحيف لوجود الحروف المتشابهة . ^(٢) وما استغرب أن يقرأ بعض الناس وما يحدد بآياتنا إلا كل جبار والأصل ختار، وعذابي أصيب به من أساء والأصل اشاء، وهم أحسن أناثا وزيا والأصل ورثيا، والذين كفروا في غرة وشقاق والأصل في عزة إلى غير ذلك ، فوكل عبد الملك بن مروان إلى النضر بن عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفرادا وأزواجا فتميز بعضها عن بعض ونجى التصحيف في القراءة .

وضبط اللغة كان لما يحتاج إليه العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم بما دونوه من لسان قريش وغيرهم .

وأول من دون اللغة مجموعة في كتاب واحد الخليل بن أحمد الذي قدمت لك في الكلام على البصرة ذكره ، وقد ضمن كتابه ^(٣) أصول اللسان العربي وقيد ألفاظه في مواضعها في الاشتقاق إلا ما كان دخيلا عليه من كلام الأعاجم فإنه اكتفى من ذكره بالإشارة إلى عجميته ، وأسند روايته في ذلك كله إلى أكابر الحفاظ ولذلك صار قوله حجة يرجع إليها ، ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي مؤدب الأمين والمأمون ^(٤) من أولاد الرشيد ، ومنهم سيبويه ^(٥) والفراء والأخفش وعلمهم النحو فقط إلا الفراء فإنه كثير الفضل على

(١) حاجي خليفة ٣ : ١٥٤

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥٧

(٣) هو أول معجم كتب في اللغة العربية .

(٤) المسعودي ٢ : ٢١٣ والأبشهي ٢ : ١٣

(٥) وقت أبو الفداء ٢ : ٦٦ وفاة سيبويه بسنة ١٨٠ للهجرة وقال إنه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو . وجرى له مع الكسائي البحث المشهور في قولهم « كنت أغفل لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور » قال سيبويه فإذا هي هي وقال الكسائي فإذا هي إياها فانصهر الخليفة للكسائي فجعل سيبويه من ذلك هما وترك العراق وسافر إلى شيراز وتوفي هناك

العربية بضبطها وتخليصها^(١) ، وقد بلغتني جلالتها في العلم ولكن لم يجمعني وإياه مجلس إلى هذا اليوم^(٢) ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري وقد وقع إلى كتاب له في فقه اللغة لتعليم الرشيد^(٣) قبل تشرفي بتأديته ، وقد أودعه كلام العرب وقيود لغتهم وذكر المترادفات التي وردت لهم في جميع الأسماء والأفعال والأوصاف مشيراً إلى صحة استعمالها في مواضعها من الكتابة ، وأتى على متابعة الألفاظ التي تصف الأشياء على ازدياد في معناها أو نقص يبعدها عن الكتابة .

وهذا الكتاب يفتقر إليه كل كاتب من أبناء العرب الذين يتزلون الأمصار وينقطعون عن أهل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان العربي^(٤) ، لأنني قد وجدت مبانة بين كلام العرب واصطلاحات المتمصرين حتى تكون اللغة عند هؤلاء غير اللغة عند أولئك ، فأما إذ انقسمت قسمين فيكون القسم البدوي هو الحافظ لمحاسن اللغة التي كان ينطق بها البلغاء والشعراء ، ويكون القسم الحضري قطعة من كلام العرب يخالطها كلام السوق^(٥) وألفاظ المعربين فيما ينقلونه من كلام الفرس واليونان مما لا نجد له مسمى في لسان العرب ، لأن لغتهم إنما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الأشياء التي نجد أسماءها في كتب الأعاجم ، كما أن في لغات الأمصار إضراباً عن تسمية الأشياء التي لا توجد إلا في بادية العرب . ثم إنني وجدت عند أهل اللغة قصوراً تسامحوا فيه وتفاضوا عنه ، وذلك أنهم عند ما يصرفون الكلام يسردون لغة القبائل فيه من غير أن يشيروا إلى ما كانت

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٣٨

(٢) ذكر أبو الفداء أنه ولد في أيام يزيد بن عبد الملك وتوفي سنة ١٨٧ بعد البرامكة .

(٣) ابن خلكان ١ : ١٥٢

(٤) يظهر هذا مما نقله الأصمعي وغيره من كلام العرب .

(٥) ذكر الأغاني كلام السوق في زمن الرشيد ٣ : ١٧٣ في غير موضع أما ابن خلدون فيقول

في المقدمة ١٥ أما ملكة اللسان فكانت محفوظة في الأمصار إلى عهد الرشيد وأمثاله من فرسان الكلام .

تختلف فيه لغة قوم عن آخرين ، ولقد ذكروا للأسد نحو ألف اسم ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التي كانت تسميه بها عرب كذا وكذا ، وذكروا للبعير والحية وسائر الحيوانات والأشياء والأوصاف مثل ذلك مع إغفالهم مانحن نؤاخذهم به ، حتى لقد نجد في تصريف الأسماء إلى ما يشتق منها من المعاني مضادة أغفلوا ذكر استعمالها بين العشائر كاستعمالهم وثب بمعنى جلس وطفر وذلك من الأضداد التي لا أظن أنها تجتمع في كلمة واحدة عند قوم من العرب ، فإن الوثوب بمعنى الجلوس في لغة حمير ، وبمعنى الطفر في لغة قريش ^(١) . إلى غير ذلك ^(٢) .

الشعر في البداوة

العروض علم وضعه الله سبحانه في صدور العرب حتى لا يوجد أحد منهم إلا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً ركب فيهم قل القول أو كثر ^(٣) ، وكان أهل الجاهلية ينطقون به عن بلاغة لا يقصدون بها إلا المفاخرة بين الأقوان كما سمعت الأصمعي يقول « الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس وتستنجح به الخوايج وتشفى به السخائم » بخلاف ما نجده في شعراء هذا الزمان فإنهم ينفصبون أنفسهم على الإنشاد بما يستميحون الملوك من الأفراد . وعندى أنه كلما تباعدت أجيال

(١) في القاموس الوثب الطفر والقعود بلغة حمير .

(٢) قيد العلماء في كتب اللغة كثيراً من الأفعال التي تشترك في معنى الشيء الذي له نقبض من نفسه مثل الهزال والسنن والصعود والانحدار والحضور والغياب وغير ذلك فربما عبروا عن الشيء ونقبضه من هذه الأسماء والأفعال والأوصاف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين باعتبار أن الجبل مثلاً لا ينحدر منه الرجل إلا أن يكون قد صعد إليه ثم لا يعقب الصعود إلا الانحدار وكما أن الرجل لا يغيب إلا بعد أن يكون حاضراً كما أنه لا يحضر إلا بعد أن يغيب وهذه هي الألفاظ التي يصح أن تسمى باللفاظ المشاركة وإنها لكثيرة في كلام العرب .

(٣) الأغاني ٣٠ : ٥١

الاعراب . وامتزجت بهم الأعراب وتجاؤا عن سكنى البادية إلى حيث لا يكون لهم مجالس للناشدة كدأبهم في سوق مجنة وسوق عكاظ وسوق ذى المجاز (١) فقدوا كثيرا من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم إلى أن يكفوا طبيعتهم شيئا لا يقدر على فيقولون البيت ويحكونه أيا ما (٢) .

وإنما سهل على المتقدمين الإجابة في هذا الفن أن شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين نحر ونسب ومدح وهجاء من غير أن يكون نابعة فيما سواه ثم إن كلام العرب (٣) كان سائرا في أيامهم على الألسنة فلم يعانوا إلى البلاغة تكلفا (٤) فيما قصدوا من المذاهب التي كانوا يفردون فيها القول بطرائق انقطعوا إليها وكانوا بها موصوفين ، كاسترسال امرئ القيس في ملاذ الشباب بحيث أتى في نعت محاسن النساء بما ليس لقول غيره موقع مثله من القلوب ، وإن هو إلا أرق المتغزلين حيث يقول :

أناطم مهلا بعض هذا التذلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى

أغررك منى أن حبك قاتلى وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل ؟
ويكده عنترة بن شداد في القروسية إذ أتى في الحماسة (٥) بما لم يأت به أحد مثله كقوله :

لو سابتني المنايا وهى طالبة قبض النفوس أثنى قبلها سبق

(١) هي الأسواق الثلاث المشهورة عند العرب وأعظمها سوق عكاظ وكان يقام بين نخلة والطائف في موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال وذلك في أول يوم من ذى القعدة الذي هو أول الأشهر الحرم وكانت العرب تجتمع فيه للتجارة والتهب للفتح ويتناشدون ويتفانون ويتسوقون إلى حضور الحج ثم يحجون .

(٢) الأغاني ٣ : ٢٥

(٣) الأغاني ٥ : ٢٥٢

(٤) الأغاني ٣ : ١٦١ والموازنة والمستطرف ١ : ٧٧

(٥) الأغاني ٣

وكفّح حاتم الطائي يده في سعة العطاء بحيث إنه يتהלل بذكر السباحة
والمكرّمات في جميع شعره ويقول (١) :

أماوى إنّ المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إن يصبح صدأ بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا نحر
تَرَى أنّ ما أنفقت لم يك ضائرى وأنّ يدى مما بخلت به صفر

وكارتفاع السموال بن عادىء في درجات المحاسن الشريفة بحيث إنه أتى من
ذكر الوفاء والمفاخرة به بما يرفعه إلى أسنى طبقات الشعر وهو الذى يقول :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرّضه فكل رداء يرتديه جميل
تَعِيرنا أنا قاييل عدينا فقلت لها إنّ الكرام قليل
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طَلّ يوما حيث كان قتييل

وكانقطاع أمية بن أبى الصلت إلى العبادة بحيث إنه أتى في ذكر أحوال
الانحرة بما لم يشاركه فيه متقدم ولا متأخر (٢) وإن قوله :

يوشك من قرّ من منيته في بعض غراته يوافقها
من لم يمت عبّطة يمت هرّما للموت كاس والمرء ذائقها
لأحكم ما قالته العرب في وصف الموت (٣) إلى غير ذلك مما لا يتسع له المجال
فتنفق منه عند هذا الحد .

وقد انتهت بلاغة الشعر إلى المعلقات السبع وهى أصدق شاهد على فضل
المتقدمين بما قصدوا من انسجام القول ونعت ضروب الوجدان التى تدل على أنفة
النفوس وعلو الهمة على غير تكلف البلاغة ، بما نعلم من إنسادهم إياها ارتجالا بين

(١) الأغاني ١٦ : ٩٦ والعقد الفريد ١ : ١٠٨

(٢) الأغاني ٣ : ١٨٨

(٣) العقد ١ : ٣٧٥

المشائرفان الحارث بن حنظلة لما أنشد عمرو بن هند معلقته توكأ على قوسه وأنشدها
واقطع كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها^(١) ، فيظهر من ذلك أنه
كان لهم في الشعر شأن ضاع عن المحدثين سره لا انقلابه فيهم من الطبيعة إلى
الصناعة ، لأن العرب كانوا شعراء جميعا وكلهم يرتجز في حرب أو استجداء
أو مفاخرة^(٢) ، وكانت الحكمة سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم
بذلك حتى إذا أنشدوه قول طرفه من أصحاب المعلقات :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
قال هذا من كلام النبوة^(٣) ، ثم إن النساء كن يقلن الشعر أيضا في أيامهم حتى
إن بعضهم قد فضلن كثيرا من الرجال مثل ليلى والخنساء وكلتاها شاعرة فصيحة ،
ولقد وجدت من كلام ليلى في وصف الشجاعة ضروبا من الإبداع كقولها^(٤) :

مهفهف الكشح والسر بال متخرق عنه القميص لسير الليل محتقر
لا يأمن الناس مُمسَاه ومُصبحه في كل فج وإن لم يغز يُنتظر
ووجدت في تأيين الخنساء لصخر توجعا كثيرا بالبكاء عليه حيث تقول :

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أنى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي

وتقول في رثائه وهي تصف محاسنه :

إذا القوم متوا بأيديهم إلى المجد مد إليه دأ
فنال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا

وتقول وهو أنخر بيت قائله العرب :

وإن صخرا لتاتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

(١) أبو عبيدة والأغاني ٩ : ١٧٨

(٢) الأغاني ١٨ : ٦٤

(٣) العقد الفريد ٣ : ١٢٢

(٤) الأغاني ١١ : ١٧

ولها من أمثال هذا الكلام شيء كثير^(١) يرفعها إلى مساماة البلغاء من الرجال .
وقد أجاد المتقدمون في براعة الاستهلال إلى حيث يقف حد البلاغة ، وهم
يصفون الركبان والطيف ويذكرون ربوع الأحباب وتعفية الرياح رسومها ومخاطبتهم
إياها فيما مضى لهم من عهود الأئس ويصفون ألم الفراق ووحشة الديار وما يخالج
قلوبهم من الصباية في وقوفهم بالعيس على أطلال الديار^(٢) إلى أن يتخلصوا
من هذا الاستهلال إلى ما يرون إنشاده فيما يأخذون به من المذهب ، ولكن
على انحطاط يقع فيه الكثير منهم بعد بلاغة الابتداء ، إلا الذين يتوسطون
بالبلاغة في مطلعهم فيستمررون إلى آخر بيت على استواء ، أو الذين يعلنون علوا
حسنا ثم لا يزالون صاعدين في بلاغة تُعجز الفصحاء ، ولكنهم نفر قليل مثل
امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى والناطقة الذبياني وهم المتقدمون على جميع
الشعراء ، وموضعهم من البلاغة واحد^(٣) ، إلا أنه غلب على ذى القروح
التجمل بالمعاني وبديع الوصف ، وعلى النابغة الاسترسال في البراعة ، وعلى زهير
العناية بتقويم الألفاظ . وقد سمعت الأصمعي يقول وقد سئل من أشعر
العرب ، الذين شَرَّق شعرهم وغزب ؟ فقال «زهير إذا رغب ، والناطقة إذا رهب

(١) الأغاني ٦ : ٨٣ و ٩ : ١٦٣ و ١٤ : ١١٦ والعقد ٣ : ٢٣ وديوان الحماسة

والأليدي ٢٥

(٢) إنما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدم والآثار فبكى وشكا وخاطب الربيع واستوقف الرقيق
ليجعل من ذلك سببا لذكر أهله الطاعنين من ماء إلى ماء وانجاعهم الكلاء وتبعهم مساقط الغيث حيث
كان ثم فصل ذلك بالنسيب وأبدى شدة الوجد وألم الصباية والشوق فتبل نحوه القلوب وتنصرف إليه الوجوه
ويستدعي إصغاء الأسماع فإذا استوتق من الإصغاء إليه والاستماع له شكا السهر والتعب وسرى الليل وقرر
ما لقي من المكارة في المسير ثم بدأ في المدح فبعث في ممدوحه الميل إلى المكافأة وفضله على الأشياء وصغرها
في جنب قدره الجزيل وهزله إلى الفعل الجميل ، الحصري ٣ : ٢٧٤

(٣) الأغاني وكتاب الموازنة .

وامرؤ القيس إذا طرب . وعنترة إذا ركب . والاعشى إذا شرب^(١) ، ولئن يكن في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عسر لا يؤمن معه الزلل ما أنا براء في أبياتهم ما يسمو إلى كلام النابغة في الفخر حيث يقول^(٢) :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ولا إلى براعة زهير في المديح وقد ألقى عن المادحين فضول الكلام بقوله^(٣) :

وإن يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

ولا إلى جمال الوصف الذي نظمته امرؤ القيس في معلقته نظم اللائح في شذور الذهب فقد لا تحضر البغاء أنفسهم عبارات يفصحون بها عن محاسن كلامه الذي ذهب مذهب المعجزات ، فإن العرب لم ينفكوا عن الإعجاب بها وهي معلقة في الكعبة إلى أن ظهر الإسلام وذهبت فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله تعالى على سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين دون طبقة هؤلاء من الجاهليين فإن لهم من محاسن الشعر موزعا لا يتعدونه إلى التصرف في المذاهب الواسعة كافراد أبي داود بوصف الخيل ، وعلقمة بوصف الوحش ، وأوس بن حجر بوصف الخمر إلى غير ذلك^(٤) ، وليس فيهم أقرب إلى طبقة الثلاثة المتقدمين من الأعشى بن جندل الأسدي^(٥) فإن له أبياتا حسانا ذكر منها هذا البيت الذي هو أشجع بيت قالته العرب :

قالوا الطعان فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فإننا معشر نزل

(١) الأغاني .

(٢) خزنة الأدب ٥١١ والأغاني ٩ : ١٥٨

(٣) الأغاني .

(٤) الأغاني ١٥ : ٩٥ و ٩٦

(٥) الأغاني ٩ : ١٤٠

ولكنني وجدته إذا تعالى في شعره كثيرا لم يؤمن وقوعه في الانحطاط (١) ،
وربما أتى من الألفاظ بالغريب الذي يبعد عن الأذهان ، وهذا شيء يصح أن
نعيبه عليه وعلى غيره من الجاهليين وإن كان بعض الناس يجدون له مخرجا إلى
السلامة من العيب إذ يجوزون للمتقدمين ما لا يجوزونه للتأخرين .

الشعر في الحضارة

ولقد وجدت في شعر الإسلاميين المتقدمين علواً كادوا يسامون فيه أهل
الجاهلية ، ولذلك يصح أن نعرف لهم بحاسن البلاغة مثل الاحوص وذى الرمة
وحسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والقطامي وجرير والفرزدق والأخطل وجميل
وكثير وكثير غيرهم ، فإن لشعرهم من رقة الديباجة والروني والحلاوة ما لا نجد
إلا في شعر البلغاء من الجاهليين ، وربما انتهى بعضهم في المذاهب التي كانوا بها آخذين
إلى حيث تقف بلاغة الشعر كذكر الحماسة في كلام حسان بن ثابت حيث يقول :

لنا الحفقات الغريلمعن في الضحا وأسيافنا يقطرون من نجدة دما

وكالاستنثار بالفخر في شعر الفرزدق الذي يقول فيه (٢) :

تري الناس إن سرنا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وكالتوجع في الرثاء في قصيدة الهذلي التي يجزع فيها على فقد أولاده لإطفلا
صغيرا بقى له ومن حملتها البيت المشهور (٣) :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قلبه ل تنقع

وكالتشبيب في شعر جميل وذى الرمة وعمر بن أبي ربيعة (٤) بحيث إن لهم
في ذكر محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع عنوية الألفاظ وجودة السبك
ما لا يوجد مثله لأحد من شعراء العرب غير الثلاثة المتقدمين إلى غير ذلك .

(١) الموازنة والأغاني .

(٢) العقد والأغان والكشكول .

(٣) العقد والأغانى .

(٤) صاحب الأغاني يفضل على شعراء زمانه وربما فضله في التسبب على شعراء الجاهلية .

ثم إن الشعر يقع في الحضارة بعد هؤلاء المحيدين ويفقد كثيراً من البلاغة التي كانت في لسان الجاهليين لإبراز المعاني في فصيح الكلام إلا أنه لا يخط عنه في الأوصاف البارة وتناول المعاني من حيث الشعر نفسه ، فلقد نجد لبعض المحدثين من سعة التصرف فيه وسرعة الخاطر إلى النظم ما يجعلهم لولا تأخر أيامهم في طبقات المتقدمين ، على أن كلامهم ليس من الفصاحة بالموضع الذي كان للجاهليين ، والعذر لهم في ذلك أن شاعر البادية إنما كان يلتمس الفصيح من الألفاظ ليسمو كلامه على كلام غيره من الشعراء ، واللغات إذ ذاك كثيرة في عشائهم ، أما اليوم فإن اللسان الذي نزل به القرآن معروف لدى كل إنسان فلا يضطر الشاعر إلى التماس ألفاظ يفضل بها لسان غيره لتوحد لغة قريش في الأمصار كافة . وإنما وجب عليه أن يتدع المعاني التي لم يسبق إليها غيره دون تكلفه إلى تناول الغريب من الكلام ^(١) ، لأن الألفاظ السوقية لا تمنع ^(٢) أن تكون القصيدة جيدة .

ولقد ينقسم الشعر في الإسلام ^(٣) إلى طبقات ثلاث أقربها إلى فصاحة البداوة أبعدها عن حضارة الاسلام . أولها عصر عبد الملك والشعر إذ ذاك في ثلاثة من تميم ^(٤) وهم جرير والفرزدق وهو من نبغة ^(٥) الشعراء والأخطل النصرائي وهو المحيد في مدح الملوك ^(٦) ووصف الخمر ، وكان المقدم عليهم جرير وقد فضل الشعراء ^(٧) بقوله في المديح :

أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

(١) ذكر الأغاني ٣ : ١٤٥ أن الشعراء يستعملون الغريب من الألفاظ (وذلك في زمن الرشيد) .

(٢) الأغاني ٣ : ١٣٣ و ١٧٣ .

(٣) أي في المتمصرين من الشعراء دون أهل البادية .

(٤) الأغاني ١٩ : ٦ .

(٥) الأغاني ٩ : ١٤٧ .

(٦) الأغاني ٩ : ١٤٧ .

(٧) الأغاني ١٠ : ٢ وفي غير موضع والوطواط ١١١ وابن خلكان ١ : ١٤٣ والعائد الفريد

وقوله في النسيب (١) .

إِنَّ العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

وهذا من الكلام الذي تتناهى إليه رقة أهل الصبابة ، ولم نجد من بعده
مثله إلا في شعر جميل وكثير وقد استرسلا في وصف حياة الشباب وانقطعا إلى
النسب (٢) من مذاهب الشعر ، يقول كثير (٣) :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلى بكل سبيل
ويقول جميل :

وما زلت يا بُنُّ حتى لو أنى من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
وما أحدث النأى المفرق بيننا سلوا ولا طول الليالى تقاليا
على أنى راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا على ولا ليا
ومن كلامه (٤) :

خيل لي فيما عشتا هل رأيتما قتيلا بكى من حبّ قاتله قبلي ؟
وأول الأبيات قوله :

لقد فرح الواشون أن صرمت حبل بئينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلا يا جميل وإنى لا قسم ما بي عن بئينة من مهل

والناس يستحسنون ذلك . ولا يقاربه في النسب إلا قول الأحوص (٥) :

إذا قلت لى مشتفٍ بلقائها خفّ التلاقي بيننا زادنى سقما

(١) الموازنة ٤

(٢) الأغاني ٤ : ٥٨ والكشكول والعقد الفريد ٣ : ١٧٢

(٣) الأغاني وزين الأسواق وابن خلكان والمستطرف

(٤) الأغاني والعقد الفريد ١ : ١٤٦ والحصرى ٢ : ١٦٣

(٥) الأغاني ٤ : ٥٧

وأما الطبقة الثانية فإنها عصر أبي جعفر (رحمه الله) وشعراؤه من تقدم لك ذكرهم . والطبقة الثالثة هي زمن الرشيد والبرامكة وشعراؤها أكثر من أن يأخذهم الإحصاء ولكني لا أرى فيهم إلا أبا العتاهية وأبا نواس ومسلم بن الوليد وهم أشعر أهل هذا الزمان كما ستراه .

فأما أبو العتاهية فإنه انقطع في شعره إلى ذكر أحوال الانخرة^(١) وله أرجوزة حوت أربعة آلاف بيت أودعها من المعاني الجليلة ما أبرزه في أحسن صورة . من ذلك قوله « روائح الجنة في الشباب » وهو قول يقبله القلب ولا يفسره اللسان^(٢) ، والناس يقولون إنه نخرج عن العروض بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد ولكني لا أرى ذلك خطأ يعاب به كمن يتناول على قواعد العلوم ، لأن الخليل لم يستوف الكلام في هذا العلم الذي وضعه ولا سيما في بحر المتدارك ، فإن من العروضيين من زاد فيه على ما ذكر^(٣) ، وقد كان أبو العتاهية من الحظوة عند الرشيد بحيث لم يفارقه في حضر ولا في سفر^(٤) ، ثم آل أمره إلى الزهد^(٥) فليس الصوف وعزفت نفسه عن الدنيا وكان يقول^(٦) :

كأن كل نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكي لمعة الآل

(١) الأغاني ١١ : ٣٢

(٢) الأغاني ٣ : ١٤٣

(٣) المسعودي ٢ : ٢٦٥

(٤) الأغاني ١١ : ٣٢

(٥) الأغاني ١١ : ٣٢

(٦) الأغاني ٢ : ١٦٢

فصار إذا دعاه إليه ليصف له ماهو فيه من زخارف الملك يادره بالتذكير
والموعظة ^(١) فيكي الرشيد من ذلك فيهم الجلاس إلى معاتبته فيقول لهم الرشيد
دعوه إنه يرانا في عمى فيكره أن يزيدنا منه .

وأما أبو نواس فإن مذهبه في الشعر مضاد لمذهب أبي العتاهية وأكثر ما يتضمن
شعره الغزل والزهو وذكر المنادمة وانخرتبع لما نعرف له من ممازحة الملوك ^(٢) ،
فهو يذكّر إبليس وانخر في شعره كما يذكّر أبو العتاهية الآخرة والجنة .

ومن استعاراته الفائقة قوله :

بَسَمَ الصَّبَاحُ لِأَعْيُنِ النَّدْمَاءِ وَانْسَقَّ جَيْبُ غَلَالَةِ الظَّالِمَاءِ

وله في صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المناديات عليها
والاصطباح والاعتباق ^(٣) ما توسع فيه إلى أدب ليس للشعراء حظ منه ، وهذا
مما يدل على اقتداره في الشعر وإن كان مذهبه غير محمود عند أهل الصلاح ، وهو
عندى شاعر الشعراء حقيقة ^(٤) ، وإنى أفضّل شعره على شعر أبي العتاهية لأن
قصائده كلها سالمة من العيب ^(٥) ، أما أبو العتاهية فانه وإن كانت له استخراجات
لطيفة ومعان ظريفة يقول البيت النادر ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد ^(٦) ، وقد

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٩ والفخرى ٢٣٠ والرطوشى ١٧ والكشكول .

(٢) الاتليدى وحلية الكعبت وتزيين الأسواق .

(٣) المسعودى ٣ : ٤٢٢ .

(٤) ذكر صاحب العقد الفريد في باب من الرقائق من المجلد الثالث أن أبا نواس من أقدر الناس
على الشعر وأطعمهم فيه .

(٥) القيروانى وابن خلكان .

(٦) الأغاني ٣ : ١٨٠ .

ذكر لي وراق في درب القراطيس ^(١) كنت آلف حانوته أنه مر به أبو العتاهية يوما وعنده ديوان لأبي نواس فوقع نظره على هذا البيت ^(٢) :

لن ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

فسألتني لمن البيت فقلت لأبي نواس فقال والله إنني أحب أن يكون لي هذا البيت بنصف شعري ^(٣) ، وأظن أنه لو وقف على قوله :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد ^(٤)

أو قوله وهو أمدح بيت للحدثين :

وكلت بالدهر عينا غير غافلة بحدود كفك تأسو كل ما جرحا

لقال فيهما مثل ذلك . ولقد لقيت إسماعيل بن نُوبخت في مجالس البرامكة وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت بعض الناس يقول إن الأصمعي أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، فوالله ما رأيت أحق بهذا الوصف أن يقال فيه من أبي نواس ، لأني ما رأيت في أهل الأدب من هو أوسع علما في كل شيء منه وليس له في الشعراء من مبار ، يعاق له بغبار . وكفى في تحقيق فضله عليهم أن كلامه كله موزون ^(٥) فإن الشعر رنخت في صدره ملكته وصار في نفسه طبيعة ترفعه على جميع الشعراء . وأما مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني فإنه أرق الشعراء غزلا

(١) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان ١ : ١٦٥

(٢) ذكر صاحب العقد الفريد هذا البيت في الأمثال السائرة وأبدل بالشطر الثاني قوله « حتى يرى منها لها واعظ »

(٣) الطرطوشي ١٠

(٤) الأغاني واليقيمة ١٠٢ ونزاهة الأدب ٥٠٠

(٥) ابن خلكان .

وألطفهم صنعا وأكثرهم من المعاني حظا ^(١) إلا أن ميله مع أهل البيت وقوله الشعر في مديحهم هو الذي جعله مقصيا عن محاضرة الخلفاء ، بل جعل في نفوسهم موجدة عليه لما كانوا يرون من استمساك الناس بشعره ، وقد أبدع مصاغه ورصعه بדרך البلاغة ، ولقد ظفر به الرشيد فحمد الله على ذلك بحضر من الجلوساء كانوا قد ظفروا بلك من كبراء الملوك ، فلما أخذ يعاتبه قال إيه يا مسلم أنت القائل :

أنس الهوى بنى على الحشا وأراه يطمح عن بنى العباس
فأعمل فكرته أن يستبدل به مدحا عليه يشفع له عنده ويكون وسيلة لسلامته
من القتل وقال بل أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول :

أنس الهوى بنى العمومة في الحشا مستوحشا من سائر الإيناس
وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بنى العباس
فعجب الرشيد من سرعة بديته وقال له بعض جلسائه استبقه يا أمير المؤمنين
فانه من أشعر الناس ^(٢) وامتحنه فستري منه عجبا فرق له الرشيد وفي نفسه من
الميل إلى الأدب ما قد علمت ، ثم قال له أنشدنا أشعر بيت لك ، فقال يا أمير
لمؤمنين أفرخ روعي أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك فإني لم أدخل على

(١) ذكره ابن الأثير ٦ : ٥٢ بعض أبيات في عرض التاريخ وقال إنها حسنة جدا وذكر الحصري أيضا جملة أبيات وقال إن الطائي كان يعول عليه وعلى أبي نواس وإن مسلما أول من لطف بالديع . وكسا المعاني حلل اللفظ الرفيع .

(٢) كان مسلم بن الوليد من أشعر الناس ولكنني لم أره ترجمة في الأغاني ولا في ابن خلدون وما نقلته هنا مأخوذة من كتاب العقد الفريد ١ : ٩٠ .

خليفة قط ، فأمره بالجلوس ثم شرع في الإنشاد وكلما فرغ من قصيدة قال له
التي تقول فيها « الوحل » فإني رويتها وأنا صغير ، فأنشده شعره الذي أوله :

أديرا على الراح لا تشربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلى دحلى^(١)

حتى إذا انتهى إلى قوله :

إذا ما علت منا ذؤابة شارب تمشّت بنا مشى المقيد في الوحل

ضحك الرشيد وقال عليك ! أما رضيت أن تقيده حتى يمشى في الوحل ؟ ثم
أمر له بجائزة وخلي سبيله .

هؤلاء الثلاثة أشعر الشعراء وهم الذين زينوا الدولة العباسية كما كان الثلاثة
المقدم ذكرهم في الفصل السابق يزينون زمن الجاهلية ولقد لقيت في بغداد كثيرا
غيرهم من الشعراء مثل العمانى وأبى مصعب وأبى الشيص وأبى عبد الرحمن
العطوى وغيرهم ، واتصلت بى أخبار جماعة ممن يتصرفون في فنون الشعر
ويتدعون القول الذى لم يشركهم فيه غيرهم إلى أن ينظموا القصائد التى ليس
في أبياتها حرف معجم . إلا أنهم قد كانوا في أيام أبى نواس ومسلم بن الوليد
فضاع بينهما فضلهم ولم يكن لهم ذكر في مجالس الخلفاء وأهل الأدب .

الغناء وتحريره وإصلاحه

قد مضى في بعض كتبى السالفة من الكلام عن الغناء ما يقضى بصحة ذوق
العرب وحسن ما يصنعون من الأصوات ، وكان أصله عندهم أربعة نفر^(٢) ابن
سريج وابن محرز وهما مكيان ومالك ومعبد وهما مدينان ، إذ كان أصل الغناء

(١) في المجلد الثالث من العقد الفريد ١٧٦ سبعة أبيات أخر من هذه القصيدة .

(٢) الأغاني ١ : ٩٨

ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهرا فاشيا وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليامة ، وهذه البلاد مجامع أسواق العرب ^(١) ، وكانت النساء يشاركنهم في صناعة الأصوات ، وقد نبغ فيهن عزرة الميلاء في الغناء الموقع إلى أن صارت أحسن الناس ضربا بعود ^(٢) ، وكان لها أستاذة يقال لها رائقة فاحتذت فنها في تنسيق الأنغام ، ثم قدم الحجاز سائب ونشيط وغنيا بالفارسية فأخذت عزرة عنهما نفما وألفت عليها ألحانا كثيرة لينة كما نجد في غناء النساء ^(٣) ، ثم ظهر طويس المغني فصنع الرمل والمزج ^(٤) وأول ما غنى به على لحن صنعته قوله ^(٥) :

قد برأتى الشوق حتى كدت من وجدى أذوب

ثم غنى ابن مسجح الغناء المنقول من الفارسي ^(٦) وشهره بين الناس ، وكان بن سريج يضرب بالعود على غنائنا إلى أن ظهر معبد في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية فصنع من الأصوات البديعة ما فضل فيه غيره من أهل زمانه المعاصرين له .

وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذا عندهم عن الأذان ^(٧) ، فلما نقلوه عن قومنا واستعانوا بكتاب لبطليموس في اللحن الثمانية ^(٨) عزبوه في خلافة

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٤٧

(٢) الأغاني ١٦ : ١٣

(٣) الأغاني ٥ : ٥٧

(٤) الأغاني ٤ : ٣٨

(٥) الأغاني ٤ : ٣٧

(٦) المستطرف ٢ : ١٨٨ والعقد الفريد ٣ : ٢٣٧

(٧) ابن خلكان ١ : ٥٧١

(٨) الأغاني ٨٩٥

أبي جعفر (١) أجادوا تأليف الأصوات إلى أن فضلونا اليوم في الغناء ونبغوا فيه النبغة التي ما كنت أحسبهم يصلون إليها في زمن من الأزمان ، وما مكنهم من استكمال هذه الصناعة إلا أمران : الأول انفراد كل واحد منهم بلحن من الألحان يفتن فيه ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يفوق ألحان غيره من المغنين كانفراد معبد بالثقل (٢) ، وابن سريج بالرمل ، وحكم الوادى بالهزج (٣) وأحمد النصيبى بالانصاف (٤) وفليح بن أبي العوراء بلحن النواقيس ، والموصلى باللحن الماخورى ، أما خفيف الرمل فانهم يشتركون فيه جميعا بحيث لم أجد مغنيا إذا تغنى لنفسه يكاد يغنى إلا خفيف الرمل (٥) ، والثاني ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائز ومن الأمراء وأهل النعمة أجرة واسعة على غنائهم ممن يستدعيهم إلى فرح أو يجمعهم لمناظرات الصناعة ثم يخرج بدر الدنانير لإجازة المحسنين (٦) منهم ولقد سئل حنين المغنى وقد دعى إلى مادبة لا يعهد في صاحبها الساحة ، لم لا ترضى بالأجرة اليسيرة ؟ فقال إنما هى أنفاسى أقسمها بين الناس ، أفنلومونى أن أغلى بها الثمن ؟

ثم ظهر عصر البرامكة (أعز الله ملكهم) وهم محبوبون للعلم ومقربون إليهم أهل الأدب ، فكان ممن قربوه من المغنين إبراهيم الموصلى وابنه إسحق ، وهما بمكان جليل من الأدب إلا أنه غلب عليهما الغناء بما وضعاه من الألحان فاشتهرا به كما رأيت . وقد وضع أبو إسحق اللحن الماخورى الذى لم يشركه فيه أحد من المغنين ، وكان يظن لصعوبة المأخذ في ابتداعه أن إبليس هو الذى ألقاه عليه

(١) ابن نباتة .

(٢) الأغاني ٦ : ٦٦

(٣) الأغاني ٥ : ١٤١ و ٦ : ١٣

(٤) الأغاني ٥ : ١٦١

(٥) الأغاني ٧ : ٣٦

(٦) الأغاني ١٤ : ٥٥

فى المنام ، فلقـد طالما تهوَّس بالغناء وأمعن فى تنسيق الألحان على أتم إبداع وأحسنه موقعا فى النفوس حتى توهم أن الأرواح هى التى كانت تظهره له وتعلمه الأصوات التى يعجز عنها غيره من الإنس ، وقد قالت الشعراء فى مدحه على موضعه الجليل من الغناء :

ما لإبراهيم فى العلم بهذا الشأن ثانى
إنما عمر أبى إسحق زين للزمان
جنة الدنيا أبو إسحق فى كل مكان
منه يُجنى ثمر اللهو وريحان الجنان

وكذلك كانت إجادة ابنه إسحق وقد وضع ألحانا لا يقدر شعبان ممتلى ولا سقاء يحمل قربة على الترم بها ، وصنع غيرها مما لا يقدر المتكئ أن يترنم به إلا قعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم^(١) ، لأنه سما فى اقتداره على الغناء إلى أن يجعل فى نفس السامع تحركا لما يعنى بمعناه من الأشعار ، فيحملها على الكبر فى معرض المديح ، وعلى الحماسة والإعجاب فى مجال الفخر ، وعلى الرقة والصبابة فى استرسال الهوى ، وعلى البكاء والغصة فى موقف التذكير والوحشة ، وذلك فضلا عن إجادته فى ضرب العود ، ولقد كنت يوما بدار الرشيد وفى مجلسه عشر جوار يضرين على العيدان فوق خلل فى مجرى إصبع على بعض الأوتار فعرفه من بين أربعين ورا^(٢) تتحرك بين أناملهن ، فهذا اقتدار غريب على هذه الصناعة لا أظن أن اليونان قد بلغوه منها مع اتصال مدتهم أزمانا طوالا يستعملونها ويمارسون طرائقها .

(١) الأغاني ٣ : ٧٩

(٢) الأغاني ١ : ٢٠ وفى الحصرى ٢ : ٢٠٦ قال إسحق إنما يجيد الغناء من بقرع مسمع

كل واحد من الناس بالنحو الذى يوافق هواه .

وقد كتب إسحق رسالة مطولة في الغناء صحح فيها أجناسه وأنغامه وطرائقه وميزه تميزاً لم يقدر عليه سواه^(١) حتى لقد خطأ يحيى المكي فيما دون من الغناء ويونس الكاتب في الرسالة التي نسب فيها الأصوات إلى من ابتدعها من المغنين^(٢) غير أنه كان يرى ليونس فيما سبق إلى تدوينه من الأغاني ونسبتها إلى أصحابها فضلاً أعظم من فضل يحيى فيما حاول تميزه من الغناء على فساد جعل كتابه كالمطروح لكثرة تخليطه في رواياته^(٣) لأن هذا هو المذهب الذي يتعصب له إسحق وينظر فيه من يقول بضده من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مر في موضعه من الكتاب .

ومن حذق إسحق في صناعة الأنغام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان إلا فيما اقتبس من تقسيمات أفليدس^(٤) وما هو إلا الترتيب اليسير في جانب الكثير الواسع من علمه ، فقد ميز^(٥) أجناس الغناء كله ، وجعل الثقيل الأول أصنافاً ، فبدأ فيه بإطلاق الوتر في مجرى البنصر ثم أتبعه بما كان منه بالبنصر في مجراها ثم بما كان بالسبابة في مجرى البنصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقيل الأول صنفين الأول ما ذكرناه والثاني القدر الوسط من الثقيل الأول وأجراه المجرى الذي تقدم من تمييز الأصابع والمجاري وألحق بذلك جميع الطرائق والأجناس وأجراها على هذا الترتيب وميزها على أكثر من عشرة آلاف صوت للمغنين لم يغير فيها لحنًا واحدًا ، وذلك بخلاف الذين دونوا الغناء قبله وبعده فإنهم أضاعوا صناعة الغناء القديم إلا أحمد بن يحيى المكي المقدم ذكره في كتاب له في الأغاني ونسبها يقال له المجرد^(٦) فإنه أصل يرجع إليه ويعول

(١) الأغاني ٦ : ١٨

(٢) الأغاني ٥ : ٦٠

(٣) الأغاني ٦ : ١٧

(٤) الأغاني ١٥ : ٨

(٥) الأغاني ٥ : ٥٢

(٦) الأغاني ١٥ : ٦٥

عليه ، ولست أعرف كتاباً بعد كتاب إسحق يقارب كتابه أو يقاس به ، فكأنه قام على مخالفة أبيه ومن ذهب مذهبه في تغيير أصوات المتقدمين ، ورجع إلى الغناء القديم الذي سبق إلى التعصب له مغن يقال له «سياط» وقد على المهدي رحمه الله وأنا مقيم في الرسالة بخراسان فلم أوفق إلى الاجتماع به ، ولكن حسبي من تقدير موضعه الجليل من هذه الصناعة ^(١) أن إبراهيم وإسحق تلميذاه ^(٢) وإليهما المنتهى في إجادة الغناء .

لُمعة في علوم الفلسفة عند العرب

إن العلوم الفلسفية التي استخرجها العرب من كتب الأعاجم كانت مجهولة عندهم في صدر الإسلام بل في صدر هذه الدولة كما تقدم لك من الكلام إلا عند نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقى عنهم ^(٣) حكمة اليونان التي كانوا يحفظونها في خزائنهم بالأديار ، أما اليوم فإننا نجد في سكان الأمصار من العراق ومصر والشام وبعض أهل الحجاز إلا أعراب البادية لأنهم لا يوجهون عنايتهم إلى العلم ، وإنما همتم ارتياد المسارح والمزارع لحيواناتهم كما سبق الإلماع إليه في صدر الكتاب .

وهذه العلوم الفلسفية تنقسم إلى أنواع أربعة ^(٤) : رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية ؛ فأما العلوم الرياضية وهي النجامة والعدد والهندسة والغناء فإنهم نبغوا فيها النبغة التي لم تكن للتقدمين من أمم الشرق ، وقد تقدم في الكلام على النجامة ما يقضى بفضل المنجمين من أهل الموصل وخراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الأفلاك وارضادها ، كما أنك رأيت في الكلام على الغناء أن لإبراهيم وابنه إسحق

(١) الأغاني ٦ : ٦٥

(٢) الأغاني ٦ : ٩

(٣) المقدمة ١٩٤

(٤) حاجي خليفة : ٤٦٢

فما ابتدعاه من الأصوات الحسان فضلا تترين به هذه الصناعة عند العرب . واعلم (أرشدك الله) أنه لم يكن موضعهم من العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقابلة وهى صناعة استخراج العدد المجهول من قبل المفروض المعلوم^(١) إلا موضعهم من النجامة والغناء فى تحريرها وإصلاحها والاعتبار فى الأقسام التى تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الأوزان وغير ذلك ، وهذه هى العلوم التى يمتازون بها عن غيرهم من الأمم بما وضعوه لها من القواعد التى لا غاية بعدها فى الإصلاح .

وأما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه إلى كتاب لإقليدس المهندس من حكماء اليونان وكتاب آخر لبطليموس الذى أخرج الهندسة من القوة إلى الفعل^(٢) ، وقد عربت رسائلهما فى خلافة أبى جعفر ثم أعيد تعريبها فى هذه الأيام بمناظرة مهندس يقال له أبو كامل^(٣) جعل مقالات إقليدس فى جلد كبير سماه كتاب الأركان^(٤) ، وفيه خمس عشرة مقالة يبحث فى الأربعة الأول عن السطوح ، وفى الخامسة عن الأقدار المتناسبة ، وفى السادسة عن نسب السطوح بعضها إلى بعض ، وفى السابعة إلى التاسعة عن العدد ، وفى العاشرة عن المنطقات ، والقوى على المنطقات ومعناها الجذور ، وفى المقالات الخمس الباقية بحث واسع فى المجسمات ، ثم ألحق العرب بهذا العلم فن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية نقلا عن كتابين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان وفيهما بحث مسهب فى الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات ، وألحقوا به أيضا علم المخروطات نقلا عن كتاب لابولونيوس^(٥) من اليونان أيضا فعرفوا ما يقع

(١) المقدمة ٤٢٢

(٢) ابن نيانة .

(٣) هو مهندس ذكره الأغاني ٦ : ١٩١

(٤) المقدمة ٤٢٤

(٥) المقدمة ٣٥٩

من الأشكال والقطوع في الأجسام المخروطة وأفادوا التجارة والبناء ^(١) بما وقفوا عليه من كيفية رفع الأثقال وجرها وغير ذلك .

وأما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخطابة والجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك ^(٢) فإن إجادتهم فيها كانت دون إجادتهم في العلوم الرياضية ، لأن طبائعهم ما تهيأت للعناية إلا بقول الشعر كما رأيت ، وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمقيد لحاسن كلامهم ، وقد بلغوا فيه الغاية التي لا مطمح وراءها إلا ما كان من كلام النبوة ، وإن كان شعر الجاهلية جافيا لمكان أهله من الخشونة ومقامهم في الفقرين الإبل والوحش والمنازل الخالية ^(٣) فإن شعر المتمصيرين ليس بخال من رقة الألفاظ وجمال الصور وهم القاطنون بين فرش الحرير وأطباق الرياحين وآلات الطرب والقيان والندماء . ولقد نسمع عن أهل الأندلس أنهم يقولون شعرا أرق من النسيم ^(٤) وذلك لغزارة المياه في أراضيهم ونماء الرياحين في جنتهم وظهور ريح الصبا عندهم ، حتى كان المرتحل منهم إلى المشرق إذا استقبل النسيم الذهاب إلى الغرب ذابت نفسه من الشوق إلى تلك الديار التي ينفتح فيها الطيب على غصن أندلسها الرطيب فيقول ^(٥) :

وإذا ما هبت الريح صَبَاً صحت واشوق إلى الأندلس

وديار الأعراب قفرو وإقليمهم محرق للأبدان ومجنف للعقول وذلك مما لا يولده فيهم من رقة القول وحلاوته مانجده في شعر الأندلسيين .

(١) المقدمة ٣٥٨

(٢) حاجي خليفة ٤ : ٤٦١

(٣) الكشكول والأغانى .

(٤) راجع كتاب المقرئ وغيره من توارىخ الأندلس .

(٥) المقرئ .

أما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب في المنطقيات لأرسطو الحكيم (١) عربت في خلافة أبي جعفر (٢) بمنظرة عبد المسيح الحمصي وهو من أشهر النقلة بعد سلام الأبرش (٣) ، وقد اشتملت على رسائل ثمان ، أربع منها في صورة القياس وأربع في مادته (٤) ، وربما زادوا فيها بعض شرح وتفسير .

وأما علوم الخطابة والجدل والمغالطة فقد دونوا فيها مما استخرجوه من كتب اليونان أسفاراً كثيرة ولكن من غير تمحيص يرجع بهم إلى محاسن العلم إلا ابن العلاف (٥) خطيب هذا الزمان في رسالة له في الخطابة بدأ فيها بذكر سبحان وقس بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم في الجاهلية والإسلام إلى أن أتى على بيان القواعد التي تلزم الأدباء في الخطابة ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ وإثارة المعاني في قليل من الكلام .

وأما العلوم الطبيعية وهي علم المبادئ وعلم السماء وما فيها وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الأعاجم كمرجعهم إليها في جميع ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم قبل أبي جعفر كما ترى إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن في علم الكيمياء وهو النظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، فتوصلوا به إلى معرفة أمزجة المكونات وحقيقة المعادن والفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض

(١) كتاب أرسطو الخاص بالمنطق يسمى النص يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وهي كتاب المقولات وكتاب العبارة وكتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب الجدل وكتاب السفسطة وكتاب الخطابة وكتاب الشعر ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذب الصناعة ورتبت وأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمسة المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها فصارت سعا .
المقدمة ٤٢٩

(٢) المسعودي ٢ : ٤٠٠

(٣) حاجي خليفة ٣ : ٩٧

(٤) المقدمة ٤٢٨

(٥) ذكره ابن خلكان ٩٢

وغير ذلك^(١)، وكان الناس من أهل الأدب يصبون إلى هذه الصناعة بما في متوعاتها وممزوجاتها من تسلية الخاطر مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة ، حتى إن الملوك أنفسهم كانوا يتمهرون في استخراج المركبات ومزجها على غير ترفع عنها . فهذا خالد ابن يزيد بن معاوية الأموي قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودون فيها الرسائل الكثيرة حتى أفنى عليها عمره^(٢) ، وهذا جعفر الصادق أحد الأئمة الاثنى عشر ومن سادات أهل البيت قد ترك فيما ترك أكثر من خمسمائة رسالة في علم الكيمياء إلا أن هذه الرسائل لم تكن حاوية من العلم إلا ما وقف عليه أصحابها بطريق التجربة والاختبار ، فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجموعة حتى قام جابر بن حيان الطرسوسي وهو تلميذ جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه فكتب سفرا جليلا في علل المعادن^(٣) ودون الكيمياء في سبعين رسالة ربطها بأصول العلم ونبذ من مذاهب المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق في مجرباته ، وقد قسم هذه الصناعة إلى قسمين منها القوة النفسية وهي السيمياء ، ومنها القوة العلمية وهي الكيمياء ، وأدخل العلوم السحرية في السيمياء وذلك لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى صورة أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية . وقد وضع القواعد على منهاج لم يشركه فيه أحد ولا قدر على مثله حكماء اليونان أنفسهم ، ولذلك نسب إليه هذا العلم وصار علم الكيمياء يسمى بعلم جابر^(٤) أما الذين اشتغلوا فيها بعده فقد قصروا دون الغاية التي بلغها منها ، وربما أكب عليها جماعة بما طمعوا فيه من تكوين الذهب وإحرازه ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصنوعاتهم بالقواعد الثابتة بل جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طائوس وغيره ، وزعموا أن لهم طريقة

(١) الأغاني ١٦ : ٨٨ والعقد الفريد ٢ : ١٤٣

(٢) ابن خلكان ٥ : ١٤٦

(٣) حاجي خليفة ٤ : ٢٤٦

(٤) المقدمة ٤٦٣

لاستخدام الجن^(١) في هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه . ولا فائدة مما دونوه ووضعوه .

وأما العلوم الأهلية وهى السياسات والحرب والفلاحة وعلم الأخلاق وسياسة الأخلاق وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما نقلوه منها عن كتب اليونان والفرس ، وإنما ينفرد حسن نظرهم فى علوم الدين كما رأيت وفى علم الكلام الذى وضعوه تحفظاً^(٢) من العلوم الحكيمية إذ كانت تخالف الشرع الشريف^(٣) ، وقد رأيت لهم كتباً فى السياسة المدنية^(٤) يذكرون فيها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، وذلك أحسن ما لهم من التأليف التى فيها رأى ونصيحة ، أما غير ذلك من السياسات فلم يكن لهم منها إلا بضاعة مزجاة لأنهم لم يُعنوا بها قبل هذا الزمان ، ولا نعلم إلى أين يبلغون منها ولا ما تقرره فى نفوسهم من الفائدة وفى معاشهم وآدابهم من المنفعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وهوولى المؤمنين لا رب غيره ولا معين سواه .

أدب السير والحكايات

نُفرد هذا الباب لذكر الحكايات والقصص فإنها فن بل أدب قد هوت إليه أفئدة العرب ، وأول من سبق إلى تدوينه عبد الله بن المقفع وهو الكاتب المشهور بالبلاغة^(٥) والذى كان قائماً بديوان الإنشاء فى خلافة أبى جعفر^(٦) ، له كلام

(١) المقدمة لابن خلدون .

(٢) ابن خلكان ١ : ٦٨٧

(٣) حاجى خليفة ٣ : ١٠٠

(٤) ذكر هذا ابن خلدون فى المقدمة ٣٢ وابن خلكان ٣ : ١١٢ و ١١٤

(٥) المقدم الفريد فى باب الكتاب وابن خلكان والمقدمة والمستطرف ١ : ١٥٩

(٦) المحاضرة ٣ : ١٣٢

على الملوك يشهد بأنه كان عارفا بالسياسة^(١) ومقالات في البلاغة تشير إلى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه إلا أن أهل زمانه قد اتفقوا ، وهم دونه في العلم ، على أن يقولوا إن كلامه كان أكثر من علمه^(٢) ، لأنهم ما أحبوا أن يرفعوا عقله إلى مساماة البلغاء الذين أوتوا الحكمة واتته إليهم البلاغة . وقد كان تدوينه له في تعريب كتاب هندي يقال له كليلته ودمنه^(٣) وهو يتضمن حكايات وضعت على لسان البهائم والطيور وأشير فيه إلى سلائقها من الحلم والمكر والجرأة والجن والتيقظ والذهول والعقل والحمق إلى آخر السلائق لتتقيد العقول ورياضة الأخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة ، لأنه يستخرج من الأقوال الهزلية ضروبا من الحكمة البليغة ، وهو يشمل على غرضين سياسي وأدبي ، فأما السياسي فإنه داع إلى العدل وذاجر عن البغى ، وفيه بيان سلوك الملوك في آدابهم وتديريهم لأموالهم ومالكهم وما يجب عليهم من العدول عن اللهو والغفول إلى التيقظ والسهر وأن الفاضل من الملوك حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يقرب إليه أهل النيمة والفساد . وأما الأدبي ففي بيان المعاش في ظروفها وألوانها وسائر أحوالها والاقتصاد في تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغي لهم في سلوك الأمور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة ، ولذلك يعد كتابه من كتب الحكمة ، ونرى الفضلاء من الملوك قد أقبلوا عليه وطمحوا بأبصارهم إليه حتى إن كسرى أنوشروان أنفذ طبيبه برزويه إلى بلاد الهند لاستنساخه فترجمه إلى الفارسية ، ولم تزل الملوك تعظمه إلى هذا اليوم^(٤) .

(١) الفخرى ٣١

(٢) ابن خلكان والأغانى ٨ : ٧٦

(٣) ذكره المسعودى ١ : ٣٨ والسيوطى وذكر المسعودى أن عبد الله ابن المقفع كان عالما باللغة الفهلوية وأنه ترجم منها إلى العربية غير ثاب كليلته ودمته كتب كثيرة .

(٤) ذكر الحصرى أنب مهل بن هرون ألف في زمن المأمون كتابه المسمى « ثلثة وعشرة » يعارض به كتاب كليلته ودمته وأنه كان ظريفا عالما حسن البيان له كتب ظريفة صنعها معارضا بها الأوائل في كتبهم بما لا يقصر به عنهم حتى قيل له بزرجمهر الاسلام ٢ : ١٨٦

وقد وضع ابن المقفع في أول ترجمته فصلا سماه « باب غرض الكتاب » وأودعه من صنوف البلاغة والحكمة ما ضارع به سائر أبواب الكتاب ، وذكر أن أغراض واضعه « بيدبا » الفيلسوف تنقسم إلى أربعة فأحدها ما قصد إليه من وضعه على السنة البهائم ليسارع أهل الهزل إلى قراءته ، والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسا لقلوب الملوك ، والثالث أن يشتد الحرص عليه للزهوة في صورته فيتخذه الملوك والسوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطل ، والرابع وهو الغرض الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

ولقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مرة بل أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة^(١) ، وعهدى بجميع الكتب الأعجمية إذا عريت عريت إلا هذا الكتاب فإني رأيت في العربية أفصح منه في الفارسية ، وقد كان صبية البرامكة (حفظهم الله) يحاولون حفظه عن ظهر قلبهم ففطن لذلك أبان بن عبد الحميد^(٢)

(١) المقدمة ٢٥٧

(٢) ذكر في العقد الفريد ٢ : ٢٢٨ أن أبان بن عبد الحميد كان من ندماء البرامكة وله قصيدة أشدها للفضل بن يحيى فيها حلالة شمائله وبراعة أدبه يقول :

أنا من بغية الأمير وكثر	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب أديب لبيب	ناصر زائد على النصاح
شاعر مقلد أخف من الر	يش إذا ما يكون تحت الجناح
لى في النحو فطنة وتفاذ	أنا فيه قلادة لوشاح
لورى بن الأمير أصاحه الله	له رماح صدمت حد الرماح
بم أروى عن ابن سيرين في الفق	له بقول منصور الإنصاح
لست بالضخم في روائى ولا القد	م ولا بالمجمد الدحداح ؟
حلية كنة وأنف طويل	واقفاد كشعلة المصباح
وكثير الحديث من ملح النا	من بصير بخافيات ملاح
كم وكم قد خبات عندي حديثا	هو عند الأمير كالتفاح
أيمعن الناس طائرا يوم صيد	في غدو أو بكرة أو رواح
أعلم الناس بالجوارج والصب	سد وبالخرد الحسان الملاح
كل هذا جمعت والحمد لله	على أننى ظريف المزاح

ونظمه لهم بالشعر حتى يسهل عليهم استظهاره ، ويقول في مطلع ذلك الكتاب (١) :

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذى يدعى كليلة ودمنه
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

إلى آخر الأبيات فأعطاه يحيى عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل نصف ذلك جائزة على هذا الاستخراج ، لأنه كان بموضع جليل من البلاغة التى ورثها عن أبيه .
فقد كان عبد الحميد من فحول الكتاب الذين فتقوا أحكام البلاغة وفكوا رقاب الشعر (٢) ، وكان نخرا للمسلمين بما آتاه الله تعالى من البلاغة التى جمعت سحر البيان ، وأخذت يجامع الجنان ، يقال إنه لما ظهرت دعوة أهل البيت وكان عبد الحميد كاتباً فى دولة الأمويين قال لمروان سأصير عنك كتاباً إلى أبى مسلم فإن قرأه حصل عندنا وجه من الآمال وإن لم يقرأه ذهبت الدولة منكم ، فلما وصل الكتاب إلى أبى مسلم (رحمه الله) وكان عالماً بمكان عبد الحميد من البلاغة قال « أبقوا الكتاب على طيه فإنما فيه سحر غالب » على أنى لو سئلت التفضيل بين هذين الاستخراجين لقلت إن ترجمة ابن المقفع حقيقة بأن تكتب بماء الذهب وتحف بها خزان الملوك .

ولما رأى الأدباء إقبال الناس على الكتاب تسارعوا إلى تعريب غيره من كتب السير والخرافة ، فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس (٣) وفيه أخبار ملوك الهند وبناتهم وما يتخللها من الأمثال التى توسع العقول أدباً مع فكاهة وترويض أفكار ، وترجموا عن الفارسية كتاب هزار أفسان وسموه ألف ليلة وليلة (٤) ،

(١) الأغاني ٣٠ : ٧٣

(٢) العقد الفريد والمسعودى ٢ : ١٦٣ وذكر أنه أول من أطال الرسائل واستعمل التحييدات فى فصول الكتب واستعمل الناس ذلك بعده .

(٣) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٤) المسعودى ١ : ٢٩٦

ومعنى هزار أفسان ألف خرافة ، وكان السبب في وضعه كما هو معروف أن ملكا من ملوك الفرس كان إذا تزوج امرأة قتلها بعد يوم غيرة عليها من الرجال ، فزوج بيجارية من بنات الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها شهرزاد وفي بعض النسخ شيرزاد ، فلما اتصلت به أخذت تحدّثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة وليلة ، وإلى أن رزقه الله منها بولد طرحته إليه ، ووقفته على حبلتها عليه . وكان للملك قهرمانة يقال لها رسازاد أو دينارزاد ^(١) كانت موافقة لها على ذلك ، وفي هذا الكتاب دوت المائتي سمر لأن كل سمر كان يحدث به في ليال عدة ، وهي من أطرف الحكايات التي وضعتها الفرس في غابر الدهر .

ولما راج سوق هذا الكتاب تدواله النساخ والكتاب وأضافوا إليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يعهد فيهم من طول الباع في وضع الحكايات ولا سيما ما يتضمن أخبار الجان ووصف مساكنهم تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الأتس وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك إلى أن صار جملة ما في الكتاب حكايات عربية لا يحالطها من كلام الفرس إلا القليل ، وهي وإن كانت بعيدة عن الصدق تظهر فضل العرب في أنهم يمتلكون فؤاد السامع برقة مأخذهم في تجميلها وروثها ، كالذي زعموا أن صيادا ألقى شبكته في البحر وظل نهاره طوله لم يظفر بسمكة ، فلما أزمع الانصراف وقد أعياه الملل وضاق به الحيل جر الشبكة فإذا هي ثقيلة فطمع أن تكون قد اشتملت على حوت يستعيز بثمنه عن نصبه في ذلك اليوم ، فلما جذبها إلى الشاطئ وجد فيها ققما من نحاس وعليه خاتم سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، ففض ختامة فصعد منه دخان خيم على السماء ، فنظر في الدخان فإذا هو يجتمع ويتكون إلى أن وضع منه جان من صفته كذا وكذا . فلما تدانيا جرى بينهما حديث يقبض النفس هيبة وفرقا بحيث لا يتنبه السامع إلى

(١) كتاب الفهرست .

أن هناك خرافة ، فإذا انتهت الحكاية إلى ما أصاب الصياد من الجواهر والمال بعد أن خامره الروح وأفزعته الهول انبسط منه الخاطر المنقبض ، والتمس في نفسه مثلاً لهذا المسكين فوجده كثيراً في الناس فرجع إلى الحكاية فوجد فيها سرا يريده الكاتب من وراء الفكاهة .

ولإجماع الرأي على أن ليس في حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات وألطف صنعا ، فإن فيها من الوصف البارع ، والتمثيل الساطع ، ما ينطق بفضل العرب فيما تطرقوا إليه من وصف معاش الناس وأخلاقهم وما يتقبلون فيه من الأحوال التي توسعوا في وصفها ، إلى أدب جزيل الفائدة . فاما الحكايات التي ذكروا وقوعها في الإسلام فلا تبعد عن الأحوال التي تحدث ببغداد في أكثر الأيام اللهم إلا فيما كانوا يمزجون به أخبار الخلفاء من الخيال لنكتة يشوقون إلى الوقوف عليها مما اتفق وقوعه للولك ، مثل حكاية الخليفة الثاني وحكاية الخليفة والصياد إلى حكايات غيرها يظرفون بها الخبر عن الرشيد وجعفر ، أما ما ذكره عن طوافهما ^(١) مع مسرور ليلا في الأسواق متكرين عن أن يعرفهم أحد فإن ذلك ليس بالموضوع ، وقد ذكرت مثله في رسائل السالفة إليك غير أنني جردته عن المبالغة التي يزين الرواة بها أحاديثهم ، كوقوف الرشيد في موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصياد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجعفر تحت سيف ذلك الرجل الذي كاد يقتلها لولا أنهما تداركا أمره بحيلة وجدا بها السلامة والنجاة .

وأما الحكايات التي زعموا أنها وقعت في قديم الزمان وسالف العصر والأوان فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق وإنما أقبل خالق من العوام على تصديقها لانقطاع أخبار الأمم عنهم بحيث يتعذر عليهم معرفة غثها من سمينا ، ولأن ناقل الرواية كان يحدثهم بأن كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى في كذا من البلدان

(١) الاثليدي ١٢٦ والأغانى ٦ : ١٣٧ وغيرهم .

البعيدة الشقة المتفاوتة السبيل ، فلو حدثهم بأن في الشام مدينة من النحاس (١) أو بالعراق بلدا صار غدرا ثم انقلب مأوّه إلى عمارة وأسماكه إلى أناس ما صدقوا كلامه لأنهم يطرقون هذه البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع ، وإنما نقل إليهم أن ذلك كله في جزائر الوقواق وما وراءها من بلدان العجائب فأوسعوا صدورهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوقون إلى الوقوف عليه من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البداوة .

ومن أطرف ما ورد في حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كاعب حسناء . وغانية هيفاء . وشاعرة فصيحة وعجوز ذات دهاء وما توسعوا به في كلامهم عن العشاق ووصف هنائهم في التلاقي ، وتوجعهم أيام الفراق إلى وضع الحكايات التي ترتاح إليها القلوب بما تصف من النعيم الذي يبعد عن أن يتمتع به الناس وإنما هو صورة تتمثل في الضمير على سبيل التخيل ، كالذي يحكونه عن فتى من أولاد الملوك أنه وقع إلى جزيرة كل من فيها نساء وتجارها نساء وجندها نساء وكلهن آية من آيات الحسن والجمال ، وأنه قضى بينهن أياما من النعيم أقل ما أصاب فيها أنه كان إذا طرح الشبكة في البحر على سبيل التسلية نرجت له من الأصداف صبية من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجنان ، إلى غير ذلك من الوصف الذي يحرك القلب ويملك الجنان .

وقد حلا لي من حكاياتهم أيضا حكاية السندباد (٢) وهي تشتمل على الحوادث التي وقعت له في أسفار سبعة أتى عليها جميعا في طلب المال وفي كل سفرة عجيبة لم يسمع أحد بمثل ما فيها من المتالف التي وجد الكاتب مشقة عظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوه تدفع الناس إلى ركوب الأخطار لنيل العلا والفخار ، بما تمتلك به أنفسهم من ذكر جبال المساس وعيون العنبر وعجائب البلدان التي نزل بها السندباد .

(١) المسعودي وذكرها ابن خلدون في المقدمة ٣٢ في معرض الانتقاد على المؤرخين .

(٢) ذكرها المسعودي في موضعين من كتابه أحدهما في صحيفة ٢٩٦ من المجلد الأول ولم يذكر عنها شيئا والثاني في صحيفة ٣٨ وقال إنه كان في عصر كورس ملك الهند وذلك قبل زمن عيسى عليه السلام بثلاثة ستم سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد .

وعلى بعض السنة الأدباء أن هذه القصة ليست من وضع العرب إنما نقلوها عن الهند واليونان وأضافوا إليها ما يحسن أن يكون في كلامهم حتى نفوا العجمية عنها. وهذا كلام فيه بعد عندي ، لأني طالما سمعت روايتهم يحدثون بمثل ذلك ، وفي مطلع الحكاية أن الحمال لما اشتد به الحر فخط حمله على باب التاجر في ظل يتردد إليه النسيم الرطيب ، وتفوح منه ريح العطر والطيب وأنه كان يرى عزة ذلك التاجر في كثرة غلمانة ، ويسمع تغريد القمارى والشحارير في جنانه . وينشق من طعامه ريحا أحزنت منه النفس لانقطاع أمله منه وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال مما يستوقف الطرف ، ويشهد ببراعة الوصف فيما قصد إليه من بيان الفرق بين عيش الرخاء والنعمى ، وعيش الشظف والبلوى .

ولست أظن في هذه الحكايات السندبادية إلا أن واضعها رجل قد عانى الأسفار ، وتقلب على متون البحار ، حتى عرف ما بالأمصار ، من عجائب الآثار وغرائب الأخبار . وهذا شاهد على صحة ما ذكرناه من تقلب الكاتب في أيدي الأدباء الذين عرّف علم جميعهم عن أن يضمه صدر واحد من الرجال ، وإلا فإن في وصف الحروب من ذكر الكرو والفر وحيل الفرسان ما لا يستنبطه إلا من طال وقوفه في ساحات القتال ، وكذلك في نوادر الزواج والطلاق من المعميات ما لا يستخرج فتواه إلا فقيه مجتهد في الأحكام الشرعية أيما اجتهاد ، ولو لم يكن هذا الاستدلال صحيحا لوجدنا في اختلاف الأقلام دليلا واضحا على اشتراك الأدباء في تأليفه ، لأننا نجد فيهم من يسترسل في المغالة إلى أن يذكر عن فارس من الفرسان أنه قتل في معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس في الإمكان إحصاء عددهم في يوم واحد فكيف يقتلهم ؟ ثم نجد من رسم قواعد الرواية على منهاج لم يتعدّه إلى ذكر المبالغة التي بعدت دلالتها عن الصدق ، وإنما ذكر الأخبار للنظر في عادات الناس وأخلاقهم وكيف يتقلبون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان ، وذلك مثل ما قصد الأدباء إليه في كلامهم عن العرب من ذكر المحاسن التي تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والمروءة والعفاف ، والمساوئ التي تفاخروا لأجلها في طلب

النار وإدراك الغنائم ، أو مثل ما قصدوا إليه في حوادث زماننا هذا من ذكر أخبار النساء كما هي ، إلى غير ذلك من وصف العادات المترفة التي وقعت في بغداد لهذا العهد ، وهذا هو النوع الخاص الذي أرتاح إليه من حكايات ألف ليلة وليلة لأنه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة ، وفيه حسن وبراعة وصف لا مثيل لها في أدب الحكايات .

تدوين الأخبار وأيام الناس

إنما وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالأسفار في أطراف البلدان حتى تجاوزوا الصين إلى ما وراء قرغانة ^(١) ، فاستفادوا بذلك غير ما كسبوه من الأموال أحوالا شاهدوها وعادات جروا على سنتها ومباني حاكوا منها الزينة والإحكام ، وشرائع تفقهوا في استخراج ما فيها من أحكام .

وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم إلى الديار أن يحدثوا الحى بغريب ما نظروه ، وعجيب ما سمعوه . فمن تلك الأخبار المنقولة ما اتصل بي من أن في بعض الأمم رجالا عراض الوجوه سود الجلود لا يزيد طول أطولهم على أربعة أشبار ^(٢) ، وفي جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وأن منهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كرأس الكلب ، ومن جسمه بحجم الثور أو الأسد ^(٣) ، ولقد سمعت من يحدث أن من البلغار من طوله أكثر من ثلاثين ذراعا يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الطفل الصغير ، ويكسر بيده ساقه كما تقطع باقة البقل ^(٤) إلى غير ذلك . ولست أظن هذه الأساطير التي يتناقلها الأخباريون من أهل الأسفار إلا أنهم رأوا رسومها على الآثار التي خلفها الهنود والفرس والقبط السالفة من قوم فرعون وغيرهم من أهل

(١) يستدل على ذلك مما دونته رحالة العرب وعلماؤهم في الجغرافيا .

(٢) ابن خرداذبة ٦٣

(٣) القرمانى ٥ : ٥٤

(٤) المستطرف ٢ : ١٦٢

الأعصر الحالية فحدثوا بها رجما بالغيب ، أو تحصيلًا لليقين من الريب . ظنا منهم أن أمثال هذه الخلائق المشوهة عاشت في قديم الزمان . أو أنها لا تزال فيما قصا عنا من البلدان .

ولما دارت هذه الأساطير بين الناس وتناقلها الندماء والجلالاس ، أسفق العلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها أو امتزاج الحكايات الباطلة بها فتسارعوا إلى تقييد التاريخ في الأوراق حتى لا يتشوه على تهادى الأيام ، بتداول الرواية على ألسنة العوام . وقد كان شعر العرب محفوظا في صدور أهل العلم فنقلوه إلى الكتب للدلالة على ما يرومون إثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم وعاداتهم من أمثال هذه الأسانيد المحفوظة ، وهم يوقنون وقوع الحوادث السالفة مثل ما كان يوقته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى في أيام كسرى وهذا في حرب البسوس إلى غير ذلك ^(١) وأما الحوادث التي وقعت في الإسلام فقد أزرخواها بالسنين والشهور والأيام وكانت أصح في النقل والرواية من أخبار الجاهلية ، لأن شأن الرواة فيها من الخلاف والاختلاف والمخالفة أشهر من أن يذكر ، والحوادث إذ ذلك محفوظة بالأنواء وطلوع النجم ، ولم يسلم لهم من الفساد إلا علم الأنساب الذي حفظته فيهم العصبية ^(٢) حتى اتصلت أنساب أشرافهم إلى أولاد إبراهيم (عليه السلام) مثل أنساب قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات .

وأول من سبق إلى تدوين التاريخ محمد بن إسحق ^(٣) في كتابه عن المغازي والسير وأخبار المبتدأ ^(٤) ، ولم يكن التاريخ قبله مجموعا ولا معروفا ولا مصنفا ، ^(٥) ثم

(١) راجع كتاب الأغاني .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد .

(٣) حاجي خليفة ٣ : ٦٤٣ وذكر أبو الفداء وابن الأثير أنه مات سنة ١٥٠

(٤) المقدمة ١٧٠

(٥) المعهودى ٣ : ٤٠١

أخذ أهل العلم في تدوينه بعد ذلك . ووضع مجد المعروف بالواقدي كتابا في فتوح الشام ضمنه كثيرا من سير الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) وأتى على ذكر الحروب التي سَّعرت نارها على عمال الروم ، إلا أني رأيت يسوق الحديث في كلامه عن الجند والقتلى جزافا فيقول إنه سار إلى قلعة كذا فجمع ألفا من المسلمين وإلى حصن كذا وكذا رجلا وإلى البلد الفلاني كذا خلقا عظيما مما لوجع إلى ما فرقه على سائر الحصون والقلاع لم نجد قدر نصفه في جنود المسلمين كما ثبت عند أئمة النقل ، وكذلك إكثاره في عدد القتلى من الروم كان يقول إنه قتل منهم كذا وكذا من الآلاف مما لم يكن في جندهم مثله في جميع ما لهم من البلدان ، فربما انفرد الواقدي في علم الفقه والحديث ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم .

وقد دَوَّن التاريخ بعده حماد الراوية وعبد الله الأصمعي وهما يعرفان أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ويمليانها عن ظهر قلبهما إلا أن الخلل في رواية حماد أنه يقول الشعر على لسان المتقدمين ^(١) فيما يروم إسناده إليهم من نكتة أو من خبر فهو إلى المؤاخذة بما يدخل على التاريخ من الأخبار الموضوعة أقرب منه إلى الشناء على ما يضعه من الشعر الذي لا يفترق عن كلام الجاهليين . يقال إنه روى لهم ألفين وتسعمائة قصيدة ، لكل حرف من الحروف الأبيجدية مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات ^(٢) . وأما الأصمعي فليس ثمة من الأمور التي تنتقدها عليه إلا أنه كثير الرواية واسعها حتى يكون فيها بعض المِرْيَةِ عند كثير من أهل العلم ، وليس ذلك لغرابتها أو لبعدها عن الصدق بل لكثرتها فيما نقل بمدونات ، وهذا لا ينقص فضله في العلم ، ولكنه من باب تعظيم الشيء الذي يزيد قدره على أن يكون مثله في صدر رجل .

(١) الأغاني وابن خلكان .

(٢) الأغاني ٥ : ١٦٥

ثم إنى وجدت الأصمعي وحامدا كليهما قد وقعا في الخطأ والقصور اللذين وقع فيهما أهل الرواية قبلهما وبعدهما . فأما الخطأ فهو إعراضهم جميعا عن ذكر محاسن الأعاجم من هو خارج عن دين الإسلام حتى لا يشغلوا كتبهم بذكر مذاهب كفرهم ^(١) كما يقولون ، وأما القصور فلكونهم يذكرون الحوادث من غير أن يستوعبوا مبادئها وغاياتها ولا أن ينظروا في عللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا على الملوك معانيهم فيما سقطت به دولهم بعد أن تسلموها بمكان عظيم من النفوذ والسلطان ليكون في انتقاد الأشياء تذكرة للناس ، ويظهر فضل التاريخ على سواه من العلوم الأدبية ببيان المحامد التي يسترشد بها والمساوى التي ينبغى الاستنكاف منها والتنبك عن سبيلها .

هذا ما أعلقه في هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم بالفضل الجزيل فيما تمهروا في استخراجها من كتب الأعاجم ونظروا فيه نظر بصيرة واجتهاد من جميع العلوم والفنون والصناعات ^(٢) ، إذ كان لهم غير من ذكرنا من العلماء كثير من النقاشين والمصورين والصناع مما يدل على أن لهم صورا على الورق الصقيل ^(٣) تظهر خارجة وليست بخارجة ، وداخلية وليست بداخلية وفيها كل غريبة من الإبداع ، ورأيت من رسومهم على الانية والأعمدة والقباب ما يبهير البشر في إحكام الصناعة مع الخلاوة وتمازج الزينة مع الحسن والطلاوة ، وهذا كله قد توصلوا إليه في عصر الرشيد وملوك البرامكة (أعزهم الله) وقد سمي بالعروس ^(٤) لخصبه ونضارته وكثرة خيره وانتشار علمه في جميع البلدان الإسلامية

(١) المقدمة ٢٠٣ وابن حوقل وغيره .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون وكتاب حاجي خليفة .

(٣) كلبلة ودمية .

(٤) المسعودي ٢ : ٤٠١ والشرقاوى ١٢٢ وفي الحصرى ٢ : ١٠٣ كانت أيام البرامكة

روض الأزمعة .

ولعمري إن فيما ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهدا ناطقا ببلوغ الغاية من العمران إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم في كل عصر ومكان .

وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أول شهور السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة نبينا المحرم (صلى الله عليه وسلم) والله نسأل أن يجعل حالنا بالستر الجميل ،
لأنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، لا رب سواه .

الرسالة الثامنة

رسالتى إلى قيصر الروم

هذا تاسع كتبى إليك أفردته لذكر الرسالة إلى أنبرذور الفرنجة ، وأنا أكتبه اليوم على متن السفينة فى البحر الفاصل بين الروم وإفريقية . كان الرشيد يوم وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة ^(١) قد استدعانى إليه فأصبته فى مجلسه متنقلا كأنه يريد أمرا عظيما ، فاستدنانى ^(٢) إليه وقال إنا أتانا من ملك الفرنجة رسول يُقرئنا منه السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج إلى بيت المقدس من ملته ، فرأينا أن نوجهك إليه بطائف نروم منه أن يتقبلها فى سبيل المودة لغاية رُغْب فيها إليه هى التعصب على بنى أمية الذين يمزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب ^(٣) ، فإذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه فى هذه الرسالة ، واجهد فى أن تسترق قلبه بخلاصة لسانك ، وتقدم إليه بالوعد الجميل فى أننا نوفيه حقه يوم الفتح . ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونجوزى الأرزاق الواسعة على جنده وتقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من المال والجوهر ، واستصحب معك هذا اليهودى الذى جاء به رسوله فهو يترجم عنك إليه ، وخذه بالتعظيم الكثير لأنه شيخ مترف جليل القدر فيما نقل الرسول إلينا ، وقد قدمنا إلى مسرور أن يصحبك بالخدام مع الدواب والخيام إلى بيروت من ساحل الشام ، فإذا عدت إلينا وأنت آخذ على مصر أمرنا الليث أن يوجه

(١) هذه اللفظة لقب رومى للقيصرة وقد وردت فى كتب العرب ووجدت فى ابن خلكان

١ : ٨٤ لفظه أنبرور بخذف الدال وهى تشبه أن تكون متقولة عن الفرنسية .

(٢) فى الأغاني ٤ : ٨٤ أن الخليفة يستدنى من يحبه .

(٣) راجع المقرئ وابن الأثير تجد كلاما مطولا فى هذه الحروب .

معك طائفة من الحرس إلى عيذاب فتوافينا إلى البلد الحرام حيث توافقنا حاجين ،
فسر على بركة الله ، وإياه نسأل أن يتولاك بعين الحراسة ، ويهدي قلبك الصواب
وهو ولي التوفيق .

فلما أذن لي بالانصراف أتيت البرامكة لأستطلعهم رأيهم في المصلحة فلقيت
جعفرا منتزها في البستان وبين يديه جماعة من الندماء . فلما أقبلت عليه قال انخرج
عما بنفسك وحدثنا عن سفر البحر ، فقلت وأنى ذلك ؟ فقال علم الله أنى أنا
الذى أشار على الرشيد بأن يوجهك إلى ملك الفرنجة رسول خير ومودة وسلام .
ثم أوما إلى الجلاس فتنجوا عن موضعنا ، فاستدنانى إليه وقال بى أوصاك ؟ فقلت
بكنا وكذا من الأمر ، فوجم ساعة ثم قال سبحان الله إلام يتأدى به تغرير القتال ؟
لقد أشرت عليه بأن يعدل عن مناجرة الأمويين ، لأن لنا فى الشرق ما يشغلنا عن
قتالهم ، وفى الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة فى كل حين ما إن ضعضعنا عنهم مرة
واحدة فسدت دولته فسادا لا تقوم لها من بعده قائمة . وإن يكن الرشيد عن
موعظتى غنيا بما عنده من العقل والعلم فإن الملوكة قد تطمح نفوسهم إلى ما وراءه
الشر من طمع الاستيلاء ، وقد قال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم
تسؤكم » (١) ، فما لنا وللامويين وقد كفانا الله شرهم ، فإن كانوا فى شقاق
فلندعهم ينادون بالويل والحرب إلى ما وراء البحور ، وليس لنا أن نلقى برجالنا
فى المواضع المحيضة ونوردتهم موارد الهلاك ، فإنى أرى الجند يفتنون قبل الإشراف
على تلك المتالف ، كما أنى أحسب الأنبرذور على ما يؤثر عنه من إيثار الرفق ولزوم
التؤدة بعيدا عن موافقته على ما يروم من الإيقاع بملوك أمية ، وهم مطمئنون
فى ديارهم معتصمون فى قلاعهم وقد عمروا أمصارهم ودقنوا دواوينهم وشكوا
فى حصونهم واتخذوا الأهبة لهم والعدة والكراع ، ودون الاستيلاء على ديارهم

(١) سورة المائدة .

شيب الغراب (١) ، ولقد كان أولى بالرشيد أن يرى دول الأندلس درعا منيعا للإسلام وسيوفا مشهورة على الروم ، لأنها لو دخلت في حوزته لم يأمن إن أرسل الجند أن يخونه القواد أو مات الأبرذور عن خلف لا يرعى اليهود أن يوجه من يقبض على عمالها من لدنه ، وقد بدا لي أن أعاوده في هذا الشأن فإت رغبا عما فرط منه وإلا فليفعل ما كان فاعلا لبلوغ أمنيته .

فلما كان الغد بكر جعفر إلى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقابل عليه الكلام ويخضه الرأي والنصيحة ولكن من غير أن يقوم ما بنفسه من الميل ويعيد به عن ركوب هذا المركب الوعر . فاستدعاني إليه وسأمني كتابه إلى الأبرذور وأمرني بأن أتجسس أخبار العمال وأتفقد أمورهم حيث مررت . وأوصاني برجل من الأمويين في دمشق كثير المال كبير الجاه أن أتحقق حاله حتى إذا كان يخشى منه استمالة أهل الشام إلى الفتنة رفعت ذلك إليه ليتدبر أمره (٢) ، ثم قال وإذا مثلت بين يديه « يريد قيصر الروم » فقل له عن أمية إنهم قوم قد كفروا بالنعمة وتركوا فروض العبادة وسعوا في الأرض فسادا وأنا أحق بالملك منهم لمكانتنا من قرابة النبي صلى الله عليه وسلم . ثم أذن لي بالانصراف ، وكان يظهر من الميل إلى وجميل العطف عليّ بحيث كان يدعوني بلفظة « لبيب » (٣) كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه .

(١) نقلت الأخبار السالفة عن ملوك أمية أنهم لما هربوا من دمشق إلى الأندلس ووجدوا إيماناً فيها غير مذعة لدولتهم فأتوهم قتالا أحبوا معه الموت أو يحصلوا على لقمة تبق الرمي وبلغ استقتالهم في سبيل الملك إلى أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل أنه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جموعهم فقال لأحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه اكسروا جفون السيوف فأموت أول أو الفظفر « ابن الأثير ٦ : ٤ » .

(٢) ذكر الألبدي ١٢١ والأبشي ١ : ٨٤ قصة ظريفة عن هذا الأموي فليراجعها هناك من أحب .

(٣) ذكر الأغاني ٦ : ٥٧ أن الخليفة لا يرفع عن أن يدعو بعض خواصه بإحبيي وقتل صاحب العقد من نوادر إسحق أنه لما دخل على المأمون استنداه إليه فدنا منه قال إسحق فرجع المأمون يديه فانكأت عليه فاحتضنت يديه وأظهر من إكرامه وبري ما لو أظهره صديق لي مواس لسرى ٣ : ٢٤٠ .

وكان في لطائف الخليفة إلى الأبرذور فيل عظيم ابيض كان عند المهدي (رحمه الله) أرسله له بعض ملوك الهند ^(١) ، وثياب فاخرة من الوشي المنسوج بالذهب ، وبسط ديباج من طبرستان ، وأعطار من اليمن والحجاز ، ومسك وصندل وأعواد تد من الهند ، وسرادق عظيم مجلل بأنواع الحرير وكلاييه من الذهب الملبس بالوشي ، ومزولة كبيرة تدل على الأوقات في ليل ونهار ، وهي من عمل صناع بغداد ، وشطرنج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش ، صنعه نقاش من النصاري اسمه يوسف الباهلي ورسم اسمه على الأداة التي تمثل الشاه ، وهي من الحسن بحيث إن الناظر إليها يكبر صناعتها وقد مثل فيلًا يلف خرطومه على فارس وعلى رأسه جندي قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرسان يراد بهم الرمز إلى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهره هودج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حير ^(٢) ، وقد أظهر هذا الرسام في تصويره من الخلق ما يستحق عليه الثناء ، لأنه مثل أصحاب الفيلة كما هم ، وجعل في آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساور وعلى أبدانهم القراطق وهي لباس الهنود ، واتخذ عدد الخيل مزخرفة وصنع لها السروج والأزقة ، وقلد الفرسان شيثا من السلاح ما عدا الجندي الذي أخذه الفيل بخرطومه فإنه يعالج نفسه للتخلص مما هو فيه ، وقد طرح سلاحه على الأرض وعليه سمة التوجع والانكاش ^(٣) مما يشهد للممثل بأنه من مهرة الصناع .

المرور بالكوفة وبلاد الشام

لقد رسم لي طريق الوجهة بأن أسير إلى الكوفة ثم إلى دمشق ثم إلى بيروت على ساحل البحر ، وكان مسيرنا في غاية البطء رفقا بالفيل والدواب المثقلة بالأحمال ،

(١) ذكره الأغاني ٩ : ١٣٦

(٢) ذكر تيجان ملوك حير صاحب مروج الذهب ٢ : ٢١٥

(٣) هذه الأداة لم تزل إلى هذا اليوم محفوظة عند الفرجة وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك .

فاجتزنا بعد الانفصال عن الحاضرة بمدينة النيل التي مصرها الحجاج^(١) ، وهي
بمتصف ما بين بغداد والكوفة^(٢) ثم عطفنا إلى الأنبار^(٣) ثم إلى مدينة الكوفة
فقرلت بها في رحبة خُنَيْس الأنصارى من أجداد أستاذى أبى يوسف رحمه الله^(٤) ،
وهي في مقابلة الباب الكبير المعروف بباب الفيل^(٥) ، وقد طاب لى المقام بين
أهلها لما وجدت فيهم من الحب لأهل البيت^(٦) ، (شرفهم الله) ولا ستمًا فى قوم
كندة من ملوك النصرانية ، وهم من غلاة الشيعة^(٧) وأكثرتهم عالم وحكيم وأديب
كان بيتهم معدن العلم ومظهر الحكمة ، وقد لقيت منهم إسحق الكندى وهو عامل
الرشييد على الكوفة ، قلده الإمارة بإيعاز البرامكة الذين يحافظون على تأييد
الشيعة^(٨) ، ويغنون من ألف الرعية فيما بينهم تعظيم الإسلام فى انتفاعه بحكمة
الأئمة وعلومهم وصناعاتهم ، وقد جروا فى ذلك على سنة أبيهم خالد (رحمه الله)
وهو الذى قرب بعض النصارى إلى أبى جعفر كما تقدم فى موضعه من الكتاب .

ولقد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق^(٩) ، وهي ذات ماء وشجر
ونخيل^(١٠) ، وقد رُت أن تكون فى الكبر كنصف بغداد ، فحق تسميتها
بالكوفة لاجتماع الناس فيها ، من قولهم تكوف الرمل إذا ركب بعضه

(١) الفتاوى ١٣٥

(٢) باقوت ٣٤ : ٨٨٣

(٣) المسعودى ٣ : ١٤

(٤) باقوت ٣ : ٧٦٢

(٥) الأغاني ٥ : ١٦٦

(٦) هذا معروف فى كتب المؤرخين وذكر أبو الفدا ٣ : ١٤ أن كبير علماء الكوفة كان يميل

مع الإمام على كرم الله وجهه .

(٧) الوطواط ١٢٥

(٨) المحاضرة ٢ : ٨

(٩) ابن جبير ٢١٣

(١٠) الفتاوى ١٣٦

بعضاً (١) ، وقد زارني فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد ، ولكنني لم يتيسر لي زيارتهم لِقصر الوقت ، ولقد وجدت إسحق أميرهم من العلم والعقل بالموضع الذي أكتفى من الدلالة عليه بأن آسف لبعده عن الإسلام . وهو يسكن داراً مباركة تعزى إلى عقيل بن أبي طالب (٢) ، وهي بإزاء المسجد المبارك الذي قال فيه بعض الصالحين إن ركعتين فيه تعدلان عشرين سواه من المساجد ، وإن البركة منه إلى اثني عشر ميلاً من حيث أُنشئته (٣) ، وقد زرت قبيل الانفصال عن المدينة ولم أرفى عمد المساجد كلها ما هو أطول من عمده (٤) ثم زرت مشهد علي عليه السلام (٥) ، وتبركت به وقرأت عنده شيئاً من القرآن .

ولما انفصلت عن الكوفة تخلفت عني الدواب المحملة ، فانقطعت في الفلاة مع جماعة من الحرس ، ورحنا نقطع القفر بعد القفر ، حتى إذا عظمت على مشقة السفر تذكرت طيب بغداد وظرائفها (٦) وحننت إلى مجالس البرامكة والدأر عندهم جامعة ، وأوقات الأُنس بها رائعة ، فكنت أقول ممثلاً بكلام إسحق النديم (٧) :
على أهل بغداد السلام فإنني أزيد بسيري عن ديارهم بعدا
إذا ذكرت بغداد نفسي تقطعت من الشوق أو كادت تذوب بها وجدا

(١) تقويم البلدان ٣٠١

(٢) الأغاني ٤ : ١٨٢

(٣) ياقوت ٤ : ٣٢٥

(٤) ابن جرير ٣١٣

(٥) تقويم البلدان ٣٠١

(٦) القزويني والأغاني ٥ : ٩٤ و ١٧ وفي غير موضع .

(٧) الأغاني ١٧ : ٧٥ وذكر ياقوت في صحيفة ٦٨٨ من المجلد الأول أن الرشيد أنشد البيت
فربما لم يكن الشعر له بل كان من نظم إسحق لأنه كثيراً ما كان يذكر بغداد ويشوق إليها وهو في أسفاره
مع الرشيد ويقول :

ذكر الأحبة فاستحقّ وهاجته للشوق نوح حامية وحامه
لم يبيده في الصدر إلا أنه حيا العراق وأهله بسلام

ولم أزل مجدا في السير حتى بلغت دِمَشق في ائتمى عشرة ليلة^(١) ، ولو أنى
سرت تحت جناح الليل لبلغتها في ثمانية أيام^(٢) فما دونها ، فزلت فيها عند قاضيا
الإمام عمر بن أبي بكر بن تميم القرشي العدوي^(٣) في دار بناها عويمر أبو الدرداء ،
وهو أول من ولي القضاء بِدِمَشق ، وكان القضاء فيها يسكنون قصر الحجاج^(٤)
المعروف بالقصر الكبير .

أما الشام فإنها بلاد مباركة كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات ، إلا أنها نكدة
الحظ في تغلب الأمم الغازية عليها ، ولذلك قلت عمارتها إلى هذه الغاية بعد تغلب
الكلدان عليها والفرس الأولى والفراعنة واليونان والروم والفرس الثانية ولا سيما
قبيل أن يظهر الإسلام ، وقد كانت تمزقها الحروب التي تسعرت نيرانها بين
بنى عامر المتغرضين للفرس وآل غسان المتغرضين للروم ، فانتقض عمرانها ودرست
سبلها وتداعت أحوالها إلى الانحلال بعد أن كانت في عظمة لم يكن مثلها في الدول
إلا قليلا ، وكانت فيها التجارة كأعظم ما يكون من النفاق والعلوم والصنائع سوق
رائجة رابحة فدرست تلك المحاسن وتقلصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من
مصانعها غير رسوم شاخصة وآثار ناقصة .

وإنما دعا أهلها إلى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمح بأبصار الملوك
إلى التهامهم ما وقع بينهم من الشقاق وما كان في نفوسهم من التحزب

(١) الأغاني ٥ : ١٦٦

(٢) الاثليدي ٢٦٣

(٣) قضاة الشام .

(٤) الاثليدي والمستطرف ١ : ٢٨٧

الذى هو أشد من الفتنة^(١) ، فكان ظهور المرسلين فيهم سببا لتعصب بعضهم على بعض وإن كانت مواظبتهم داعية إلى المحبة والاتحاد . وهذا هو الأمر الغريب الذى لم يسمع بمثله فى البلدان ، فلقد كانت الشام مهبط الوحى ومسقط النبين وموطن الأولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الأنصار لنفوسهم ويرومون إدخال الناس فى شيعتهم ليجمعوا ما كان شتيئا من شملهم ومتفرقا من كلمتهم وأغراضهم ، إلا أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التى كانوا يرومونها من أمرهم . فانما الواجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الألفة وألا يتعصبوا بميولهم إلى غير ما يقصدون منه الوحدة فإن عظمة الأمم لا تحصل إلا بالاجتماع والعصبة ، سنة الله فى خلقه . انظر إلى الدول الرومية كيف عيث بها العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزؤ ، وانظر إلى الدولة الأموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة إلا عند ما تحالف عليها صبيتهم^(٢) فيما يرومون إليه من طمع النعيم ، وانظر إلى أهل البيت السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشدة يوم تفرقوا على أغراض لا تجمع بينهم إلى الوحدة ، فلما اجتمعوا فى المغرب إلى إدريس بن إدريس (رضى الله عنه) قام لهم ملك يرجف له الشرق ، فإن تنظر إلى ذلك كله وإلى كثير مما وقع وما هو واقع فى الممالك تجد أن الأمم لا تقوم دولهم إلا برابطة الاجتماع والعصبة ، ومتى تسقط من روابطهم تلك الأوصال ينذر أمرهم بالانحلال وتتداع أحوالهم إلى الاضمحلال .

(١) هكذا كانت الشام فى زمن الجاهلية والإسلام فإن مصعب بن الزبير لما خطب الناس قال بسم الله الرحمن الرحيم طمئنت تلك آيات الكتاب المبين تنزل عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين أشار بيده نحو الشام وهو يريد أن به إلى يومه مثل ذلك .

(٢) ذكر صاحب العقد الفريد أنه قيل لبعض بنى أمية ما كان سبب زوال ملككم قال اختلاف بيننا واجتماع المختلفين علينا .

وصف دِمَشْق وأنها بهجة البلدان

ولما وفدت على دمشق وسرحت الطرف ناحية الغوطة امتلأت عيني من خضرة الأرض حتى تخيلت نفسي في جنة من جنات السماء ، ولا غرو فإن مياهها وأشجارها ورياحينها لأفضل ما في الدنيا من المتزهات ^(١) ، يسير الرجل في رياضها يومه لا تصيبه أشعة الشمس لانتفاف شجرها بعرضه على بعض ، وهي في أسمى مقام بين مدن الإسلام ، بعد دار السلام . قد اشبتكت فيها العجالة ^(٢) وتزهت عن المثل في النظارة . لكنها ليست بالمفرطة في الكبر ، وربما كانت إلى الطول أميل منها إلى العرض ^(٣) ، وهي لا تخلو من السقايات ^(٤) في أسواقها ولا بيوتها ، ومبانيها طبقات فوق طبقات ^(٥) وتحتوي من الخلق على العدد الكثير ، والناس على مذاهب فيمن بناها من الأولين . فمنهم من يقول إن عادًا أول من نزلها من الناس وإنما هي إرم ذات الجاد ^(٦) ، ومنهم من يذهب إلى أن بانيها الغادر غلام نمرود ^(٧) أو دمشق بن كنعان ، ومنهم من يزعم أن الذي اختطها هو دمشقس مولى الإسكندر الرومي ، ^(٨) ومنهم من يرى غير ذلك . إلا أنه ليس فيما يقولون حجة ترجع بهم إلى محاسن التحقيق في وثائق الآثار ولا سيما عند الذين يعزّون بناءها إلى الروم ، فإن الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويل بعد أن أتى موسى كليم الله على

(١) تقويم البلدان ٣٥٣ وابن خرداذبة ١٢٤ وياقوت ٢ : ٥٨٩

(٢) القزويني ٢٦

(٣) ابن جبير ٢٨٥

(٤) المقرئ ٣٠ وابن جبير وابن بطوطة وياقوت ٢ : ٥٩٠

(٥) ابن جبير ٢٨٥

(٦) ابن خرداذبة ٧١ والقرماني ٥ : ١١٨ والشريشي ١ : ٢٠٧

(٧) الكزنجي ٢٣

(٨) القرماني ٥ : ١٩٣

ذكر دمشق في غير ما آية من كتاب التوراة . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في ذلك فإن هي إلا مدينة أولية ^(١) قد صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جفنة وبنى أمية دهرًا طويلا ونالت من العزة والعارة ما قل أن يناله غيرها من المدن ، ولو كان البناء الذي شاده فيها الملوك من الحجر الصلد ثم بقي ماثلا إلى هذه الأيام لكانت دمشق زينة الدنيا ، ولكنه شيد من طين ولين فأتى عليه الانحلال ومحت الأيام آثاره ^(٢) فلم يبق منه إلا قلعة من الحجر تعزى إلى الروم ^(٣) وقصر يقال له قصر جيرون عليه أبواب عجبية من النحاس ^(٤) وبناء يقال له البريص فيه كثير من العمد ، وتزعم العامة أنه كان يجري منه الشراب في قديم الزمان غير أن أركانه اليوم قيام وقعود . وحيطانه ركع وسجود ^(٥) ، وقصران من الحجر لعمر بن عبد العزيز ^(٦) وللوليد بن عبد الملك ^(٧) وهما جميع ما تخلف عن ملوك بني أمية ، لأن ما نجا من معول الزمان لم ينج من معول أبي جعفر ^(٨) ، كما مر في موضعه من الكتاب .

ولقد وجدت أهل دمشق أحسن الناس خلقا وخلقا ، يكرمون الفقراء ويتامسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم في صورة السائل ^(٩) ، ولو أن فقيرا أعرض عن كسرتهم لقالوا ويحنا لو علم فينا خيرا لتناول من طعامنا ^(١٠) ، وقد بلغني عن

(١) تقويم البلدان ٣٥٣

(٢) فلائذ العقيان ٥

(٣) ابن جبير ٢٩٠ وتقويم البلدان ٢٥٣

(٤) المسعودي ١ : ٢٤٢

(٥) المسعودي ١ : ٢٩٧

(٦) ابن جبير ٢٩٣

(٧) المقدمة ١٥٤

(٨) ابن الأثير والمسعودي ٢ : ١٤٣ والخميس ٢ : ٣١٤

(٩) الأبرشي ١ : ١٢

(١٠) ابن جبير ٣٨٨

فضلاهم أنهم يزهدون في الدنيا وينقطعون إلى الله تعالى متبتلين في جبل لبنان^(١) ، غير أني لا أطلق هذه الرواية إلا على فئة قليلة من الصالحين ، لأن جمهورهم مائل إلى اللهو والطرب ولا سيما في يوم السبت ، فإنهم لا يشتغلون فيه إلا بالمجون والتهتك لا يبقى فيه للسيد حَجَرٌ على المملوك ، ولا للوالد على الولد ، ولا للرجل على المرأة^(٢) ، وهذا أمر غريب لم أره في غير دمشق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم في ذلك ، لأنني رأيتهم منقطعين عن مخالطة المسلمين في المنازل والأحياء ، قد تألبوا على كنيسة معظمة عندهم تعرف بكنيسة مريم^(٣) ، ويقال إنها من أعظم بيعهم بعد بيت المقدس .

وبقيت في دمشق ثمانية أيام إلى أن وفد الغلمان بالدواب المحملة وكنت قد استقصيت البحث عن هذا الأموي الذي أتعب خاطر الرشيد أمره فلم أجد له غرضا في السياسة ولا هو طامح إلى ملك ولا إمارة ولا يحدث نفسه بشيء مما يقلق بال الرشيد حتى يخافه على أمره ، فامسكت عن السعاية به لأنني رأيته وهو خلو من هذه الأغراض مثل التاجر الكثير المال والجاه ليس إلا ، وقد تهيأ لي باستطلاع خبره أن أقف على سير غيره من أقارب الخلفاء متابعة لما نُقِل إلى من خبره فوجدت في الأولين عقلا وسياسة إلا أنه لما صار الأمر إلى صبيبتهم المسترفين استرسلوا في القصف والتهتك^(٤) ، وعكفوا على اللذات واستخفوا بأمر الرعية ، وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وألبسهم ثياب الذل بذنوبهم .

وقد انتهى ترف ملوكهم إلى الوليد بن يزيد^(٥) وهو الذي أخذت الخلافة في الانحلال بين يديه ، وتحرك الدعاة في خراسان بما وجدوا فيه من قلة الخبرة

(١) ابن جبير ٣٨٩

(٢) القزويني ١٢٨ وابن بطوطة ٢ : ١٩٧

(٣) ابن جبير ٣٨٥

(٤) الأغاني ١٣ : ١٦٥ والمقدمة والعقد الفريد وابن الأثير وغيرهم .

(٥) الدميري ١ : ٩٠

بأمور الملك وعكوفه على اللهو والطرب ^(١) وقيام خلافته بين الكاس والوتر ^(٢) وقد استرسل في التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده في بيت المال ، لأنه أفرط ، في الكرم لإفراطا فاحشا حتى إنه لم يقل « لا » في سؤال سئله ^(٣) ، وكان إذا وصل الشعراء عدّ أبياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألف درهم ^(٤) ، وكان يتأنق في صنوف الملاذ من المطعم والمشرب والملبس فيقال إنه لبس القلنسوة من الوشي ^(٥) مذهب ، واتخذ العقود من الجوهر كالنساء يغيرها في اليوم مرارا ^(٦) لشغفه بها ، وكان يتختم بالياقوت ، ووقع من خواتمه إلى بنى العباس ^(٧) خاتم يساوى أربعين ألف دينار ، ويقال في حسنه إنه كان إذا أخرج من محبسه أضاء المكان من شدة لمعانه . وكان يسترسل في الطرب إلى أن يوجه رساله ^(٨) في طلب المغنين من الحجاز وغيره ، فجد أنه لم يثقل أمره على الرعية من وجه واحد ، وإنما هناك وجوه قد ساقط عليه الفتنة فقام الناس عليه وقتلوه شرقتلة . هذه نتف من أخباره حدثتني بها مغنية كانت له يقال لها برق الأفق ^(٩) ، وهي اليوم عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها من الكبر وقد أخبرتني في بعض حديثها أن الجوهر كان في صباها متدولا بين الناس ، فلما جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغالى به فلا ثمنه منذ ذلك الحين ^(١٠) ، وهذا شيء من الإفراط في الترف لم نسمع بمثله عن

(١) المسعودي ٢ : ١٤٦

(٢) ابن خاقان ٤٤ في قصيدة ذكرها هناك .

(٣) أبو الفرج ٢١٠

(٤) الأغاني ٦ : ١٤٨

(٥) الأغاني ٦ : ١٤٦

(٦) الأغاني ٦ : ١٢٩

(٧) المستطرف ٣ : ١٩١

(٨) الأغاني ٦ : ١٠٧ والعقد الفريد جزء ٢ والمسعودي ٢ : ١٤٦

(٩) الأغاني ٣ : ٨٧

(١٠) الأغاني جزء ٦

أحد من الملوك المترفين . ومن نظر إلى ما كان عليه ملوك بني أمية من العزة والصولة وما صاروا إليه من الذلة علم أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بعده من نعمة حتى يغير العبد ما بنفسه بارتكاب المعصية .

ولما طال مقامى بدمشق تهيأ أن أزور أماكنها المشهورة ، فزرت موضعاً يقال إن هابيل وقابيل نزلا فيه ^(١) ، وموضعاً يقال له باب الساعات ^(٢) يزعم أهل الأخبار أنه كانت فيه قارة تقدم عليها القرابين فما يقبله الله منها تبتلعه نار من السماء وما لم يقبله يبقى في موضعه على الصخرة . وزرت مشاهد جماعة من أهل البيت المشرفين والصحابة والتابعين والأولياء الصالحين ^(٣) في جبل قاسيون ومقابر الشهداء ^(٤) وجبانة الباب الصغير ^(٥) ويدها قبور ملوك بني أمية ^(٦) مهتمة والرخام عليها متكسر ^(٧) ، وزرت قرية في سفح الجبل المذكور يقال لها برزة ^(٨) يزعم الناس أنها مولد الخليل إبراهيم (عليه السلام) ^(٩) حضيض الملائكة وإلى ما فوقها حجارة مصبوغة بشيء يشبه أن يكون أثر دم عتيق يقولون إنها الحجارة التي رض بها قابيل رأس أخيه هابيل ^(١٠) ثم جره إلى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم ^(١١) ، وفي حضيض

(١) القزويني ١٦٢

(٢) ياقوت ٣ : ٥٨٨

(٣) ابن جبير والشريشي ٣ : ٢٣٦ والطبقات ١ : ٢٩ والمسمودي ٢ : ٤٢

(٤) قضاة الشام .

(٥) ذكرها ابن خلكان .

(٦) الخميس ٣ : ١٤

(٧) المسمودي ٣ : ١٤٣ وابن جبير ٢٨٣ وابن الأثير ٥ : ١٣٠

(٨) ابن جبير ٢٧٥

(٩) ياقوت ٣ : ٥٨٩

(١٠) القزويني ١٢٦

(١١) ياقوت ٣ : ٥٨٨

الجليل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون أن سبعين نبيا ماتوا فيها من الجوع وإني لأستحي أن أنقل حديثهم كما قالوه فإنهم يقولون إنهم سبعون ألف نبي^(١) كأن كل من عاش في الشام نبي أو ولي ، وفي طرف الجبل مما يلي الغرب ربوة^(٢) يقول المفسرون إنها هي المذكورة في قوله تعالى « وآتيناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » ويرد عليهم آخرون بأن المراد بها ربوة في الإسكندرية^(٣) من ديار مصر .

وهناك مسجد يقولون إن المسيح عليه السلام أوى إلى مغارة بجانبه ، وفيه حجر قد انفلق إلى شطرين ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا كزمان مشقوق^(٤) ، ولهذا المكان منظر حسن من البساتين والحضرة في جميع جوانبه ، ولا إشراق كإشراقه حسنا وجمالا واتساع مسرح للأبصار . وفيه تنقسم مياه المدينة إلى أنهار سبعة^(٥) أكبرها نهر يزيد ونهر ثوري^(٦) وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بردى وهناك بعض قرى مثل نيرب ومن^(٧) والسهم وسطرى^(٨) ، وفيها الجوامع والمرافق والحمامات إلا أنه لا يظهر منها إلا ما سما بناؤه لتطاول الشجر عليه ، وفيها من الفواكه والتفاح والنخوخ وسائر الثمار ما ليس في البلاد مثله صحة وطيبا^(٩) ، وإلى ما يليها من طرف الجبل موضع يقال له عين برما^(١٠) كان

(١) القزويني .

(٢) ابن بطوطة ١ : ٢٢٣

(٣) المحاضرة ٢ : ٣

(٤) ابن جبير ٢٨١ والقزويني .

(٥) تقويم البلدان ٣٥٢

(٦) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٧٨

(٧) ابن جبير ٢٧٩

(٨) كليات ٢٠٢

(٩) الكنز ١٤٤

(١٠) المسعودي ٣ : ٨٢

معمورا لأيام معاوية بن أبي سفيان بجماعة من أهل خراسان ثم توالى عليه الخراب لظلم الخلفاء بعده حتى أصبح إلى هذه الغاية كليل العين . وبقى الأثر من عمارته وذهبت العين .

ولقد كانت دمشق فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير محصاة من فضلات العمران ويعيها كثرة الوحول في أزقتها وتراكم الطين في ساحاتها ، فلما أقام فيها الأمويون شرعوا في إزالة الأقدار ^(١) منها وقاية من الطاعون الذي كان يقع بها تباعا في السنين السالفة ^(٢) وهذا هو الأثر الذي تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم بتشيدهم البناء على الهندسة التي لا نجد أعظم منها وقعا في القلوب ولا أتم حسنا وجمالا في العيون ، كالذي يبلغنا عما بنوه في الأندلس ^(٣) من القصور التي حارت في جمالها عقول الفرنجة ، فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم في دمشق فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالحجر والصفاح والأعمدة مفروشة بالرخام الأخضر ^(٤) ، وهي تتناهى في البهاء والإشراق إلى أن يضرب بها المثل ^(٥) في إحكام رسومها وجلالة بنيانها ، ولو لم يكن من تمام زيتها إلا الأعمدة المزخرفة منصوبة في أروقتها فرادى وأزواجا لكفى البصائر روعا ووسع الأبصار ابتهاجا . وأذكر أنه لما أدخلني صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها من الأشجار الغريبة ^(٦) لم يتحول نظري عن القصر لما راعني من حسنه

(١) أبو الفداء ١ : ٢٠٧

(٢) راجع ابن الأثير والمسعودي والعقد الفريد . وفي مروج الذهب من كلام عن الكوفة أنها

ارتفعت عن البصرة وجرها وسفلت عن الشام ورواها ٣ : ١١٦

(٣) راجع المقرئ والعقد الفريد وابن الأثير .

(٤) الوطواط ١١١

(٥) المقدمة ١٥٤ والفتح بن خاقان ٩٤

(٦) الوطواط ١١١

المفرط وأعجبت به من الزينة التي يكبرها الناظر ويقف عندها وقفة الداهل الذي به عقدة من السحر ، وهو بين أساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن ^(١) مخزومة ونحرجات مزينة وطيقان مجسمة بالخص المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ما تجول فيه الأفكار فتجمله وتميل إليه الأبصار فلا تملّه .

جامع الوليد المعروف بالجامع الأموي

هو أنخر مأثرة الملوك بنى أمية ، بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المتقدم ذكره ، وكان ذا همة في تشييد العمارات والمساجد ^(٢) والقصور ، وقد شملت عنايته جميع البلدان في تسهيل الثنايا وحفر الآبار وإصلاح الطرق ، حتى كان الناس في أيامه إذا تلاقوا في الأسواق والمجالس تساءلوا عن العمارات وعن أى بناء شرع فيه خليفتهم ، كدأبهم في التساؤل عن الخير والصلاة في أيام عمر بن عبدالعزيز ، وعن الطعام في أيام سليمان بن عبد الملك ، وعن اللهو في أيام الوليد بن يزيد ، وليس في بلاد الإسلام كلها مثل هذا الجامع حسنا وإتقانا ^(٣) وجمال رسم وتماز زخرفة وزينة ، وهو مائل إلى الجهة الشمالية من المدينة وقد سمعت عن سفيان الثوري أنه قال الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة ^(٤) .

كان موضعه قبل الإسلام بيعة للنصرانية تعرف بكنيسة مار يحننا ^(٥) ، ومن قبل ذلك كان بيت عبادة لأهل جاهليتهم ، فلما دخل المسلمون المدينة عتوة

(١) ذكرها الأغاني ٥ : ١٠

(٢) ابن جبير وياقوت ١ : ٥٩١ وابن الأثير ٥ : ٤ والفخرى ١٥١ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ والمقدمة ٣١٠ والفزوي ١٢٧

(٣) ابن جبير ٢٦٣ والشرشي ١ : ٢٠٨ وتقويم البلدان ٢٣٠ وابن بطوطة ١ : ١٩٧

(٤) ابن بطوطة ١ : ٢٠٤ وابن جبير .

(٥) ابن الأثير وأبو الفداء ١ : ٢١٠ وياقوت ٢ : ٥٩١ وابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٩٨

تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة ، ثم دخل أبو عبيدة بن الجراح صلحا فأتتهى إلى نصفها الآخر ، وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى فبقي نصفها في أيديهم وقد كانوا يزعمون أن الذى يهدم بيعتهم يحق ، فلما صارت الخلافة إلى الوليد قال أنا والله أول من يحق فى سبيل الله ، ثم بدأ الهدم بيده ^(١) فبادر المسلمون وأكلوا تخريبها حتى هاجت النصارى وعلا صياحهم ، فعوضهم الوليد عنها مالا جسيما وأرضاهم بكأس عتة صالحهم عليها ^(٢) ، ثم وجه إلى ملك الروم ^(٣) فى أشخاص اثنى عشر ألفا من العملة والصناع المرشحين ، وتقدم إليه بالوعيد إن هو توقف ، ثم أكل هدمها سوى حيطانها ، وأنشأ فيها القناطر وحلأها بالذهب وعلق فيها الأستار من الوشى والإبريسم ، وبقي العمل فيها نحو تسع سنين ، وكان يعمل فيها ألف مرخم يجلب إليهم الرخام ^(٤) والمرمر من كنيسة أخرى لأنهم النصرانية بمدينة أنطاكية تعرف بمزور ^(٥) .

وقد غريم الوليد فى هذا الجامع من الدنانير المضروبة زنة مائة وأربعة وأربعين قنطارا ^(٦) بالدمشق ، وذلك يعادل عشرة آلاف ألف دينار ^(٧) ، وقرأت فى بعض الكتب أن جملة المنفق عليه كان أربعائة صندوق ، وفى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، ففى القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين . وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز ^(٨) قبل أن يلي الخلافة ، وقد اتخذ فى المسجد

(١) ابن جبير ٢٦٤

(٢) الخميس ٣ : ٣١١

(٣) المقدمة ٢١٠

(٤) تقويم البلدان ٢٣٠

(٥) المسعودى ١ : ٢٧١

(٦) الخميس ٣ : ٣١١

(٧) ابن جبير ٢٦٣

(٨) المسعودى ٣ : ١١٩

ستمائة سلسلة من الذهب ^(١) للقناديل والثريات ، وزين جدرانها بفصوص من الذهب والفُسَيْفَسَاءَ ممزوجة بأنواع من الأصباغ العجيبة تمثل أشكالاً من الرسوم لم ير أبهج منها في العيون ، ورفع عمده من الرخام المجزع طبقة فوق طبقة ^(٢) ، واتخذ الأساطين الضخمة فيما يحاور الأرض ، والسواري الدقاق فيما يعلو الحنايا والقباب ، وفي خلال ذلك صور المدن والأشجار بالألوان والذهب ، وكتب في حائط المسجد بالذهب على اللازورد « ربنا الله ، لا نعبد إلا الله ، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين » ^(٣) .

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق إلى الغرب) فهو مئتا خطوة أو ثلثمائة ذراع ^(٤) ، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة . وأبوابه أربعة . أولها الباب الشرق ويعرف بباب جيرون ، وعليه عمودان من الحجر في غاية الإفراط في الطول والعرض ، يقال إنهما من بقايا الكنعانيين ^(٥) ، إذ ليس في وسع أهل هذا الزمان قطعهما ولا نقلهما . ثم الباب الشمال ويعرف بباب الناطفين ، وكان مدخل الكنيسة قديماً . ثم الباب الغربي ويعرف بباب البريد ، ثم الباب الجنوبي ويعرف بباب الزيادة وهو يقضى بالخارج منه إلى دار معاوية ^(٦) المعروفة بالخضراء ، وكان قد نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط كما هو معروف . وفيه ثلاث مقصورات أشرفها المقصورة التي اتخذها معاوية (رضي الله عنه) عندما كان للمسلمين نصف الكنيسة ، وتعرف بالمقصورة الصحابية ، وهي أول

(١) ياقوت ٢ : ٥٩٥

(٢) ياقوت ٢ : ٥٩٣

(٣) القزويني وياقوت والمسعودي .

(٤) ابن بطوطة ١ : ١٩٩

(٥) القزويني ١٢٧

(٦) أبو الفداء ١ : ٢٠٤

مقصورة صنعت في الإسلام^(١) ، بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يقتلوه في أوقات الصلاة كما اغتالوا عليا عليه السلام ، فكان إذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف^(٢) ، وإلى جانب هذه المقصورة خزانة مغطاة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذي وجهه عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى الشام^(٣) وأخرج إلى منها صاحب الوقوف خاتما من الفضة للوليد بن عبد الملك ، قد نُقِش عليه «يا وليد إنك ميت ومحاسب» ، وآخر لأخيه سليمان وكلماته «آمنت بالله مخلصا»^(٤) ، فأخذتهما لأطرف بهما المأمون عند عودتي إلى بغداد ليضيفهما إلى مالديه من خواتم الخلفاء ، وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة عليها رصاص يمتد منها إلى أن يغطي سطوح الجامع كلها بألواح طولها أربعة أشبار في عرض ثلاثة ، وربما اعترض فيها نقص أو زيادة . وهيئة السقوف من الخارج هيئة نسر قد نشر جناحيه ، وكأنما القبة رأسه ، وهي في سمو الارتفاع بحيث تراها من أى موضع استقبلت دمشق . أما صحن المسجد فإنه من أجمل المناظر ، وعلى جدرانه آيات من القرآن الكريم ، ورسوم بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهناك مجتمع الدمشقيين ومتزهمهم لا يزالون فيه بكرة وعشية يقرءون ويتحدثون .

ولهذا الجامع ثلاث صوامع^(٥) واحدة بالجانب الشمالى وهى مذهب من أسفلها إلى أعلاها^(٦) ، وفيها مقاعد ومجالس ، واثنان بالجانب الغربى وإحدهما أكبر الصوامع الثلاث . وقد وجدت في أروقته ودهاليزه وصحنه وفي المساجد المتشعبة منه ماء يجري بلا انقطاع ، وشاهدت في البلاط القبلى قبالة الركن الأيمن من

(١) ابن جبير ٢٧٥ وأبر القدام ١ : ١٩٩

(٢) الفخرى ١٢٩

(٣) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣

(٤) المسعودى ٣ : ١١٩ والخميس ٢ : ٣١٤

(٥) ابن بطوطة ١ : ٢٠٣

(٦) الشريشى ١ : ٢٠٨

المقصورة الصحابية تابوتا معترضا من الأسطوانة وفوقه قنديل موقد أبدا في الليل والنهار يقال إنه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ^(١) ، ومن حوله عمدة عجبية قد ظهرت فيها عروق أخرى من غير ألوانها تتخللها العين منزلة فيها بأيدي الصنائع ، إلى غير ذلك من المحاسن التي حواها هذا الجامع المبارك ، وعظمت عن أن يحيط بها وصف ، فإني لأحسب الزائر لو تردد إليه زمانه لرأى كل يوم ما لم يكن قد رآه قبل ^(٢) من جمال الرسم وإحكام الصنعة ، كما أحسب أنه لا يزوره أحد إلا وهو يحدّد الدعاء لبانيه ^(٣) وإن لم يكن له ميل في السياسة مع الأمويين .

المرور ببعلبك وركوب البحر من بيروت

رَجَعُ إِلَى قَصِّ الرحلة . رَكِبْتُ مِنْ دِمَشْقَ فِي غَدِ الْيَوْمِ الَّذِي سافرت فيه الغلمان إلى بيروت ، فوصلت في منتصف الطريق إلى بلدة غناء ذات سور قديم يقال لها بعلبك « ومنها إلى الزبداني وهي مدينة على طرف وادي بردى ثمانية عشر ميلا » ^(٤) وهي ذات أشجار وأنهار وعيون وخيرات كثيرة ^(٥) وفيها الكرم الخصب . ولقد لقيت فيها فيلسوفا من النصاري يقال له قسطا بن لوقا ^(٦) ، صاحبني في زيارة الآثار التي فيها وأخبرني عنها بأشياء كثيرة ربما أتيت على بعضها في سياق الحديث .

(١) ابن جبير ٥٧٥

(٢) القزويني ١٢٧

(٣) ابن جبير .

(٤) تقويم البلدان ٢٥٥

(٥) ابن بطوطة ١ : ١٥٨

(٦) المقرئ في ترجمة يعقوب الكندي .

وقد أخذت هذه الآثار العظيمة يجامع قلبى حيرة وإعجابا ، وأعظمها هيكلان كبيران أحدهما أعتق من الآخر ^(١) وفيهما من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر ما لا يتأتى حفر مثله في الخشب ، مع ارتفاع جدرانها وضخامة حجارتها وطول أساطينها وعجيب بنيانها ^(٢) مما يذهب العقول تعجبا من اقتدار الرجال على مثل هذه العظام . وقد أخبرنى قسطا هذا الفيلسوف أنه لا يرى إلا أن هذين الهيكلين من بناء أمة ماهرة في فن الهندسة ، كما أنه لا يرى الحنايا التى تُقْلَعُهما إلا أعتق من الآثار الظاهرة ، وفى ظنه أنها وضعت فى أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، ولما جاءت الروم الأولى هدموا المعبد العتيق ، ورفعوا الهيكل المائلة مكانه .

أما الحجارة الثلاثة العظيمة التى تعد من عجائب الدنيا فقد رفعها الروم بأيدي عبيدهم على ما جرت به عادتهم من استخدام الأسرى فى البنيان ، وليس كما تزعم العامة من أن الجن هم الذين بنوها لسليمان عليه السلام كدأهم فيما يحدثون عن كل أثر ^(٣) من آثار الأولين فيه معجزة للآخرين . وإنما رفعها الروم بالحيل الهندسية والقوة الآدمية ^(٤) يدلنا على ذلك ما نجد فى أطرافها من النقر التى تقضى بأنها كانت ترفع جرا بالأمراس بأن يمهدها فى الأرض سطح من التراب يرتفع شيئا فشيئا مع امتداده إلى أن ينتهى إلى حيث هى مرفوعة ، ثم تجر بالسلاسل على عجلات لها بكرات من الفولاذ عريضة الأطراف حتى لا تنفوس فى التراب صغيرة الحجر حتى تحتل الثقل ، وتكون أشد من البكرات الكبيرة التى لابد أن تلتوى تحت هذه الحجارة العظيمة ولا تأتى بالمقصود من استعمالها لرفع الأثقال .

(١) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٢) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٣) نجد فى كثير من كتب العرب سبة المباني العتيقة إلى الجن .

(٤) المقدمة ٣٥٨

وقد كانت سياسة الروم مع الأمم التي يتغلبون عليها أن يأخذوا دينها بالتعطيم والتبجيل ليستميلوها إليهم ويبعثوا في أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار إلى حراستها بالجند، إذ تنبئ الأخبار السالفة أنهم كانوا يملكون معظم العالم، فلو دعاهم حفظ البلدان إلى إقامة الجند فيها للزمهم آلاف الألوف، وهذا بعيد عن أن تقوم دولة من دول العالم بكفالاته. فلما دانت لهم الشام وكان بعل^(١) معبودا فيها من الضابطة وغيرهم كما قال تعالى «أندعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين» بنوا لعبادته هذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصدون به الإعجاز ايظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظام الأمور، إذ ليس للظن بأنهم قصدوا إلى المنفعة موضع في نظر العقلاء. فهذا أحد اللولين اللذين يفضيان بالراق عليهما إلى سطح الهيكل قد اتخذ أعلاه بما هو زائد على النصف من حجر واحد فصلت منه الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته، وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة قد اتخذت في أعلى الجدار لتظهر للوافد على بعلبك من حيث هو مستقبل للهيكل، فلو أنه أريد بها المنفعة لاقتضى ذلك أن تكون في أسفل الجدار لا في أعلاه، كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان النصف المتخذ من قطعة واحدة قائما فيما يدانى الأرض أو يماسها، حتى إذا وهى أعلاه بقي هو في موضعه، أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مرذا لهجوم العدو.

ثم إنه لما انقرضت الروم الأولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية وسائر المشرق وقد أخذوا في تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل محجة للناس تنشغف أفئدتهم بما فيه من الغريب ولا يقصدون الكائن وهو دونه في البهاء والإشراق مضرًا بالنصرانية وحابس لها عن أن تعم الشام، فعمدوا إلى تخريبه ومحو الأثر المائل منه. وكان في القسطنطينية بطرك ذو عقل ودهاء يقال له قم الذهب يحنا، فأشار على القيصر أن يتخذ كنيسة لعبادتهم لتحصل المنفعة منه مع حفظ

الأثر الجميل ، فاتخذته كذلك . وفي رواية أنه أشار عليه بأن يعمل فيها الفؤوس ففعل أو يقال إنه لم يفعل . فانظر إلى هذا الهيكل كيف تقلبت به أغراض الأمم فقد شادته الروم الأولى لغرضهم في الدنيا ، ثم خربته الروم الثانية لغرضهم في دينهم ، ثم مثلت آثاره لهذا الزمان ناطقة بعزة الله شاهدة أن لا باقى سواه .

ولما انفصلت عن بعلبك مررت بسهل أفيح يقال له البقاع وعرجت فيه على موضع يسمى بـ كرخ نوح^(١) يزعم أهله أن فيه قبر صاحب السفينة عليه السلام . وكنت أرى بمقربة من كل قرية من قرأه ردوما قد تراكت أمثال التلال كأنها من بقايا أمة قد خلت ، وصرفت من بعلبك إلى بيروت يومين في جبل لبنان لصعوبة مسلكه ، وكنت أميل إلى عيون القرى لتزينة النفس وإرواء الظمأ ، وإنها لكثيرة في هذا الجبل المبارك وهي تمدح في شعفاته . وأقيمت في بيروت حرسها الله ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة ، وهي مدينة جلييلة^(٢) على ضفة البحر ، طيبة الإقليم ، عليها سور من حجارة^(٣) تحف بها عمارة مشتبكة في سفح لبنان كان يستجيدها الوليد بن يزيد المتقدم ذكره فيقول^(٤) :

رب بيت كأنه متن سهم سوف تأتيه من قرى بيروت

ثم يقول^(٥) والنفس تائقة إليها والقلب مشغوف بحماها :

ألا يا حبذا شخص حمى لُقياه بيروت

وهي فرضة دمشق ومعظم الشام ، وفي مراسها مجتمع كثير من سفن التجارة ، ويحلب منها حديد^(٦) لبنان إلى ديار مصر ، وفي شريقها نهر يغلظ في الشتاء قد بني

(١) ابن بطوطة ١ : ١٣٣

(٢) تقويم البلدان ٢٤٧

(٣) الإدريسي .

(٤) الأغاني ٦ : ١٢٢

(٥) الأغاني ٦ : ١١٧

(٦) الإدريسي وابن بطوطة ١ : ٣٣١

له قدماء أهلها قناسة^(١) يُجرون الماء فيها إليهم ، وإلى غريبها مشهد الأوزاعي (رحمه الله) ، وميلاده ببعلبك^(٢) وهو نحر المحدثين من أهل الشام ، وله في علم الحديث^(٣) مدونات جمع فيها الصحيح المروى عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم واستخرج الأحكام الشرعية على مذهب انفرد به أهل تلك البلاد .

وقد كان لبيروت شأن عظيم في غابر الأيام ، وكان عليها ملوك من الكنعانيين ومن قام بعدهم بأعباء الدول الجسام . وكان للعلوم فيها سوق ليس بعدها غاية في الرواج ، حتى إنها دُعيت بمدينة الحكمة . وكان للروم فيها منازل وهياكل هجروها بعد الفتح وجلوا عنها جلاء لم يرجعوا بعده إلى أن عاد إليها العمران في الإسلام بقيام الخلافة في دمشق ، إذ كانت المدن لا تصالح إلا بقيامها بالملك أو قيام الملك في جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود ويحصل الأمن للتجارة .

وإن كنت قد شهدت لهذه المدينة بطيب الهواء فاني لا أنكر ما في ريحها الشمالية من الرطوبة التي تحدث في الرأس أما لا يشعر به إلا الغريب الزائر^(٤) ، غير أن هبوبها فيها ليس بالمتواصل حتى نعتده من عيوب الأقاليم . بل الغالب على بيروت ريح الصبا التي تتعش النفس ، تأتيها من ناحية الرمال المنبسطة على شاطئ البحر ، فربما وجدت هذا الموضع أصح للسكنى من البلد العتيق . وفي ظني أنه إذا توافر العمران فسيضطّر الناس أن يحدثوا بناءهم في هذا الموضع إذ هو أقرب وجها إلى نسيم الصبا منه إلى ريح الشمال .

وركبت البحر من هذا الثغر المحروس في أول يوم من شعبان ، وجرى مركبنا بهواء شمالي لطيف ليس بالثقل ولا بالخنيف ، أرسله الله إلينا بكرمه ولطفه ،

(١) تقويم البلدان ٢٤٧

(٢) أبو الفداء ٣ : ٧ والطبقات ١ : ٥٠

(٣) ابن خلكان .

(٤) القزويني .

واستقر سبينا في البحر نحو عشرين يوما إلى أن أقبلنا على مالطة ، وهي جزيرة في أول بلاد الفرنجة ، وبها كنائس معظمة لأئمة النصرانية ، فليتنا يومين في مرفئها تنسوق منها الزاد ، ثم غادرناها إلى مرسيلية في ساحل الديار الرومية إلى غرب اللبردية (١) .

لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة

ولما أقبلنا على مرسيلية لم نر لها شيئا من زخارف البنيان . ولا وجدنا في أهلها أثرا من محاسن العمران . لأنهم كانوا قبل دخولهم في ولاية هذا الأبرذور أهل جاهلية وخشونة ، تستعبدهم طائفة طاغية من أنفسهم ، تجرى فيهم القضاء بحسب هوى النفس ، فلما استولى على ممالكهم أقام عليهم أميرا فؤض إليه أمر الجند والقضاء وجباية الأموال ، وجعله بمنزلة الوزير في الإسلام . وأقام تحت يده طائفة من العمال يتولون المناصب في ولايته ، ولهم ألقاب معروفة عندهم مثل المركيس وغيره . وایس في مرسيلية من البنايات المزخرفة سوى قصر مبني على علياء تشرف على المدينة ، يظهر أنه كان مسكنا لبعض أمراء الجاهلية ، وكنيسة عليها قباب مرفوعة نصبها هذا الأبرذور الذي نصر أمته ونصر القسيسين والرهبان كما هو معروف ، وقد نظر بعين العناية إليهم وأحسن بالنعم الطائلة عليهم ، واتخذ منهم أولياء يستشيرهم في أموره ويرجع في السياسة إلى رأيهم ، إذ كان القوم من دونهم همجا لا يعرفون القراءة ولا أميطت عن بصائرهم غشاوة الجهل ، ومعظمهم عبيد للتمول من التجار ، يموتون جوعا بين يديه وهم يمللون أرضه بعرق تعبه وشقائهم ثم لا يحصلون على كسرة تمسك رمتهم ، فابن هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعاش بين أيديهم واحتوائهم أشرف السنن العادلة ؟ فكأن الله تعالى قد خص هذه الأمة من الفضل والنعم (٢) بما حرم مثله أمم المغرب . فان

(١) تقويم البلدان ٣١٩

(٢) المسعودي ١ : ٢٣٦

العرب أحلى منهم وأحلم ، وأعلى وأعلم ، وأقوى وأقوم ، وأعطى وأعطف ، وأحصى وأحصف ، وأشرى للفخار وأشرف ، وأنفى للعار وأنف . وحسبى بما نقلت إليك من أخبارهم فى هذا الكتاب دليلا على ما ركب الله فى طبائعهم من الأتفة وعزة النفس ، وما آتاهم الإسلام من المحاسن التى تشرفهم وتعالى ذكركم .

وقد شاهدت فى ديار القوم كثيرا من الأمور التى أخاف إن أتيت على بيانها أن تجر الحديث إلى الخروج عما أنا بصدد من ذكر الرسالة . وقد وجدت عاداتهم غير منطبقة على عادات الشرقيين ، بل كثيرها مستهجن أو باق على خشونة جاهليتهم . ومن الغريب المألوف عندهم أن النساء يمشين فى الأسواق بلا نقاب ، ويجلسن مع الرجال سافرات الوجوه ، وهذا استرسال لا أظن أن تصان معه الأعراض صيانتها فى المشرق من وراء الحجاب . وقد وقع بينى وبين الأمير الذى صحبى فى مرسلية مذاكرة فى هذا الأمر وكان يظن أن المرأة ذليلة فى ملتنا وأن منع ظهورها إلى الرجال ناشئ من جهة استصغارها وتحقيرها ، فذكرت له أن الله تعالى قد وفاهن حقوقهن ^(١) فى الدنيا والدين ، ووعد الصالحات منهن نعيما مقيا فى الآخرة وأمر بأن تجرى عليهن الورثة التى لم تكن لهن قبل الإسلام .

وكان أمير مرسلية عند ما اتصل به خبر وصولى بالرسالة قد أخرج إلى الجند ولم يترك شيئا من مظاهر الاحتفاء إلا أجراه فى سبيل تعظيمها وإجلالها ، فمبا سألته عن الأبرذور أخبرنى أن له غيبة فى رومة لأمر بينه وبين الباب ^(٢) الذى هو خليفة الأمم النصرانية ، وأنه يمكث عنده أربعين أو خمسين يوما ، فاستطلت هذه الغيبة منه ، وخفت فوات الحج إن بقيت متظرا رجوعه ، فرأيت أن أوافيه برومة ، فركب معى من لدن الأمير رسول إلى القيصر وجرنا عباب هذا البحر

(١) قد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء بقوله إن لتسائكن عليكم حقا وإن لكم عليهن حقا إلى أن قال فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا .

(٢) كنية البابا بالباب مذكرة فى تقويم البلدان ولفظها بتفخيم البامين وتشديد هما .

الذى لم تجزه بعدُ سفن المسلمين إلى أن من الله تعالى علينا بالوصول إلى رومة بأيمن طائر وألطف ريح والحمد لله على جميل ما يولينا من النعمة ويتداركنا به من اللطف .

ولما أقبلنا على رومة أبلغ الرسول الأنبرذور خبر قدومى من لدن الرشيد فسير إلى أمراء دولته وأهل حاشيته ويطانته ، فساروا بى إلى حيث هو مقيم فى دار الباب ، وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة والإحكام ، وعنى البابون من خلفاء بطرس كبير الحوارين بتجميلها وتزيينها حتى صيروها نزهة جمعت الجمال والحسن ، وكنت حين جاوز بى الأمراء مقصوراتها إلى مجلس الأنبرذور قد رأيت على جدرانها صور ملوك وأئمة وعباد قد طعنتهم رعى المتون ، فلما دخلت عليه وجدته جالسا على منصة من فوقها قبة عليها كتابة بالرومية ، وهى مجللة بالذهب ، وعلى رأسه تاج مرصع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وفى يده قضيب الملك ، وعليه حلة من الوشى كأعظم ما يكون من حلل الملوك ، وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهورة والحرايب والأعمدة ، وبينهم جماعة من العلوج وأشرف العساكر وطائفة من الجنائفة والرهبان المقدمين قد لبسوا الوشى الذى يقيمون به الصلاة فى أعيادهم ومواسمهم ، ولكن لم نرمشله على من يجاورنا منهم فى المشرق حسنا يعنى الأبصار بريقه ولمعانه .

فلما مثلت بين يديه قمت بما وجب على من الإجلال له وبلغته سلام الرشيد على لسان المترجم ، فكلمنى بترفع الملوك الذين توقع جلالتهم مهابة فى قلوب الوافدين عليهم ، ولكن من غير أن يكون فى نفسه جبروت ، وشكر للرشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلا ، وكان الأمراء والرهبان يمدون إلى أعناقهم ويحدقون فى أبصارهم كأنهم لم يروا من قبلى مشرقيا على دين الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أشرت إلى الترجمان أن يذكر له هدية الرشيد وأنه يطرف بها جلالتة لارتباط المودة بينهما ، فشكرنى على ذلك مرة ثانية ، ثم استدنانى منه وأمرنى بالجلوس ، وأخذ يسألنى

عن رحلتى إليه عطفاً مال إليه بعد الترفع الذى استقبلنى به ، فكننت آجبيه بما تقتضيه الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم والثناء عليه لما أوجد لرعيته من أسباب الخير والراحة ، ثم سألتنى عن الدولة فى المشرق وأنه يروم أن يكون الدهر للرشيد فى صفاء ، فأجبتة بما فى الإشارة إليه تحفظ عن ذكر بنى أمية ، والملا من الأعيان والرهبان حاضرون ، ثم سألته أن يأذن لى بالدخول عليه فى خلوة وانفراد فأجابنى إلى ذلك وهو يظهر ائتناسه بى وتوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرشيد من التواد .

ولما انصرفت من حضرته وقف لصحبتي أميراً من عظماء دولته ملك قلبى برقة نفسه ، وأحسن منقلبى بلطيف أنسه ، وأحل كرامتى عنده بالمحل الأرفع ، لم يترك أثراً مشهوراً فى رومة من قصر منيف ولا منزل مزخرف ولا موضع ذى حسن وبهاء إلا سار بى إليه وأرانيه ليعظم فى عيني أمر الفرنجة ، فما كنت لأكبر من مبانيهم إلا الكائنس التى يعظمونها ويتأنقون فى تمييقها بالرسوم التى تتناهى فى الحسن وجمال الزينة ، وهذا الرسم أثر لهم من الصناعة ينفردون به دون المشاركة^(١) الذين ينههم الدين عنه^(٢) ، وإنما يكونون فى حاجة إلى صناعتهم إذا بنوا مسجداً أو قصرًا مزخرفاً كما علمت ، إلا أنه لا يصح انفرادهم بالحذى فيه دونهم لبطلان الموازنه فيما يتركه فريق ويأخذ فيه الآخرون . وفى نفسى أن المسلمين لولا نهى الشرع عن التصوير ما بعد أن يفوقوا فيه الروم ، فقد رأيت من عمل الرسامين فى المشرق الأقصى ما يقرب أن يكون فى جودة عمل الروم . ورأيت صوراً من بلاد الصين وصلت إلى البرامكة

(١) لم يكن للشارقة فى زخرفة مبانيهم إلا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور؛ وقد ابتدعوا من رسومها أشكالاً تقيس الأبعاد فى الحسن والبهجة مع أنه ليس أصعب على الرسام من ابتداع شكل لا يتوسع فيه بغير الخطوط المتماثلة وبذلك يعلم مقدار فضلهم فى الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما علقوا عليها من الكتابة التى اتخذوا فيها طريقة التزيين لئلا تعين بهجة وارتياحاً .

وهي تمثل رجالا ونساء وأولادا بحيث أن الناظر إليها يميز بين الضاحك والباكى ، حتى لقد يميز بين ضحك السرور وضحك الشجاعة ^(١) ، وهذه غاية في المهارة لم يبلغها إلا كبراء أرباب العقول من صنائع الروم . وأعظم مشاهدت من كائس رومة بيعة بطرس حوارى المسيح عيسى عليه السلام ، وهي من عجائب الدنيا ^(٢) ، وفيها من الرسوم والنقوش والأصباغ والأعمدة والذهب ^(٣) ما أذكرنى جامع دمشق فى بهائه وجماله ، وهي أبداع مشاهدته من مباني الروم ، وامتدادها مع مقصوراتها نحو ستمائة ذراع ^(٤) ، فيما سمعت ، وامتداد الكنيسة يبلغ نصف ذلك ^(٥) ، وهي مسقوفة بالرصاص مفروشة بأنواع الرخام . وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض عظيم للعمودية يجرى فيه الماء دائما من نهري شق هذه المدينة ^(٦) كما تشق دجلة مدينة الزوراء . وفي صدرها كرسي مذهب يجلس فيه الباب فى أيام المواسم والأعياد . وتحتيه باب مصفح بالفضة ^(٧) يوصل إلى السرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هذه البلاد ، ولكنى علمت أن أهل المشرق من أمم النصرانية يردون ذلك عليهم ، ويذهبون إلى أن بطرس إنما قبض فى أنطاكية لا فى رومة ، وأن كرسي أنطاكية عندهم هو المقدم على كرسي رومة ، وفى هذه الأقوال نظرا لمحل لذكره فى هذا الكتاب . وفى خارج الكنيسة عمود من رخام قائم على قواعد أربع من النحاس ، وفى أعلاه عمود من الصخر قد رفعت على رأسه كرة مذهبة يراها كل من فى رومة كأنها علم لموضع الكنيسة .

(١) القرماني ٥ : ٢٢٤

(٢) المقرئى والمخاضرة ١ : ٣١ والقرماني ٦ : ٥٥

(٣) القزويني .

(٤) تقويم البلدان ٩٩

(٥) ابن خردادبة ٩٣

(٦) تقويم البلدان ٢١١

(٧) كذا وجدت وصف هذه الكنيسة فى أسفار العرب من أهل الأسفار وغيرهم وذلك قبل

الحروب الصليبية .

ولما كان الغد أذن القيصر لى بالدخول عليه فلقيته في ثياب من الديباج وعليه تاج من الجواهر أعظم مما كان عليه بالأمس كأنه أراد أن يظهر لى عظم سلطانه ^(١) بما تحوى خزائنه من الجواهر والمال . ولما أمرنى بالجلوس بلغته ما أوصانى الرشيد بتبليغه من أمر بنى أمية بالأندلس وما يروم من موافقته عليهم ، ولكن بإيجاز أبعدت فيه التأكيد ليكون له إشارة إلى المصلحة ليس غير ، فخاطبني بما يقرب معناه من كلام وزيرنا جعفر (أعزّه الله) ، فأكبرت ذلك من غير أن أعجب منه ، إذ كنت أعلم أن عقول الحكماء قد تتوارد على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد . وتتلاقى ولو على بعد البلاد . ولما ذكرت له قرابة العباسيين من النبي صلى الله عليه وسلم فكر في نفسه حتى ظننت أنه سيقول لى إن من الناس من هم أقرب منهم ومن بنى أمية إليه . ثم انبسط له بحال الحديث فقال إني لأرى الإسلام اليوم أقل اجتماع عصبية منه في أيام الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) لتجزئته بين المشرق والمغرب . على أنى أرى دولة صاحبك أعظم هذه الدول وأوسعها رقعة مملكة . وأما أمر الأمويين فإنه وعرا المرام لا يناله إلا على تمداد الأيام . إذ لا يدل الشقاق بين السلطان وعمه على ضعفهم عن رد العدو ، فلو شئت صاحبك عليهم لحوَّطوه بأطرافهم وقتلوه بغرض واحد تدعوهم إليه الحالة التى يقعون فيها جميعا من الغرر والإشراف على الخطر ، ولقد كنت أرى تغلبه قسرا على الأندلس من قبل أن يوافيها الأمويون ، وقد كانت قضائتها على أغراض متضاربة أفضت بعد الحروب فيما بينهم إلى تغلب الجيرة عليهم ، أما اليوم وقد وافوها بالأموال ^(٢) فليس من السداد أن يبادئهم بالقتال على حين يأتون من إفريقية بالمرتزقة من الرجال « وهم الذين يكون أنفسهم للحروب » ^(٣) ، وربما

(١) ذكر صاحب الأغاني ٢ : ٢١ أن كبرى لما أخذ رسوله إلى قيصر الروم عامله على السبريد

ليريه سعة أرضه وعظم ملكته فذكرت عن هذا القيصر مثل ذلك .

(٢) المقدمة ١٥٨

(٣) السعوى ٢ : ٤٠٩

تعذر عليه مقاتلتهم من المغرب لما هو ناشب من الفرقة بينه وبين العلويين فيكون له عدوان من الأمويين وأهل البيت جميعاً ، وقد قيل في الأمثال «إن الزئبر إذا جمع منه جبل يوثق به الفيل المغتم» ثم إنه ذكر لي عند ما استمضته إلى مظاهرة الرشيد أن بينه وبين الأندلس ملوكا يحب أن يبقى معهم على عهد المسالمة والموادعة ، وأنه يوجه همته إلى مناصبة الملوك الذين هم في ناحية المشرق كأنه يريد أن يستولى على القسطنطينية . هذا ما وقع بيني وبينه من الحديث ، وقد قال لي في خاتمة المفاوضات قل لأمر المؤمنين إني عنيت بحاجته وسأكون ظهيرا له فيما يروم واقراً عليه السلام .

ذلك ما كان من أسرار الرسالة لم تتوسع المصلحة منها إلى ما وراء التواؤم الظاهر من السياسة كما رأيت ، وليئت في رومة ثلاثة أيام متواليات . وكان الأبرذور قد اتخذ لي ويمة دعا إليها عطاء دولته ، وتكرم على بخاتم من الياقوت في سبيل التعطف ، ثم طلب إلى أن آخذ الطريق إلى تونس لأوجه إليه منها برقة عظيم من عطاء النصرانية ، يقولون إنه من أهل الجنة ^(١) ، فأجبت بالامتثال إلى ذلك ، فسير في صحبتي مركبا من أسطوله ليحملها إليه وغادر مركبنا ساحل رومة في يوم شديد الحر من شهر رمضان كأن الحرارة فيه تشمل الأقاليم المرتفعة أيضا وقد حَقَّ تسميته بـرمضان من الرمض وهو شدة الحر ^(٢)

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وأنا على متن السفينة وبينى وبين تونس مسيرة يوم وليلة . والله أسأل أن يبلغنا المقصد بالسلامة وهو الكفيل بالتيسير والتسهيل لا رب سواه .

(١) هو قبر يانوس فيما يقولون شهيد من شهداء النصرانية .

(٢) الكنز ١٤٦

الرسالة التاسعة

المرور بتونس من بلاد العرب

كتبت إليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة . واليوم أكتب إليك من المشاعر المباركة بعد إبلاغها إلى الرشيد . فإني لما قفلت من ديار الروم عرجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملها من لدن ابن الأغلب وفادتي ، وأخرج إلى زورقا حملني عليه إلى المدينة ، لأن البحر يبعد عنها نحو عشرة أميال (١) ، وبينهما بحيرة قريبة الغور فسبق اهتمامي بانخراج الرمة التي أوصاني بها القيصر إلى مركب الروم لإبعادهم عن مرفأ المسلمين اهتمامي بما سواه من الأمور . ثم إنني نظرت في شأن ابن الأغلب إبراهيم وانقطاع أهل الشيعة إلى حوزة إدريس بن إدريس (رضي الله عنه) من غير أن أكشف عما بالنفس من الميل مع أهل البيت ، إذ كنت أوجب على نفسي أن أقوم بصدق الخدمة للرشيد في هذه الرسالة التي حملني مجاشمها واستودعني فيها أمانته ، فاتصل بي من أخباره معهم جسم حملت خبره إلى ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) . وقد أذكرك حال العلويين في المغرب أيام علي وأبي بكر وعمر بن الخطاب (رضي الله تعالى عنهم) من الصلاح والخير والبركة ، يتبعون الرسوم التي حفظوها عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا يقيمون أهبة الملك إلا ما تدعوهم إليه حاجة الخلافة ، وكذلك أهل الشيعة من التزام الخير واتباع السنن العادلة والمحافظة على القراءة التي قرأها علي (عليه السلام) إلا أن الأغلب (دمر الله ملكه) ينقم منهم أمر الدنيا والدين ، ولا ذنب لهم إلا أنهم يحرصون على الخير والصلاح ويميلون مع أهل بيت السلالة الشريفة الطاهرة .

وهذه القراءة التي ينقمها الأغلب من أهل الشيعة قد كان لها شأن عظيم في صدر الإسلام وأسالت من دماء المسلمين بحارا بما تعصبوا له من الأغراض . كان صدور الخلاف فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة أبي بن كعب ، وكان أهل الشام في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد انقطعوا إلى قراءة يعارضون بها قراءة أهل العراق وزعموا أنهم أخذوها عن المقداد بن الأسود ، وكان عثمان أفي خلافته قد عقد مجلسا من الصحابة على أن يحمل الناس على قراءة واحدة في جميع لأقاليم والأطراف ، فجمع الرقاع والأدراج والكتاف والعُصَب التي كان مكتوبا فيها القرآن الكريم ، وأمر بأن تحرق كلها وأن ينسخ من الصحف التي كتبت في خلافة أبي بكر (رضى الله عنه) . وكانت مودعة عند حفصة^(١) زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) أربع نسخ^(٢) يبعث بها إلى الديار الإسلامية ، فولى نسخها زيد بن ثابت الأنصاري^(٣) وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي . وقيل عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر^(٤) وقال لهم عثمان إن اختلفتم في شيء أو كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلغتهم^(٥) . ولم تزل هذه المصاحف المنسوخة محفوظة في مكة والشام والكوفة إلا المصحف الذي كان في المدينة فإنه فقد في الحرب التي أثارها يزيد بن معاوية .

ولما انفصلت عن تونس ركبت البحر تَوًّا إلى الإسكندرية وفي نفسى أن أبلغها في عشرين يوما ، فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة ونكصت بنا السفينة على الأعقاب مسيرة بضعة أيام إلى أن هدا نائرا لنوء وطابت لنا الرياح ، فسرنا بمعونة الله إلى أن شاهدنا منار هذا الثغر المحروس . والقطر المأنوس . ليال

(١) أبو الفداء ١ : ١٦٦

(٢) الفخرى وابن جبير ١٩٥

(٣) أبو الفداء ١ : ١٦٦ وابن جبير ١٠٢

(٤) الكندى .

(٥) أبو الفداء ١ : ١٧٦

خلون من شهر شوال ، فلما طلع النهار انتصب أمامنا في عظيمه وهول مرآه ^(١) حتى كأنه عمود يلقى القبة الزرقاء ، ويصل بين الأرض والسماء .

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا ينال طويل

فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدى به أصحاب السفن على بعد سبعين ميلا ، وربما قدر الناس ارتفاعه بنحو مائة وخمسين باعا ^(٢) ، وهم يقولون إن بانيه الاسكندر الرومي الذي ملك معظم الدنيا أو ملك من خلفائه يقال له بطليموس قاسى مع رومة حروبا صعبا في البر والبحر ، فبناه لارتقاب جندهم والاستعداد لمراكبهم قبل وصولها . ويحدثون عن الوليد بن عبد الملك الأموى ^(٣) أنه سؤل له جهلة قومه أن يهدمه طمعا في الوصول إلى ما حوى جوفه من الكنوز المخبأة فشرع في الهدم والدمار حتى قوض جانبا من هذا المنار . ثم تعاضمت عليه النفقة ولم يجد ما يستعوض به عنها فكف عن عجز لحقه ولوم نراه يستحقه . وكان مقامى في الإسكندرية عند عاملها الليث بن الفضل الأبيوردى ^(٤) ثلاثة أيام ، وكانت أحب مع ما لقيت من أنسه ووجدت فيها من سعة العمران واستبحاره أن أمدت فيها بساط الإقامة لولا أنى خفت قوات الحج ، فانصرفت عنها في اليوم السابع من شوال ، وكنت قد استقرت كثيرا من أماكنها المشهورة ، ووقفت على ما اتسع لأهلها من طرق المعاش فرأيت أن أجعل الكتاب بذكره ليبقى نفرا للمساكين في استيلائهم على هذه المدينة التي ليس في بلاد الروم ما هو أعظم منها .

(١) ابن بطوطة ١ : ٢٩ وابن جبير ٣٧ وعبد الطليف ٦٤

(٢) تقويم البلدان ١٠٥ وابن جبير ٣٧ وربما كانت المائة قبل أيامهم أكثر علوا مما ذكره يقول ابن الأثير في حوادث سنة ١٨٠ أنه كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس المائة وربما ذكر المقرئ شيئا من ذلك في كتاب الخطط والآثار . ويقول القرمانى ٦ : ٦٤ إن طولها ألف ذراع إلى غير ذلك .

(٣) المقرئ والمحاضرة ١ : ٤٣ والمستطرف ٢ : ١٧٨ وتقويم البلدان ١٠٥

(٤) ذكر أبو المحاسن ١ : ٥٢٢ أنه كان عامل مصر في ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة .

في ذكر الإسكندرية

الإسكندرية مدينة تجارة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعاً وأحفلها بنياناً ، وإليها انتهى في المنعة والحصانة ، إذ كانت مبنية على لسان من الأرض والبحر محيط بها من جميع جهاتها ، ولذلك يصعب منالها على العدو وإن لم يكن وراءها وعرولاً هضاب يتعزز بها جانبها من البر ^(١) ، ولقد كانت في قديم الزمان خاملة الذكر يقال لها رقودة ^(٢) فلما تبوأها الإسكندر الرومي ^(٣) وصارت كرسى الملك بعده تجللت بجلال الحضارة . وتحلت بجلال النضارة . واتصلت عمائرهما تحت الأرض ^(٤) آزاجاً يجتمع فيها الماء كاتصالها فوق الأرض ، وأقيمت أسواقها في نهاية من الإبداع ^(٥) ، وشوارعها في غاية من الاستقامة والاتساع ، بحيث إن الغريب الزائر يسير فيها نهاره أجمع فلا يضل ^(٦) .

ولقد لقيت في كثير من أماكنها وطرفاتها عمداً وألواحاً من رخام تحمل العامة على الظن بأنها هي إرم ذات العماد ^(٧) التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وأعظم ما شاهدت فيها العمود المعروف بعمود السواري ^(٨) وهو مائل للعيان في طرف المدينة تحف به غابة من النخيل ، وهو حجر صلد من الصوان الأحمر ، يبتدئ من قاعدة غليظة وينتهي إلى تاج مكلل بالرسوم ، والناس يقولون إنه كان في أعلاه

(١) يقول ابن خلدون في المقدمة ٣٠٥ ضد ذلك وإنه يسهل وصول العدو إليها .

(٢) المقرئى ١ : ١٤٧

(٣) القزوينى ٩٦

(٤) ابن جبير والمقرئى ١ : ١٥٠

(٥) ابن جبير ٣٦

(٦) تقويم البلدان ١١٣

(٧) المقرئى والمسعودى وياقوت وابن جبير .

(٨) ابن بطوطة ١ : ٣٠ والقزوينى ٩٧

قصر معلق في الجول لأهل العلم والرياسة^(١) ، وإنه كانت فيه خزان كُتب أحرقها عمرو بن العاص^(٢) . بإشارة عمرو بن الخطاب رضى الله عنهما ، إذ كتب إليه « الكتب التي ذكرتها إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى ، وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها » ولكن هذا قول بعيد عن التدقيق والنظر . وظنى بهذا العمود أنه نصبه الروم معارضة للعمد التي اتخذها الفراعنة أمثال المسلات ، وطمعا في تخليد آثارهم في مصر إلى انقضاء الدهر .

وقد رأيت أهل الإسكندرية أصحاب الذوق لطاف الطبع والخلق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصبا عندهم واعتدال الحر والبرد في إقليمهم ، على أن أكثرهم مهزولو الأجسام وهرُ البنية^(٣) . ووجدت لهم تصرفا واسعا في التجارة^(٤) ، لأن المال موفور عندهم ، والخيرات تأتيهم من مصر وجميع الأمصار فيصرفون في الليل بالبيع والشراء كتصرفهم بالنهار^(٥) ، وسمعت أنهم بلغوا من سعة العيش إلى أن بنوا في مدينتهم ألف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر ألف دكان^(٦) ، وهذا شيء من الكثرة لم يسمع بمثله في البلدان .

أما المسلمون في هذه المدينة فإنهم على رأينا من القول بخلافة أهل البيت ، ويتعبدون على مذهب الإمام مالك^(٧) ، ولكنهم يجهرون بالبسملة في صلاتهم ويتدنئون بها عند الخطبة^(٨) كأتى بهم قد اقتدوا في ذلك بأهل الشام إذ كان الاتصال فيما بينهم مستمرا على غير انقطاع . وأما أهل الذمة فانهم يزيدون على

(١) المقرئى ١ : ١٥٩

(٢) أبو الفداء وأبو الفرج ١٨١ والمقرئى .

(٣) المقرئى ١ : ٤٤

(٤) المحاضرة .

(٥) ابن جبير ٣٩

(٦) المقرئى والمحاضرة ١ : ٥٩ والقرماني ٥ : ١٣٧

(٧) المقرئى .

(٨) المقرئى ٣٣٤

أربعمائة ألف^(١) بين نصارى ويهود، وهم يؤدون جزيتهم إلى الرشيد ديناراً واحداً ميمونيا^(٢) بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين ، واستمرت على ذلك في عهود الخلفاء السالفة . وفي الإسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية إلا أن معظم سوادهم^(٣) روم يرجعون في أمورهم إلى بطركهم بالقسطنطينية ، وقبط ينكرون على الباب خلافة المسيح ويرجعون في ملتهم إلى مطرك لهم يسمى مرقص^(٤) كرجوع المشاركة إلى بطركهم في أنطاكية^(٥) كما مر في موضعه من الكتاب .

وهؤلاء القبط هم أهل مصر الأولون ، وفي أيديهم الكنائس المعظمة التي لا يوجد مثلها عند الروم ، إذ كانوا السابقين إلى تشييدها والحافظين عليها تحت ظل الإسلام . وأعظمها بيعتان إحداهما كنيسة مرقص^(٦) وهي بجوار الدار التي بناها الزبير بن العوام^(٧) ، فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الخواريين والعظماء الذين ظهرت لهم الكرامات في ملتهم . والثانية كنيسة يوحنا المعمدان^(٨) قد موه سقفها بالذهب ، وصورت فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفي جوارها دور كثيرة لهم قد رفعت على طبقات ثلاث^(٩) ، وارتفعت على دور المسلمين ، مع أن المطاولة عليهم في البناء محظورة على أهل الذمة . وهذا أمر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضون عن مجاهرتهم في ملتهم بأشياء لو بدت منهم في العراق أو الحرمين لجلبت عليهم

(١) ابن خردادبة ١٢١ والمخاضرة ٥٩ والمقرزي ١ : ١٦٢

(٢) ذكر صاحب الأغاني أن هذه الدنانير سميت بالميمونية نسبة إلى ميمون بن عامر ١٧ : ٧٢

(٣) المقرزي ٣ : ٤٩٢

(٤) ذكره المقرزي ٣ : ٤٩٣

(٥) المسعودي ١ : ٢٧١

(٦) المقرزي ٣ : ٤٩٢

(٧) ذكرها ابن خلدون في المقدمة ١٧٨

(٨) المقرزي ٣ : ٥١٩

(٩) القرماني والمقرزي ١ : ١٦٢

الحين في أسرع من طرفة عين . وذلك مثل مجاهرتهم بالإنجيل وإخراج آياتهم إلى الأسواق وحمل صلبانهم على رؤوس الرماح ^(١) وغير ذلك مما لا ينقمة منهم المسلمون ^(٢) ، وكانهم إنما يتساعجون في أمرهم تجنباً لإثارة السواكن أو طمعاً في استمرار الخلطة التي وقعت بينهم وأشبهت أن تكون ألفة وصفاء . بل مودة وإخاء . وقد وقع لهم وأنا في الاسكندرية موسم عظيم يسمونه عيد الميلاد، يتخذونه في اليوم الذي ولد فيه المسيح (عليه السلام) وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك ^(٣) ، وعادتهم في هذا الموسم أن يحجوا ليلهم كله بالسروور، ويخرجوا آياتهم إلى الأسواق ، ويتوزوا تأنسهم بالشموع المليحة الأصباغ . فكنت أرى كثيراً من المسلمين يتابعون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها في أزقة المدينة، كأنهم يشاركون النصارى في أفراحهم ، ويظهرون الأئس بهم إلى انقضاء العشاء الآخرة .

وقد وجدت القوم من الروم والقبط وسائر ملل النصرانية يتأقنون في صنوف الملابس من الخرز والديباج والوشى الذي يصنعونه في مدينتهم ، ويضرب به المثل في جميع البلاد ^(٤) ، ونوع من الكتان يتنافسون في لبسه إلى أن يبيعوا الدرهم من الثوب المخيط منه بدرهم فضة ^(٥) . وكنت أحب أن تظهر آثار النعمة في لباس المسلمين ^(٦) مثل ظهورها في أهل الذمة ، فقد حدث الرواة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ جبة مكفوفة بالحرير ^(٧) ، ولبس ثياباً بأربعة آلاف درهم وصلى

(١) المقرئى .

(٢) المقرئى ١ : ٤٩٤

(٣) المسعودى ١ : ٢٧٢

(٤) الأغاني ٧٦٥

(٥) المقرئى ١ : ١٦٣

(٦) تزيين الأسواق ٣ : ٥١

(٧) مجمع الأنهر ٩٤

فيها^(١) ، وكذلك حدثوا عن عائشة أنها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوبا من الخز^(٢) وعن جماعة من العلماء والفقهاء أنهم لبسوا الثياب المهتدة^(٣) ، فلا أرى موضعا بعد هذا لأن يكون لبس الحل الفاحرة محظورا في الشرع^(٤) .

الديار المصرية والنيل

توسع في الكلام إلى ما خرجت به عن قص الرحلة ، ولكنني أعود إلى ذكر الأمور التي شاهدتها في ديار مصر ، فإني ركبت من الاسكندرية أريد القسطنطين ثم أسوان ثم عيذاب إلى طرف الصحراء من ساحل البحر . فمررت بدمهور وصا وبرا وطنتة وقلوب في أسرع مدة من الزمان . إذ ليس في مصر جبل ولا مسلك وعري يعترض الركاب . وكانت العجارة متصلة في طريقنا إلى القسطنطين ، ومن حولها اخضرار في السهل يمتد مع البصر إلى أن ينقطع . فأخبرني من كان يصحبني من لدن الليث أن البلاد يتنوع فيها هذا المنظر أربعا في كل سنة ، فتكون ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء^(٥) ، أولها شهر أيب المعروف بتموز عند المشاركة ، يركبها النيل إلى أن تصير ضياعها في بحر من الماء لا سبيل إليها إلا في الزوارق . وثلاثة أشهر مسكة سوداء أولها شهر بابه وهو المعروف بشرين أو أقطوبر^(٦) ، ينكشف الماء عن الأرض ويترك عليها طينا علكا أسود فيه دسومة صالحة للزراعة يقال له الإبلين^(٧) وثلاثة أشهر زمردة خضراء

(١) جمع الأنهر ٧٩٤ ونقل الشيباني عن ابن جريج أن ابن عباس كان يردى برداء قيمته ألف

درهم العقد الفريد ٣ : ٣٤٣

(٢) الزرقاني ٤ : ١٠٤

(٣) البخاري وغيره .

(٤) ابن عابدين ٥ : ٣٤٤

(٥) المنوفى

(٦) في المسعودي ١ : ٢٧٢ أسماء الأشهر الرومية مثلها هي اليوم عندما

(٧) عبد الطيف ٣

أولها شهر طوبة الذي يمر بنا اليوم ينجم فيه الزرع ويظهر ربيع الأرض حتى لا يبين الثرى من خلاله . ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدىء من برمودة المعروف بأبريلس عند الروم فيتورد الزرع ببلوغ الحصاد . ويكون كسبيكة الذهب في المنظر .

وإنما يجلب الخيرات إلى مصر ويخرج الزرع البائع من أرضها الجُرْز ما يحمل إليها النيل من الطين و يفيض عليها من الماء في أيام من السنة معلومات ، فكأنما تستعيض بالمنفعة منه عن المطر الذي يحبس الله عنها رفقا بمصالحها أن تختل ومساكنها الطينية أن تبتل . وقد قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه ^(١) « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرْز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » فجعل الله عز وجل النيل من الغمورة والاستبحار بحيث يكفي البلاد كلها من غير أن يكون فيها نهر ولا عين ولا مسيل ماء غيره ، والناس يجمعون محاسنه في ثلاثة ^(٢) : الأول غمورته إلى أن يكون بحرا تسير فيه السفن . والثاني بعد منفجره إلى ما وراء الخط من جبال القمر . والثالث طيب مسلكه على رمال تروقه وتأخذ المزوجات الغربية منه . وإني وجدت له حلة من الخير والبركة أفضل من هذه المحاسن هي أنه يزدرع عليه مالا يزدرع على نهر غيره من أنهر العالم ^(٣) فكأن من نهر تجتمع فيه محاسن الغمورة وبعد المنفجر وطيب المسلك ثم لا تحصل المتفعة منه مثل ما يحصل لأهل مصر من بركة نيلهم .

وشأن هذا النهر المبارك في الفيضان أنه يتبدى بالزيادة في شهر أبيب ، والقبط يقولون إذا دخل أبيب . كان للماء ديب ^(٤) . ثم يغلظ في مسرى وهو شهر آب ، ويزيد بعد ذلك زيادة عظيمة إلى أن يقف حدها في منتصف توت ،

(١) المنفى .

(٢) المقرئى ١ : ٦١ وتقويم البلدان ٤٥

(٣) ابن بطوطة ١ : ٧٧

(٤) المقرئى .

وهو شهر أيلول المعروف بسبتمبر عند الروم ، ثم لا يلبث بعد ذلك حتى يتراجع بالانحسار وقد كفى الناس سقاية زرعهم بمدوده على حد قولهم ^(١) :

كأن النيل ذو فهم ولب لما يبدو لعين الناس منه
فيا ترى حين حاجتهم إليه ويمضى حين يستغنون عنه

وصفوة القول في هذا الفيضان أن منشأ السحب الماطرة ^(٢) إلى ما وراء خط الاستواء من تلك البطاح ، وللقبط فيه أقوال كثيرة لا موضع لها في هذا الكتاب ^(٣) ، وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه « قبل حدوثه » من هبوب الريح في أول يوم من بؤونة وهو شهر حزيران عند المشاركة . وقد قرأت في بعض الكتب أن هذا النهر هو نهر العسل في الجنة ^(٤) ، وأن حائدا اليهودى الذى تاه فى الأرض دهرًا لم يستقر فيه بموضع وصل إلى الجنة مما وراء السودان ^(٥) فوجد أرضا ذهبًا وترعا ذهبًا وتلاعًا ذهبًا ^(٦) ، ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل قوس السحاب . وهذا تصور لطيف كنت أقرأ مثله فى دواوين الشعراء فأحببت أن أذكره لك حتى إذا كنت بعيدا أن تعجب منه من حيث الحقيقة فلا أقل من كونك تعجب به من حيث المجاز .

ولما وصلت إلى القسطنطينية نزلت على قاضيها عبد الرحمن بن عبد الله من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ^(٧) ، فلما أصبحت وكان يوم الجمعة جمعت فى جامع عمرو بن العاص الذى قاد الجيوش الإسلامية إلى هذه البلاد وانتزعها من يد المقوقس

(١) المقرئى .

(٢) تقويم البلدان ٤٥

(٣) راجع المجلد الأول من مخطوط المقرئى .

(٤) المقرئى ٥١ : ١ والزرقانى ١ : ٣٧٥

(٥) الاسحقاقى ٢٦١

(٦) المنوفى .

(٧) المحاضرة ٢ : ٨٩

كما هو معروف. وهو من المساجد المشهورة في الإسلام حسنا وتزيينا وإحكام صناعة، وجدت على حائطه القرآن الكريم مكتوبا على ألواح بيض من الرخام يقرؤه الإنسان وهو قاعد^(١)، ثم زرت مشاهد كثيرة من مشاهد آل البيت والصحابة والأولياء والشرىفات العلويات. ولما مالت الشمس ركبنا إلى موضع غربى المدينة يقال له الجزيرة وهو مجتمع اللهو والترفه لإحاطة الماء به، وهناك المقياس الذى يعتبر به قدر زيادة النيل^(٢)، بناه سليمان بن عبد الملك الأموى فى آخر المائة للهجرة النبوية المشرفة، وهو عمود رخام أبيض مفصل على اثنتين وعشرين ذراعا من الأذرع القديمة التى كان يتعامل الناس بها قبل أن يضع الرشيد الذراع السوداء التى تريد عنها باصبع وثلاثى إصبع^(٣)، وهو مبنى فى موضع ينحصر الماء فيه فإذا انتهى الفيض إلى ثمانى عشرة ذراعا منغمرة فيه كان ذلك الغاية فى طيب العام^(٤).

وقد أخبرنى عبد الرحمن هذا القاضى النبيل أن ما يغمره النيل بمصر يبلغ مائة ألف ألف فدان^(٥)، والفدان عندهم أربعائة قصبة، والقصبة عشر أذرع، وهو القدر الذى وجده هشام بن عبد الملك عند ما مسح البلاد، وكلها ذات خيرات كثيرة. وغللات وافرة. مما يحمل الإنسان على أن يظن فى أهلها اتساعا فى النعمة واسترسالا فى الطيبات من بسطة العمران، غير أن الأمر على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالأرياف إذ غلب على عامتهم الخمول^(٧) وتولاهم الشقاء،

(١) القزوينى ١٥٧

(٢) المقرئى وابن جبير ٥١ والمسعودى ١٦٤: ١

(٣) ابن خرداذبه ١٦١ والمسعودى ٤٠: ١ والمقرئى ٥٩: ١

(٤) ابن بطوطة ١: ٧٨

(٥) المقرئى ١: ٨٠

(٦) المحاضرة ٢: ١٩١

(٧) المقرئى ١: ٤١ قول الرحالة مائة ألف ألف فدان انتقده ابن المدير بأن ما يزوع

فى مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان.

ولم ينفقوا المال الذى أعطاهم الله فى مطالب السعة ، بل دفنوه تحت أطباق الأرض وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعسر الحال ليسترقوا القلوب رفقا فى جباية الأموال . فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئا من الرحمة . وربما انقلبت الغاية إلى التثقيب عليهم فى الخراج لما تسومع عنهم من تخبئة الكنوز بحيث رأينا لحكامهم اقتدارا فى تكثير الجباية ما عرفنا مثله لغيرهم من ملوك الأمم .

فى وصف الأهرام

وفى غد اليوم الذى وصلت فيه إلى القُسطاط ركبت إلى أهرام الجيزة ^(١) ، وهى ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم ^(٢) غربى النيل ، وهى من أهول ما بناه المتقدمون وأجله خطرا . وأبقاه على الأيام أثرا . والعهد بجميع الأشياء يخشى عليها من الأيام إلا هذه الأهرام ، فإنها صبرت على طوارئ الحداث حتى راح يخشى منها على الزمان . اثنان منها عظيمان وواحد دونهما فى العظم ، وهذان الهرمان الكبيران متناهيان فى السمو ، يخيل للرأى أنهما نهدان قد نهدا فى صدر الديار المصرية ^(٣) ، وهما مبذبان بحجارة بيض صلبة قد اقتبعت من مغاور تحت الأرض بعيدة يدخلها الفارس برمحه فيرتاح فيها . وقد تقدمت إلى بعض من كان يصحبنى من لدن السلطان أن يطلق سهما إلى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظة وساعد قوى فسقط السهم دون ثلثى المسافة ^(٤) ، أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مضلع مثلث الزوايا مربعها ، يبتدىء من قاعدة عريضة ويضيق قليلا قليلا كلما ارتفع إلى أن ينتهى إلى سطح صغير يكون مبرك بعيرين فى الهرم الصغير ومبرك ثمانية فى الهرمين الكبيرين . وهذا نمط فى البناء يزيد متانة يقوى بها على ممر الليالى .

(١) عبد اللطيف ٥١ والشرشى ٢ : ١٠١ والمقرزى .

(٢) هذا تشبيه لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتاب .

(٣) تقويم البلدان ١٠٨ .

(٤) ابن بطوطة ١ : ٨٢ .

أما السبب الذى دعا الفراعنة إلى نصب هذه الأهرام فلم يزل مستترا تحت ظل الإبهام ، فمن قائل إنها بنيت مستودعا للعلم ، ومن قائل إنها اتخذت لتخجير الرمال النائرة من القفر على الفسطاط ، وفى وجه من التاريخ أنها بنيت لدفن الكنوز^(١) واحتكار الحبوب لأيام يوسف عليه السلام^(٢) ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الآراء بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للأشياء ، فإن العلم لا تحفظه الحجارة إن لم يستودع صدور الرجال ، والرمل لا يحجزه سد غير متصل العبارة ، وبين الهرم والآخرة فرجة واسعة المجال ، والحب لم يحتكره فرعون إلى دهر لا انقضاء له وفى موضع لا يقدر منه أن يتناوله . ولست أظن إلا أن هذه الأهرام قد بنيت لحودا^(٣) للفراعنة الذين كانوا يدينون بالرجعة إلى هذه الدار ، ويعنون بتحصين مدافنهم من عبث الأدهار ليحفظوا فيها حلبيهم وأموالهم إلى يوم النشز كما كان يصنع فى جاهليتهم أهل مصر إذ يحملون مع الأموات مالهم وأشياءهم ليجدوها بين أيديهم يوم رجعتهم إلى هذه الدار كما كانوا يزعمون^(٤) .

وقد قرأت فى بعض الكتب أن باني الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد ، وجه زواياه إلى بعض الأبراج السماوية تيمنا بالبركة فى اعتقادهم وكتب عليه «أنا سوريد الملك أكملت بناء الهرم فى ست سنين فمن جاء بعدى وزعم أن له ملكا فليهدمه فى ستين سنة» (وفى رواية ستمائة سنة) ، والهدم أيسر من البنيان ، وقد كسوته بالديباج الصرف فليكسه بالحصير والحصير أهون من الديباج^(٥) ، أما توجيه زواياه إلى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو افتراض ليس للرد عليه موضع مع

(١) المقرئى ٣ : ٢٢

(٢) المحاضرة ١ : ٣٤

(٣) المقرئى وتقويم البلدان ١٠٨

(٤) عبد اللطيف والمحاضرة

(٥) ابن بطوطة ١ : ٨٢ والمقرئى والمحاضرة .

ما نعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم إياها . وأما الكتابة التي يعزونها إلى فرعون فإنى لم أجد لها أثرا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحدا من الناس يقرؤها . حتى لو جاز أنها كتبت وقرئت ما صح أن تكون كسوته بالحصير مما يعجز عظماء الملوك ، وسعته من الركن إلى الركن الآخر ثلثمائة وستون خطوة ، إنما المعجز في هذه الآثار هو إحكام بنائها ^(١) بهذا الشكل البالغ النهاية في الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شئ يتلاصق به من الكلس وغيره من المواد ، ولو أن نجارا اتخذ صندوقا من الخشب ما أحكم عمله ^(٢) ووصل قطعه مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تنفذ فيه الإبرة الصغيرة .

ورب زائر يقف بهذه الأهرام فتشغله الدهشة بعظمها وهولها عن تأمل ما هو حقيق أن نعتبر فيه من آثار السلف . فانا لا أنكر أن الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضخام السلطة عظام الصول والحول . غير أنى تمثلتهم في نفسى ملوكا عتاة قد ظلموا الرعية بما آتاهم الله من السلطان ، واستخدموا العباد في مشاق لا فائدة منها ولا طائل تحتها سوى أن تنطق بظلمهم على ممر الأزمان . أو أنى أتمثلهم جبابرة قد كثر المال تحت أيديهم فلم ينفقوه في البر والإحسان . ولا انتفعوا به في غرض من العمران . بل رفعوا به جبالا شاهقة من الصوان . وليس في أحد الأمرين منصرف عن لؤم بهم أو لوم أوقعه عليهم ، فلئن أنفقوا المال في غير سبيله لقد أسرفوا في الملك ، ولئن قبضوا الأجور عن العملة بعد أن نهكوا أبدانهم بالعنت الشديد لقد ضلوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بأبخس الأثمان .

ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجبية من الحجر قامت كالصومعة ^(٣) ومثلت رأس آدمى وعنقا بارزة من الأرض في غاية العظم يسميها الناس بأبى الهول ،

(١) عبد اللطيف ٥٣

(٢) الابشهى ٢ : ١٧٧

(٣) المقرئى ١ : ١٢٢ وابن جبير ٥٠

ويزعمون أنها طَلَّسَ الرمل لئلا يغلب على أرض الحيزة^(١) ، وهى تشهد لصناع ذلك الوقت من القبط بحذقهم فى فنون الرسم وصحة التمثيل ، لأنهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الأعضاء على كبره ، وجعلوا عليه حمرة لا يزال دهانها محفوظا مع الحجر^(٢) ، وكان الزمان يعيره رونقا وجدة ، حتى إنه ليخيل للناظر إليه أنه ذو مسحة من جمال وأن شفتيه تفتحان للابتسام ، وقد أخبرنى حاجب البيت أنه كانت له لحية تكسرت على تمادى الأيام ، وأن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعا^(٣) ، إلى حديث طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبغيره من آثار فرعون ، فيقول وهو أعرف الناس بالبلاد^(٤) إن بمصر ثمانين كورة فى كل كورة مدينة عظيمة وفى كل مدينة آثار حسان ، ورسوم باقية على ممر الزمان^(٥) .

إلى عذاب بخدة فالبلد الحرام

كان انفصالنا من الفسطاط فى بكرة يوم قارس برده ، وكانت العارة متصله فى طريقنا على شاطئ النيل ، فاجترنا بلدًا يعرف بمسنية ابن خصيب^(٦) فيه الأسواق والمرافق والحمامات ، ثم اجترنا بلدة يقال لها أنصنا وهى تبعد عنه بمرحلة طويلة^(٧) فيها شجر اللبخ^(٨) الذى تصنع منه السفن ، وكثير من العمد والصخر المجل

(١) القرمانى ٦ : ٥٥

(٢) عبد اللطيف ٥٩

(٣) عبد اللطيف ٥٩

(٤) المقرزى وكتاب المحاضرة للسيوطى .

(٥) قال الجاحظ وغيره بحجاب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشر منها فى سائر البلاد وباقيها فى مصر ،

المقرزى والمحاضرة والقرمانى ٦ : ٥٥

(٦) ابن جبير ٥٤

(٧) تقويم البلدان ١١٥

(٨) المقرزى ١ : ٢٠٤

بالنقوش والرسوم ، وفي بعض الكتب أنها كانت مسكناً لسحرة فرعون (١) ، ثم اجترنا بمحاذاة حائط عتيق البنيان يقال له حائط العجوز (٢) وهو يمتد من القسطنطينية فوقه إلى جهات أسوان يزعم أهل الأخبار أنه بنته ملكة يقال لها دلوكمة وقاية لابنها من الوحش أن يهاجمه في مزاولة القنص (٣) ، مع أن الأقرب إلى العقل أن يكون بناؤها له خوفاً من الآدميين وغزواتهم لا من الوحوش التي يصح أن تكون في هذا الجانب منه كما هي في الجانب الآخر . ثم مررنا بمنفلوط في البر الغربي (٤) وفيها قبح مشهور برزانة حبه (٥) ثم بأسسوط وهي من النيل على ثلاثة أميال ، فيها الأفيون المصرى الذى يعمل إلى سائر البلاد (٦) وهو عصارة الخشخاش الذى يزرع فيها (٧) وفيها جاورها من البلاد ، ثم ركبنا مرحلتين إلى إنعيم وهو بلد مشهور فيه البرابا العظيمة التى صور فيها ملوك مصر (٨) وصورت فيها الأفلاك والكواكب حين كان النسر الطائر في برج العقرب (٩) ، وهي مرفوعة من صخور منحوتة ، وفيها أربعون سارية مزينة بالرسوم والنقوش (١٠) ، وعليها سقف من الحجر مغشى بالأشكال العجيبة حتى لا يخلو مغرز إمرة فيه من رسم أو نقش أو رمز بالخط المسند لا يعلم ما هو ، فسبحان من أباد أمة اقتدرت على عظام الأمور ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

(١) ذكر المسعودى ١ : ٢٨٤ الإسرائيليات من الأخبار بمعنى الحكايات التى لا طائل تحتها وربما

كان هذا الخبر لاحقاً بها .

(٢) المسعودى ١ : ١٧٢ والقرواني ٥٧٦

(٣) المقرئى ١ : ٣٨

(٤) المسعودى ١ : ٢٧٢

(٥) تقويم البلدان وابن جبير ٥٧

(٦) القزوينى ٩٩

(٧) تقويم البلدان ١١٥

(٨) القرواني ٦ : ٥٦

(٩) ابن بطوطة ١ : ١٠٤

(١٠) القزوينى ٩٤ وابن جبير .

ثم تهادى بنا السير من هذه البلدة إلى دندرة وهى مدينة عتيقة يقال إنها من بناء قفطريم بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام وفيها برابا عظيمة من آثار الفراعنة يحف بها نخل كثير^(١) ، وقد تحققت فيما رأيت بها وبغيرها من آثار القبط صحة ما نقلته الأخبار عن قدمائهم من بلوغهم الغاية القصوى من الحضارة فى زمن كان به ظلام وجاهلية للناس ، حتى إن الذين كانوا يطلبون العلم من اليونان أنفسهم لم تستكمل آدابهم إلا باقتباس الحكمة عنهم واستخراج الفلسفة من كتبهم ، وكذلك قوم موسى (عليه السلام) لم تكن لهم معرفة بالعلوم إلا بعد مقامهم فى مصر ومحاضرتهم أهل العلم من رجالها . فتجد أن للقبط فى فلسفة التاريخ نكتة شغلت عقول الحكماء من كل عصر وأمة ، حتى ذهب أفلاطون فى بعض كتبه إلى أنه يلزم أن يكون أتى عليهم عشرة آلاف سنة حتى تمكنوا من بلوغ الغاية التى بلغوها من الأدب والصناعة ودلت عليها الآثار الباقية عنهم إلى هذا اليوم .

وإن كان قد غاب عنا معرفة كثير من سيرهم وأسرارهم فلا لوم نوجهه عليهم من قبيل التقصير أو الإهمال لأنهم لم يغفلوا عما وجب عليهم نحونا من تأدية علمهم إلينا ، بل اجتهدوا أن يستبقوه على الأيام صلة دائمة فيما بيننا وبينهم إذ حفظوه لنا فيما هو أصبر الأشياء على الزمان « الحجر » ليأمنوا اتصاله بنا وإفادتنا به الغرض الذى شغلهم قبلنا من الحكمة والغوص على أسرار الطبيعة . وإنما أفسد هذه الصلة علينا العفاء الناشئ من سنة الغلب فى الناس ، إذ يتعاقبون فى الأرض دولا بعد دول وأجيالا تحيا بموت أجيال . وتحتاج لحفظ نوعها أن تبيد الجيل الذى كان من قبلها وتسبل على آثاره ستر المحو والعفاء ، وهذا هو السبب الذى قطع الآخرين عن الأولين ، وعمى علينا قراءة رموزهم إن تبد لنا غوامضها تغدنا علما واسعا من حكمتهم ، ونبا صادقا من سيرهم وأعمالهم . فكم رأيت هؤلاء القبط من صور على الحجارة مودعة هذا العلم تنتظر إلينا بعيون قد غابت تحت غبار القدم . وتبتسم بشفاه تكاد تنطق لولم

يصمتها الوجع كأنى بها تنتظر أن نخاطبها بلسان تعرفه وإشارة تفهمها من رموز أهلها لتبيح لنا بما استودعوها من هذه الأسرار الثمينة .

على أن أكثر ما وجدت في آثارهم من الصور (غير الأوثان التي كانوا يعبدونها والحيوان الذى دخل فى ملتهم بطريق التكريم إلى أن صار له تعظيم يشبه أن يكون عبادة والعباد بالله من جاهلية الناس) إنما هو رسوم هياكل مختلفة للملوك وسوقة منهم تمثلهم فى معاشهم وأعمالهم وفروض دينهم وصنائعهم وسائر أشيائهم ، وليس بينها صور تمثل أناسا غيرهم من الأمم مثلما نرى فى آثار الفرس الذين صوروا اليهود والنبط والكنعانيين والقبط والروم والهنود وغيرهم . فيظهر أنه لم تكن لهم خلطة مع الأمم ، ولا اتسعت لهم الفتوح فى دولتهم اتساعها للفرس والروم من بعدهم . وكأنهم خلدوا إلى السكون والدعة بما كثر لديهم من الخيرات وأغنائهم مصرهم عما سواه من الأمصار . وهذا مما يخالف طبائع العرب الذين يطمحون بأبصارهم إلى بلدان الخصب ليتوسعوا فيها لا تثمره بأديتهم الجلباء من نعمة العمران .

عود إلى الحديث عن الرحلة . ثم ركبنا من دندرة إلى قوص من البر الشرقى ، وهى من أعظم مدائن مصر ^(١) ، فيها قبائل من عرب عدن وغيرهم ^(٢) ، وليس بمصر أرض يسكنها العرب إلا قوص وأسوان وجهات بلبس ^(٣) ، وربما كانوا فى أسوان أكثر منهم فى بادية قوص ، إذ كان يمازجهم فيها قبائل من قریش وخطان وزار بن معد من ربيعة ومضر ^(٤) ، وليس هذا أول عهد العرب بمصر ، فقد أنبأت الأخبار السالفة ^(٥) أنهم غزوها فى عهود الفراعنة الأوائل واستقروا بها

(١) المقرئى ٢٣٦ : ١ وابن بطوطة ١٠٠ : ١

(٢) تقويم البلدان ١١١

(٣) المقرئى ٨٠ : ١

(٤) المسعودى ١٩١ : ١

(٥) المسعودى .

زمناً فيها لا كفاء له من عز الدولة ونفوذ السلطان. وقوص هذه المدينة فرضة التجار
اليمنيين والمصريين والحبشيين ، وفيها جبال وحجارة يجرى فيها النيل من غير أن
يكون ثمة سبيل لجرى السفن عليه ^(١) ، (وهي المعروفة بالجنادل والصخور)
فتنقل بضاعات المسلمين إلى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات الحبشة إلى مراكب
المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع التجار فيها وتوارد الحجاج إليها
في ذهابهم وإيابهم على مراكب النيل .

ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهي مفازة قاحلة
لا عمارة فيها البتة ، فكأنيت فيها حيث جن الليل علينا ^(٢) ثم نفوز إلى ورود
الماء من آبار أو مناهل لا نكاد نترك فيها جرعة ماء بعد سقاية دوابنا ، وكنت
إذا أصابنا رقدة من حر أجلس في هودج على ظهور الجمال وأرنخى عليه الأستار
محركاً للهواء فيهن على احتمال عنتها الشديد . إلا أن صحبي من لدن السلطان كان
يبرح بهم العطش ويجهد دوابهم في الأيام الآتية ، لأن السموم كانت تنشف المياه
في الأسقية ، فكانوا يمتالون لذلك بأن يستصحبوا أبعرة فارغة من الأحمال
ويعطشوها قبل الورود ثم يوردوها على الماء نهلاً وعلاً حتى تمتلئ أجوافها ثم يشدوا
أفواهها كيلا تجترق فيق فيها الرطوبة فإذا نشفت الأسقية نحروا بضعة أبعرة من
هذه الجمال وسقوا خيلنا مما في بطونها ^(٣) ، وفي هذا من المشقة ما لم يتزل بنا
أشد منه في جميع ما طرقناه من البلاد ، ولم نزل في مكابدة عنائه الشديد وقد أضر
بنا الحر وأخذ منا مأخذه حتى سهل الله وصولنا بالسلامة إلى عيذاب ، والحمد لله
على جميل ما أولاه . حمدا يبلغ رضاه . ويستفيض النعمة من علياه .

وهذه المدينة هي آخر بلاد مصر ^(٤) ، وعاملها مفوض من لدن الليث
ابن الفضل الأبيوردى ، وهي موسعة بأسباب الكسب من الحجاج إلا أن مبانيها

(١) المسعودى ١ : ٤٧ وابن جبير ٦١

(٢) ابن جبير ٦٣

(٣) القزوينى ١٢

(٤) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٠٩

أشبه بديوت القرى منها بديوت المدن^(١) ، وكل ما فيها مجلوب إليها حتى الماء^(٢) ، وليس لأهلها حرفة للتعيش إلا تعمير سفن للحجاج يسمونها الجُلَبَات واحدها جُلْبَة وهي ملفقة الإنشاء ، ولا يستعملون فيها المسامير وإنما يخيطنون الخشب بالليف ، ويضعون خلالها دُسْرًا من عيدان النخل ثم يطلونها بالشحوم والنورة^(٣) ، فتستمر عرضة للخطر وآفة للحجاج البيت ، يفرق الكثير منهم بسببها في بحر فرعون ذى الأهوال الموصوفة^(٤) .

ولما أخذت فيها نصيبا من الراحة ركب البحر ثلاثة أيام إلى جدّة ، وهي قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحجاج ، وفيها آثار كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت في ولاية الفرس . وفيها قبة مشيدة يقال إن موضعها كان منزلا لحواء (عليها السلام) ومسجد بناه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجامع بناء الرشيد منذ ثلاث سنين^(٥) ، وهو أحفل بآية في المدينة، فمكثت فيها بقية النهار ثم ركبت عنها تحت الليل إلى القرين وهو محط رحال الحجاج (إسراعا في موافاة الرشيد بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية) إذ كنت علمت بركوبه إليها من مكة في صباح اليوم الذى وصلت فيه إلى جدّة ، فبلغته في جوف الليل ثم سرّيت منه إلى مكة المكرمة مهوى الأفئدة الصالحة ، فقضيت الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتهات إلى الله تعالى في موضع استجابة الدعاء^(٦) من البيت العتيق ، والحمد لله عز وجل على أن شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم.

(١) تقويم البلدان ١٢١

(٢) المقرئى ١ : ٢٠٣

(٣) ابن جبير ٦٨ والمسعودى ١ : ٧٨

(٤) المقرئى ١ : ٢٠٣ وابن جبير ٧١

(٥) أى سنة ١٨٣ للهجرة وقد ذكره ابن جبير ٧٣

(٦) ابن بطوطة ١ : ٣٠٠ وابن جبير ٨٠



في ذكر المشاعر المباركة

أما مكة شرفها الله فانها بطن واد (١) بين الجبال تسع من الخلق ما لا يعلمه إلا الله سبحانه (٢) لأن الحجاج الوافدين إليها قد يزيدون على مائتي ألف في الموسم ، إذ كان الحج مفروضاً على المسلم المستطيع في العمر مرة لقوله تعالى «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» (٣) ، فلو قدرنا عدد الرجال بثلاثين ألف ألف ، وقدرنا العمر بأربعين سنة لاقتضى أن يكون نصيبها منهم في كل سنة أكثر مما ذكرنا ، فما بالك بمن يحج أكثر من مرة في عمره ، ويقال في اجتماع الناس إليها من جميع الأطراف إنه لو جمع ما يباع ويشترى بها من السلع والمأكول والبضائع في ثمانية أيام وقت الموسم لأقام الأسواق (٤) في العراق كله ونال كل واحد من أهله نصيبه من حاجته .

ولها كرمها الله تعالى ثلاثة أبواب ، أولها باب المعلى (٥) وهو إلى الشرق الشامي ، ومنه يذهب الذهاب إلى الحجون وهو جبل بأعلى مكة له ذكر في الأشعار وفيه صلب الحجاج بن يوسف جثة عبد الله بن الزبير لما غلبه على الخلافة التي كان يناصب عليها الأمويين ، ثم باب المسفل وهو إلى الجنوب ومنه دخل خالد ابن الوليد يوم الفتح ، ثم باب العمرة وهو إلى الغرب على طريق الشام وأمامه جبال مكة قد مثلت بلا ارتفاع وكأنها أهوت تواضعا لبيت الله ، أشهرها جبل حراء وهو الذي اهترحين كان فوقه النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعه أبو بكر وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما فقال له « أثبت حراء فما عليك إلا نبي وصديق

(١) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣ وتقويم البلدان ٨٧

(٢) ابن جبير ١٠٨

(٣) سورة آل عمران .

(٤) ابن جبير ١١٩

(٥) ابن بطوطة ١ : ٣٠٤ وابن خلكان ١ : ٣٩٨

وشهيد» (١) وكان (صلى الله عليه وسلم) يختلف إليه ويتعبد فيه ، وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهى قوله تعالى "اقرأ باسم ربك الذى خلق" (٢) .

وكفى هذه البلدة شرفا أن بناها آدم (عليه السلام) (٣) وهبط إليها جبريل الملك الكريم ونزل فيها الوحي على النبيين وخصها الله بالمشاهد المباركة والمواضع التى هى معدن الطهارة ومظهر نور الملائكة مما ليس مثله فى جميع العالم . فما تبركت بزيارته من مواضعها الميمونة محل مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبة الوحي (٤) التى فيها بنى النبي (صلى الله عليه وسلم) بخديجة أم المؤمنين (رضى الله عنها) والموضع الذى كان يقعد فيه سيد ولد آدم محمد (صلى الله عليه وسلم) ، تبركت بامسه وتقبيله ، وزرت دار أبى بكر ودار جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين ودار الخيزران التى قدمت لك ذكرها فى الرسائل السالفة ، وهى على باب زقاق الخيزران بمقربة من القصر المعروف بمنزل الأثير (٥) ، وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التى فى الجبال والغار الذى أوى إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) المسمى بغار نور (٦) الوارد ذكره فى القرآن ، ولكن لم يتيسر لى ذلك لقصر الوقت كما لم يتيسر لى مزار بعض المواضع الميمونة التى هى فى نفس البلدة .

وأما البيت الحرام فقد بناه إبراهيم (عليه السلام) حضين الملائكة لقوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) (٧) ، وقد أخذ الناس فى تعظيمه والحج إليه من الجاهلية والفرس والعاليق والتبابعة وغيرهم ممن دنا ونأى ، ثم صارت

(١) ابن جبير ١١٢

(٢) المسعودى ١ : ٣٠٧ وأبو الفدا ١ : ١١٧

(٣) وربما لم يجده ابن خلدون خيرا صحيحا ٥ فى المقدمة ٣٠٦

(٤) ابن جبير والأزرق .

(٥) الأغاني ٣ : ١١٦

(٦) ابن جبير والأنس الجليل .

(٧) المقدمة ٣٠٦ والمسعودى .

الولاية عليه بعد ولد إسماعيل إلى جرحم وكانت سدانة البيت ومفاتيحه معهم ،
وإلى ذلك يشير مضاض بن عمرو بن الحارث الجرحمي بقوله (١) :

وكنا ولاية البيت من بعد ثابت نطوف بذلك البيت والأمر ظاهر

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ثم صارت ولايته إلى خزاعة ثم إلى قريش بعدهم وكانت صورة إبراهيم
وإسماعيل ماثلة (٢) فيه لأيامهم فأحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما أشار إلى ذلك
زهير بن أبي سلمى في قوله :

فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرحم

ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) إلى عبد الله بن الزبير
(رضى الله عنهما) فترع عن كسوته المسوح والأنطاع وكساه الديباج الملون واتخذ
له المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب ، وكان يطيبه حتى يوجد ريح المسك
من خارج الحرم (٣) ، فلما رماه يزيد بن معاوية بالمنجنيق بعث إلى صنعاء في الفضة
والكس فحملهما ، ثم شرع في البناء على أساس الخليل إبراهيم عليه السلام ،
فكاد يستكمل بناءه حتى وفد الجحاج لقتاله بعد يزيد وحاصره بالزحف والتراعى ،
وأحرق مكة ورمأها بالمنجنيق حتى تصدعت جدران الكعبة نسأل الله السلامة

(١) الأغاني ١٣ : ١٠٨ وأبو الفداء ١ : ١٢٠ وابن جبير ١٠٩ والعقد الفريد ٣ : ٢٧

وفي مروج الذهب ١ : ٢٠٣ أنه ثابت بن إسماعيل ولعل في إحدى الروايتين أو كليهما تحريفا
وفي هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالآباب المسافر

وفي العقد الفريد ١ : ١٣٩ أن راشد بن عبد الله أشد هذا البيت وكان في زمن النبي صلى الله

عليه وسلم .

(٢) المسعودي ١ : ٣٠٥

(٣) الأبنشهي ١ : ١٥

من شرور الأتقاس وسيئات الأعمال ، فكتب إليه عبد الملك بن مروان أن يعيد بناءها على الصفة التي بنتها عليها قريش ^(١) في أيام النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل النبوة ^(٢) ، فبناها على ذلك الرسم وهي باقية عليه إلى أيامنا .

وهذا البيت المكرم مبنى بالحجارة الصُّمَّ السود مفروش بالرخام المجزَّع ، وفيه عمد ضخمة من الساج ، وسقفه مغشًى بالحرير الملون ، وهو قريب من التربع ، ونصفه الأعلى من الفضة المذهبة ^(٣) وله أركان أربعة أولها الركن الشرقى الذى فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، ولا يُدْرَى قدر ما استتر من الحجر فى الركن ^(٤) ، وسعته الظاهرة ثلثا شبر وطوله شبر واحد ، وقد وضعه النبي صلى الله عليه وسلم بيده ^(٥) على ما هو معروف عند الكل ، ثم الركن العراقى وهو شمالى . ثم الركن الشامى وهو غربى . ثم الركن ايمانى وهو جنوبى . وارتفاع هذه الأركان ثمان وعشرون ذراعا إلا الركن الشرقى فانه يزيد عليها ذراعا فى الارتفاع ^(٦) لانصباب السطح إلى الميزاب ^(٧) ، وطول الكعبة سبع وعشرون ذراعا ^(٨) ، وبابها فى الصفح الذى بين الركن العراقى والركن الشرقى على أحد عشر شبرا من الأرض . وهو من الساج الملبس بالفضة والذهب المنقوش ^(٩) وطوله ست أذرع وزيادة ، وعرضه أربع أذرع وهو قريب من الحجر الأسود ويسمى ما بينهما الملتزم

(١) المقدمة ٣٠٧

(٢) أبو القداء ١ : ٢٠٨

(٣) ابن جبير ٨١

(٤) ابن بطوطة ١ : ٣٣

(٥) المسعودى ١ : ٣٠٥

(٦) ابن بطوطة ١ : ٣٠

(٧) ابن جبير ٨٠

(٨) الكنز ١٢١

(٩) العقد القرئد ٣ : ٣٥٩

وهو موضع استجابة الدعاء ويتراحم الناس فيه عند طوافهم بالبيت بحيث لا يخلو منهم ساعة من نهار أو ليل ، وقد أخبرني أمير مكة أنه لا يوجد من يخبر أنه رآه خلوا من طائف به أو مصل ، وأخبرني وهو غاية ما يكون من احترام الدين وشعائره المقدسة أن في مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيما لها ^(١) ، إذ كانت أول بيت وضع للناس فيه آيات بينات « مقام إبراهيم » ومن دخله كان آمنا .

وفي الركن العراقي المذكور باب يسمى باب الرحمة ينتهي بالراق عليه إلى سطح البيت ، وتحت قبو فيه حجر مغشى بالفضة ^(٢) تبركت بزيارته ولمسه وهو مقام إبراهيم الخليل (عليه السلام) وتحت الميزاب المذهب في صحن الحجر قبر إسماعيل (عليه السلام) وموضعه رخامة بل رخامتان خضراوان فيهما نكت يميل لونهما إلى الاصفرار ^(٣) حتى يخيل للناظر أن ذلك تجزيع بأيدي الصناع ، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر هاجر أم إسماعيل عليه السلام وموضعه رخامة خضراء أيضا ، وفي مقابلة ركن الحجر الأسود الميمون قبة بئر زمزم ^(٤) ، وهي البئر التي شرب منها الخليل عليه السلام ^(٥) ودخلها مفروش بالرخام ، وعمقها فيما يقال إحدى عشرة قامة ، أربع أضاء وسبع ماء ، وماؤها من شربه كما ورد عنه « طعام طعم وشفاء سقم » .

أما الحرم فانه يحقد بالبيت العتيق من جميع جهاته وهو قائم على عمد من الرخام ^(٦) ، وله صوامع سبع ، أكبرها في دار الندوة ^(٧) وأصغرها على باب الصفا ،

(١) الفزوي ٧٧

(٢) الماوردي ٢٧٨

(٣) ابن جبير ٨٦

(٤) تقويم البلدان ٨٧ والشرشي ٣ : ١١٤

(٥) في العقد الفريد ٣ : ٣٦٠ أن سقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل

ركن منها عمودان من رخام متلاصقان .

(٦) في العقد الفريد ٣ : ٣٥٨ أن بين كل عمودين نحو ١٠ أذرع .

(٧) ذكرها الاتليدي ٧٦

وهو أكبر ابواب الحرم ، ثم بعده باب السلام وباب السدرة وباب الندوة^(١) ، وشاهدت في بعض مقاصير الحرم الشريف مصحفاً بخط زيد بن ثابت الأنصاري^(٢) ، نسخه بأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ثمانى عشرة للهجرة كما تقدم بيان ذلك ، ولا أدري في أى موضع كان قبل أن يوضع هناك ، لأنه لم يكن للحرم في تلك الأيام جدار ، وإنما كان موضعه دوراً^(٣) لم تتم زيادتها فيه إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك ، كما أنه لم يتم بناؤه على ما هو عليه اليوم إلا في خلافة المهدي (رحمه الله) ، وهو الذى زينته بالرسوم^(٤) وكتب اسمه في مواضع كثيرة منه تبركا بالخير الذى صنع ، ومما كتب على سارية منه خارج باب الصفا (أمر عبد الله محمد المهدي "أصلحه الله" بتوسعة المسجد الحرام مما إلى باب الصفا لتكون الكعبة في وسط المسجد في سنة سبع وستين ومائة) .

موافاة الرشيد بالمدينة

وكان انفصالي عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذى الحجة . ومررت في طريق إلى المدينة المنورة بمنازل أعراب لم يتغربوا بالأسفار . ولا سبق لهم عهد بحضارة الأمصار . فوجدتهم^(٥) يقولون بالقيافة والزجر والعنقاء والبومة التي تأخذ بثأر المقتول وغير ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية ، وبلغنى أن يجوارهم أعراباً لم يدخلوا في دين الاسلام لا يختلفون عنهم إلا بتعظيم عيسى (عليه السلام) وينطقون بالحييم كافاً مخففة فينادون الرجل يا ركل^(٦) ، فوصلت من مكة إلى بطن مر^(٧)

(١) ابن جبير ٨٩ والكز ١٠٣

(٢) الكندي وابن جبير ١٠٢

(٣) المقدمة ١٠٨

(٤) ابن الاثير والخميس ٣ : ٣٢٠ وابن جبير ١٠٧

(٥) راجع مروج الذهب والأغانى وتزيين الأسواق .

(٦) الأغاني ٩ : ١٣٩

(٧) تقويم البلدان ٩٤ وابن جبير ١٨٥

وهو واد خصب ذو عين فؤارة ، ثم عطفت منه إلى عسفان وهي مدينة محف بها الجبال وفيها كثير من شجر المقل وآبار منسوبة إلى عثمان بن عفان^(١) (رضي الله عنه) ، ثم ركبت إلى الخليص وهو موضع في بساط من الأرض وفيه خيام لقبيلتين كبيرتين من العرب يقال لهما كانة وخزاعة وهم متقاربون في المنزل ويلبثهم نسب لم تُرم فيه العصا^(٢) ، ثم امتد بنا السير من خليص إلى بدر وهي قرية كثيرة الخيرات كانت بإزاء موضع من مواضعها يقال له القلب وقعة النبي (صلى الله عليه وسلم) المباركة التي أعز الله تعالى بها الدين وقهر المشركين^(٣) ، ثم اتجهت إلى الصفراء في صدر النهار ، وهي تبعد من بدر بريدا ثم إلى الروحاء وهي موضع بئر يقال في الحكاية إن عليا عليه السلام قاتل فيها الجان^(٤) ، ثم رحت أفوز في الهضاب والبطاح حتى أقبلت على المدينة المنورة حرمها الله وزادها شرفا بمنه وكرمه .

وبعد أن تبركت بزيارة المسجد المكرم وصليت في الروضة التي بين القبر المقدس والمنبر الذي كان موطن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ركبت إلى قصر الإمارة حيث حلت ركاب الرشيد ، فأصبته إلى مجلس يشبه أن يكون من مجالس قصر له في بغداد يقال له قصر الفرجة ، وهو مزخرف بالصدف^(٥) الأبيض وفيه كتابة بالصدف الأحمر والأخضر كأنها لعين الناظر ياقوت وزبرجد^(٦) ، فلما وقفت بين يديه بادرنى بالسؤال عن أمر الرسالة وما كلمني به الأنبرذور ، فأخبرته بما توسم في غايتها من الخير وما وجدت في البلاد من عدل العمال ودعائهم له في مساجد مصر

(١) ابن جبير ١٨٦ والأزرق .

(٢) تزيين الأسواق ١١٤

(٣) ابن الأثير وأبو الفداء وابن جبير ١٨٩ والقزويني ٥١

(٤) ابن جبير ١٩١

(٥) المقدمة ٣٥٧

(٦) ابن خلكان ١ : ٣٨٣

والغرب ، وذكرت له من كلام القيصر ما اقتضته جلالة الخلافة ، فشكرنى على حسن القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر إلى ذلك الصفاء الذى كان يشرفى به من قبل ، ولما أذن لى بالانصراف ذهبت إلى موضع البرامكة فوجدت فى نفوسهم ما وجدت فى نفس الرشيد ، ليس من تجافهم عن المصافاة بل من إدمان فكرتهم فى أمر ظننت أنه وقع بينهم وبينه فى المشاعر المباركة بحيلة المدالسين . التى تصادف محلا فى قلوب العباسيين .

هذا ختام رسالتى إليك عن رسالتى إلى القيصر وأحب قبل أن أفارق هذه المواطن المقدسة أن أذكرك شيئا عن المدينة المنورة تبركا بذكره فأقول : لى وجدت المسجد المكرم قائما على أعمدة من الحجارة اللامعة ، وسقفه من الساج المزين بالرسوم ^(١) ، وجدرانها مزلة بفصوص من الفسيفساء ^(٢) تمثل أشجارا وثمارا وأزهارا بأبداع ما يكون من الصناعة ، وهى من عمل الروم والقبط ^(٣) فيما رسم لهم عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك ^(٤) ، ووجدت الروضة التى تجاور القبر المقدس مؤزرة إلى ثلثها برخام بديع النحت غريب النعت ، وأعالها مضمخ بالمسك والطيب ^(٥) ، ورأيت القبر المقدس مبنيًا برخام يقال إنه من عمل وردان ^(٦) ، وعلى رأسه صندوق من الآبنوس مُحْتَم بالصندل مصفح بالقضبة طوله خمسة أشبار فى ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . وإلى طرف القبر مما يلى أقدام النبي صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر ، أما عمر بن الخطاب فمدفون عند رجل أبي بكر

(١) ابن جبير والسيوطى .

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٦٢

(٣) القزوينى ٧١

(٤) ابن الأثير ٥ : ٤ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ وابن بطوطة ١ : ٢٧٢

(٥) ابن جبير ١٩٢

(٦) الأغاى ١٧ : ٨٤

رضي الله عنهما، وعليهما قناديل من فضة وذهب^(١)، وبين الركن الجوفى والركن الغربى من المسجد موضع عليه ستر مسبل يقال إنه مهبط جبريل^(٢) عليه السلام.

أما المدينة المنورة فإنها بمكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها بيثرب بن وائل من ولد سام^(٣) بن نوح مع ما هو فيها من الآثار العتيقة على قدم اختطاطها وعلو شأنها بين مدن الحجاز. ولها أربعة أبواب أعظمها باب الحديد وهو من الحديد^(٤)، ثم باب البقيع حيث الآثار المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة^(٥)، وفيها قصور لا يوجد فيما نقله السفر المخبرون ما هو أعظم منها في ديار العرب، وأعظمها قصر للقداد بن الأسود في الموضع المعروف بالحرف^(٦)، وهو مخصص الظاهر والباطن^(٧)، وقصر لعثمان بن عفان مشيد بالجر والكلس وأبوابه من الساج والعرعر^(٨) وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والأنصار وأهل البيت الكريم (شرفهم الله تعالى)^(٩) وقد زرت منها قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده ومشاهد أولاد على (عليه السلام) وفي موضع هذه القبور رخامة مكتوب عليها^(١٠) :

(١) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ٢٦٤ وتقويم البلدان ٨٧

(٢) ابن جبير ١٩٣

(٣) الإتيان في تفسير القرآن ٢ : ١٦٧

(٤) ابن جبير ٢٠٠

(٥) ابن بطوطة ١ : ٢٦٨

(٦) المسعودى ١ : ٣٣٣

(٧) المقدمة ١٧٨

(٨) المسعودى ١ : ٣٣٥

(٩) ابن جبير ١٩٧ و ١٩٩ والمسعودى ٢ : ١٨٢

(١٠) ابن جبير ١٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ميّد الأئمة ومحبي الرّم . هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين . وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم أجمعين .

فيالها من قبور ما أشرفها وأكرمها .

وإلى مقربة من المدينة المنورة موضع يقال له قباء ^(١) وفيه كان مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وموضعه المسجد المبارك الذي أسس على التقوى والرضوان ^(٢) ، وفي صحته شبه محراب على مصطبة يقال إنه أول موضع ركع فيه ^(٣) النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي قبلته بئر معروفة بيئر أريس يقال إن النبي (صلى الله عليه وسلم) تغل فيها فعاد مأوها عذبا صافيا بعد أن كان أجنا أججا ، وفيها سقط خاتمه صلى الله عليه وسلم من يد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) . هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة والمواطن المقدسة والقليل دليل على الكثير . وقد خصّ الله تعالى تلك البقاع المباركة من الشرف والتكريم بما لم يخص به غيرها من البلاد . وهو مالك الملك لا رب غيره ولا معبود سواه .

الرشيّد والبرامكة في مكة

هذا ذيل للرسالة أكتبه إليك من ظاهر الحيرة وأنا منفصل عن البرامكة في كتاب أحمله إلى الرقة من لدن الرشيّد لأعلمك ما بينه وبينهم من الأمر العظيم . كان انفصالنا عن المدينة المنورة في غد اليوم الذي كتبت فيه هذه الرسالة ،

(١) ياقوت وتقوم البلدان .

(٢) أبو الفداء ١ : ١٣٢

(٣) ابن جبير ١٩٩

وعلمت فيما نقل إلى أبو زنج الهمداني صاحب جعفر ^(١) (أيده الله) أن الرشيد إنما تحول عن البرامكة خوفا من ميل الناس إليهم بما أغدقوا عليهم من الجود والكرم ، فإنه كان إذا جلس في مكة للعطاء جلس معه يحيى فأعطى مثل عطائه ، وإذا جلس الأمين جلس معه الفضل فأعطى مثل عطائه ، وإذا جلس المأمون جلس معه جعفر فأعطى مثل عطائه ، ثم استرسلوا هم وأولادهم من بعد في سعة الهبات حتى ذهبت أعطياتهم مثالا بين الناس فانصرفوا عن مديح الخليفة إلى صوغ الشعر في مدحهم بالكرم ، وكانوا يقولون والله هذا عام الأعطيات ^(٢) وينشدون :

إذا تزلوا بطحاء مكة أشرقت
بيحي وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلا لجود أكفهم
وأقدامهم إلا لأعواد منبر

فأحدث ذلك في نفس الرشيد غيظا من تمام النعمة عليهم ، وانطلق المجال لأخصامهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة لتهويل أمرهم على الرشيد فخوفوه استقواءهم بالمال والرجال واستعانوا برقعة رفعوها إليه وزعموا أنها تدور بين الناس وفيها هذه الأبيات ^(٣) :

قل لأمين الله في أرضه
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا
ومَن إليه الحل والعقد
مشك ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره
وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى الف
رس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها
وتربها العنبر والتد
ونحن نخشى أنه وارث
ملكك إن غيبك اللحد

(١) الأغانى ١٧ : ٢٣

(٢) الفخرى .

(٣) ابن خلكان ١ : ١٥٢

فأدخلوا عليه الخوف منهم على سلطانه . فاستدعى من كان بمكة من بني هاشم ، وبعث إلى المدينة يستقدم أهل الحل والعقد ، وجدّد البيعة بحضرهم للمأمون بعد الأمين ، وكتبها من بعدهما لمحمد القاسم ولقبه بالمؤمن فصيروا ولاية العهد إلى ثلاثة من أولاده يتعاقبون فيها كما قالت الشعراء في مديحهم له ^(١) :

أبو أمين ومأمون ومؤمن أكرم به والدا برّا وما ولدا

ثم إنه ولي المأمون خراسان وهمذان إلى آخر المشرق ، وأحضر القضاة والشهود وأشهدهم أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شيء ^(٢) ، وضم إلى القاسم الجزيرة والثغور والعواصم ، وفزق في الناس نحو ألف ألف دينار ^(٣) ليظهر اقتداره على العطاء الكثير ويحطّ من قدر البرامكة وما وقع في نفوس الناس من انفرادهم بسعة العطاء دون غيرهم من خليفة أو سلطان . وهو يظن أنه يفعل هذا أمنا لمكروه من ناحيتهم وردا لمكيدة خافها من وراء ما كانوا يعارضونه من قبل في قسمة الملك بين المأمون والمؤمن مع أنهم إذا لم تجر لهم موافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك إلا حبا فيه ومنعا لوقوع الشقاق بين أولاده .

وكان مع ما في قلبه من الموجدة يصانعهم ويظهر استرسال نفسه إليهم حتى لا يفتنوا إلى ما يريد بهم من المكروه ، فإذا جلسوا إليه أظهر الرضا عنهم وأقبل بالعطف عليهم ليوهمهم أن الأمر على غاية الصفاء . فكان يغترهم ذلك منه إلا جعفر (حفظه الله) ، لأنه كان أعلم الناس بما في نفسه من حب الأثرة حتى إذا أهداه مسروقا غلامه ^(٤) قال لي والله إن في إهدائه إلى هذا الغلام لحيلة لم يخف

(١) السيوطي .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٨

(٣) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٤) الأغاني ٣ : ١٤٠ والالتفادي ١٦٨

على أمرها . فإنه يوهبنا برضاه حتى لا نظن به سوءا فيما داخله من الحسد ، وقد أخبرني جبريل بن جحيشوع أن الرشيد إنما تحوّل عنهم بتحمل الفضل بن الربيع الذي كان يذكر له ما على بابهم من الجيوش والأعوان ، ويخوفه استقواءهم في فارس وخراسان وتعميرهم خطط الدولة بمن يعرفون فيه حبا لأهل البيت ، ويهتمهم لديه باحتياز مال الجباية ^(١) وتصرفهم في الأمور بما يشاءون ، والملوك لا تصبر على مثل ذلك فأوغر صدره خوفا منهم بعد أن ملأ قلبه عداوة لهم ^(٢) .

هذا ما اتصل بي في مكة من أمر الرشيد بالبرامكة ^(٣) ، وقد تحوّل عنهم لأمرين لا أرى له مندوحة في أحدهما . فأما استفحال ملكهم في الإسلام وتزلف الملوك إليهم بالهدايا الفاتحة والأموال الطائلة فإنه غير مضرّ بالرشيد وله بهم سند للدولة ونفخ في الملة إلا أن يكون ضعيف البصيرة فاتر المهمة ، وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سلطانه ما يشهد بأن سيفهم خادم لنصره . وأما وفور المال تحت أيديهم وانبساط الجاه لديهم وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعد أن تولوا المراتب خمسين سنة في الوزارة والولاية وقيادة الجيوش ، وليس فيه شيء من أموال المسلمين كما يزعم الواشون بهم إلى السلطان ، فكان أولى بالرشيد وأكرم لنفسه أن يذكر بلوغه المجد والصلوة بهم لا أن يدبّ فيه الطمع ويمدّ عينه إلى ما ادخروا لولدهم بعد أن دبروا دولته هذا التدبير العظيم .

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت يجعفر النفس الزكية علمت مقدار النفرة التي وقعت بينه وبين الرشيد . فقال لي جعفر انظر كيف أنه يركب هذا المركب الوعر . ما كفاه أننا أقننا ملكه ومهدنا أمره حتى صار يحسدنا على ما آتانا الله من النعمة ، فوالله لئن لم يرجع عن غيه ليكون ذلك وبالا سريعا

(١) المقدمة ١٤

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٣) في الأغاني ٥ : ١١٣ أن الناس كانوا يتحدثون بنحو الرشيد عن البرامكة قبل

نكبتهم بأيام .

عليه ^(١) فقلت يا سيدى ليس للرشيـد عنكم مرغب ولا أظنه يحرم دولته عنايتكم ، قتال تمهل على نفسك ، إن لنا فارس وخراسان ، فإن يجاهرنا بالعدوان يقم في وجهه من يغالبه على السلطان . فلما رأيت ما بنفس جعفر من التأثر أخذت في تهدئة خاطره ، وقد كنت أعرفه سريع الرجوع عن غضبه ، فلم يهدأ تأثر صدره ، وإنما أدمن الفكرة فيما يشغله من القلق ، وأمرنى ألا أفارق بابه في ذلك الوقت .

وكان الفضل بن الربيع لا يفتقر عن السعاية إلى الرشيد ساعة من ليل أو نهار ويخوفه منه اشتراكه في مؤامرة جارية بينه وبين الفرس ، فكان الرشيد يحتال باستبقاء جعفر عنده والميل إليه بتصنع العطف ليوجهه زوال ما بنفسه من الموجدة ، وكان جلوسى إليه في ذلك الوقت قد أقلقه كل القلق ، فرأى أن يفصلنى عن البرامكة بوجه لا يرد على الملوك بأن يوجهنى إلى الرقة في كتاب من لدنه إلى عاملها ، وهو يقول لى إن بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح فيه إلى إنفاذك برسائلنا ، فكن عند رجائنا فيك ، فأدركت الحيلة من ذلك الأمر ، ولكن أشار إلى البرامكة ألا أخالف أمره حتى نطمع في حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه العزم من إثارة خراسان والمناداة بخلافة أهل البيت .

فانفصلت عن البرامكة بالخير في اليوم الذى نزل الرشيد فيه السفن إلى العُمر الذى بناحية الأنبار ^(٢) وكان الرشيد قد غلب عليه الخوف في ذلك الوقت حتى كان إذا تناول الطعام يخشى أن يكون فيه سم ^(٣) فاستبق الأطباء على مائدته ممن كان مخالفا للبرامكة إلا جبريل بن بختيشوع ^(٤) ، وقد طوى عنه سرا ما عزم عليه من إقصائهم عن المراتب إلا كلمة حسد قالها له حين رأى إقبال الملوك على بابهم ^(٥) ، وأنا اليوم أسير حيثنا حتى لا يفوتنى الرجوع إلى بغداد قبل وصول جعفر بموكب الحجاج .

(١) الاتليدى .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥١ .

(٣) المسعودى ٢ : ٢١١ .

(٤) ذكر ابن خلدون في المقدمة ١٦ أنه كان ينظر في طعام الرشيد .

(٥) الاتليدى والقمزى .

الرسالة العاشرة

« أصبت بسادة كانوا عيوننا بهم نسقى إذا انقطع الغمام »

أكتب هذه الرسالة إليك والدمع جار في الآفاق ليس على البرامكة وهم أحياء في الناس ، ولكن على الدنيا التي ذهب خيرها وعفت البلية رسوم محاسنها ، حتى كأنها طلل من هذه الأطلال التي يهجرها الأُنس ولا يقف عندها إلا الباكون النادبون .

كنت قبل الوصول إلى الرِّقَّة وفاني من قبل البرامكة رسول يستقدمني إليهم ويعلمني أن الكتاب الذي أحمله إلى عاملها يأمره فيه الرشيد بأن يستبقيني عنده ويمعني من الرجوع إلى الحضرة لما داخله في من الريسة ، ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك الإشارة ، فأصابني من الانقباض ما يصيب الرجل المستسلم للحن ، لأنني ما كنت أراني ناجيا من وقوع الغدر بي ووصول المكروه إليّ ووقفت أتساءل فيما قام بنفس الرشيد من سوء المظنة بي بعد أن أدت رسالته حقها من الإخلاص ، وخدمته خدمة الناصح الأمين ، فلم أجد في نفسي علة إلا المودة التي بيني وبين البرامكة ، ^(١) فأتاني أن أنضم إليهم ، فقامت لساعتي وتبدلت بري زى المجاز الخاف ثم ركبت إلى بغداد متكررا كيلا يعرفني أحد من الناس .

فلما وصلتها وجدت في أهلها ذلك الخمول الذي يقع في الجماعة من هول عظيم ، فاستدلت بذلك على وقوع الأمر بينهم وبين الرشيد ، فأسرعت إلى منازلهم فوجدتها مغلقة وعلى أبوابها حرس الخليفة قد وقفوا بالسيوف ، فاسودت الدنيا في عيني وامتلأ قلبي من الوحشة وكدت أفقد إحساس رجلى من الجسد ، إلا أنه لم يكن

(١) ذكره الأغانى ١ : ٢٥٥ و ٢ : ١٢٣ وقبض الرشيد على صنائم البرامكة ومن هو مشهور

بمخالفتهم ما كور في كتب التاريخ .

لى وأنا طلبة الخليفة أن أطيل الوقوف لِقَاء دورهم ، فرجعت أمشى على غير دراية لعل أصادف صديقا أتوجع إليه وأستطلع أخبارهم من قبله ، حتى وصلت إلى دار إسحق النديم ^(١) فدخلت الدار وحسرت للثام عن وجهى ، فلما عرفنى تفرقت عيناه دموعا ، وقال بم أندب البرامكة ؟ أعزىك أم أعزى نفسى أم أعزى الأيام بفقدهم ، وبكى حتى خنقته العبرة ؟ وكنت فى ذلك الوقت لا أعى من شدة الهول ، ولم يكن إسحق يكلمنى عن أمرهم مع الرشيد إلا كلاما متقطعا ممزوجا بالزفرات .

قد علمت مما مضى إليك فى الرسالة السالفة موقف البرامكة مع الرشيد ، هو يحاول الإيقاع بهم حسدا على ماصار إليهم من النعمة ، وهم يسلكون معه مسلك المودة ليرجع عما قام بنفسه من الحقد وإلا أناروا الخراسانيين نروجا عليه فى دعوة أهل البيت . وعلمت أن الفضل بن الربيع كان موقنا بزوال النعمة عنه مع بقاء البرامكة ، وأنه كان يخوف الرشيد مؤامرتهم مع الفرس ويذكر له أن الخلافة فى موقف بعيد عن التخلص من دهائهم ، إذ كانت الملوك طوع أمرهم وأموال الدولة كلها بأيديهم ، حتى ملا صدره من عداوتهم . ثم علمت أن الرشيد كان قد أهداهم مسروقا غلامه ليوهمهم رضاه ولكك تعلم أنه كان بينه وبين هذا الغلام مواطاة على نقل أحاديثهم إليه وعد أنفاسهم عليهم ومراقبتهم فى جميع حركاتهم خديعة منه ، حتى إذا نقل إليه الكلام الذى كان يحدثنى به جعفر فى المشاعر المباركة عمد إلى هدر دمه الزكى ، ووجهنى إلى الرقة مثل المجرمين الذين فى نفوسهم تبعه من شر نعوذ بالله من سطوته .

وقد حدثنى إسحق أن الرشيد كان قبل اليوم الذى نكبهم فيه قد ركب إلى أرباض المدينة ومعه إسماعيل بن يحيى الهاشمى وجماعة من أقاربه ، وبينما هو

(١) فى الأغاني ه أن إسحق بن ميالا مع البرامكة بعد مقتل جعفر .

يسير إذ نظر إلى موكب عظيم قد اعترضه عن بعد ، فقال لإسماعيل يا إسماعيل لمن هذا الموكب ؟ قال لأخيك جعفر ، فالتفت يمينا وشمالا وإلى من معه فإذا هم شُرذمة قليلون ، ثم نظر إلى الموكب الذي فيه جعفر فلم يره ، فقال يا إسماعيل ما فعل جعفر وموكبه ؟ فقال ياسيدى قد مضى أخوك في طريقه ولم يعلم بموضعك ، فقال ما رأنا أهلا لأن يزينا بموكبه ويجلنا بجيشه ، فقال عفوا يا أمير المؤمنين إنه لو علم بموضعك ماتعداك ولا سار إلا بين يديك ثم سار حتى انتهى إلى ضيعة عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة ، فقال يا إسماعيل لمن هذه الضيعة ؟ فقال لأخيك جعفر فسكت الرشيد وتنفس في كمد ثم سار وما زال بضيايع بعضها أعمر من بعض وكلما مر بضيعة سأل إسماعيل عنها فيقول هي لجعفر ولأخوته ، حتى وصل إلى الحضرة ، فلما خلا مجلسه قال يا إسماعيل انظر إلى البرامكة أغنيانهم وأفقرنا أولادنا وأهل بيتنا ، فإني لا أعرف لأحد من أولادنا ضيعة من ضيايع البرامكة ^(١) على طريق واحد بقرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم من غير ذلك على غير هذه الطريق في جميع البلدان ؟ فقال إسماعيل يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالهم وجميع ما يملكون هولك ، فنظر إليه نظرة جبار وقال والله يا إسماعيل ما عد البرامكة بنى هاشم إلا عبيدهم ، وإن الدولة لهم ، ولا نعمة لبنى العباس إلا وهم المنعمون بها عليهم ، فقال أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمه ومواليه ، فقال والله يا إسماعيل إنك لتعلم أني قلت هذا وكأني بك تخبرهم به فتتخذ به يدا عندهم ، وإنى أمرك أن تكتم هذا الأمر فإنه لم يعلم به أحد غيرك ، ومتى بلغهم شيء مما جرى بيني وبينك علمت أنه ما أفشاه إلا أنت ، فقال يا أمير المؤمنين اعوذ بالله أن مثلي يفشى سرك ، ثم ودعه وجاءه من الغد وهو في محل من قصره يشرف على دجلة وبازائه منازل البرامكة التي كانت محفوفة باليمن والبركة ، فقال يا إسماعيل هذا ما كنا فيه بالأمس ، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب وليس على باب دارى أحد ، فقال يا أمير المؤمنين

ناشدك الله ألا يعاقب بنفسك شيء من هذا ، فإنما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك ، وبابه باب من أبوابك فإذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون ؟ فقال والله إن البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا أموال الجباية وانصرفوا عن خدمتي إلى محبة العلويين وتعزيز شيعتهم ، وأنا لا أصبر على ذلك ^(١) .

وكان جعفر في ذلك الوقت قد عزم على الركوب إلى خراسان ^(٢) وهو عالم بما أضمر الرشيد له ولأهل بيته من سوء ، فما أحب أن يتركهم بغير حراسة ، وإنما أبقى في يد الفضل رجلا يعرف فيهم الأمانة لقيهم مكايد الرشيد غير أن الرشيد قد فطن لما كان يبشره من تعبئة الجند فأيقن بالإشراف على الخطر ، إلا أن يتحمل في أمر يغلبه به قبل ركوبه إلى خراسان ، فأرسل إلى بني هاشم تحت الليل أن يضموا إليهم جماعاتهم ، وأمر الفضل بن الربيع أن يحوط دور الخلافة بما بين يديه من الحرس والغلمان وأرسل إلى يزيد بن مزيد الشيباني ^(٣) أنه إذا ركب جعفر من الغد إلى دور الخلافة يبعث بمن يحوط البرامكة ويقبض عليهم ^(٤) ، واستبقى الأمر سرا لم يستخدم في قضائه إلا جماعة من أقاربه ^(٥) دون الغلمان الذين كان يغمرهم جودهم وكرمهم ، ثم أرسل في تلك الليلة إلى جعفر من يقول له إنه يمكنه من بيوت المال أن يتناول منها ما يشاء ، ويأخذ من الجند إلى خراسان من ينتخبه ويريده ، وإن أمانته فوق كل أمانة وأمثال هذه المصانعة حتى لا يفطنوا لما أخذ في تدبيره من اغتيالهم . وكان جعفر يعلم بما في تحمل الرشيد من المصانعة والرياء ولكنه ظن أنه يريد استمالتهم ورجوعهم إلى الثقة به لا أنه يريد نكبتهم في صباح تلك الليلة .

(١) أبو الفداء ٣ : ١٧

(٢) ذكر الاتلدي أن جعفرا كان عازما على الركوب إلى خراسان في ذلك الوقت .

(٣) وقد تقدم أنه كان منحرفا عن البرامكة .

(٤) ابن الاثير وأبو الفداء والعقد الفريد .

(٥) ابن خلكان ١ : ١٥٢

ولما أصبح الرشيد استدعى خادمه مسرورا (١) وقال له قد انتخبك لأمر
لم أره محمدا ولا عبد الله ولا القاسم (٢) فحقق ظني فيك واحذر أن تخالف فتهلك ،
فقال مسرور لك على إمرة مطاعة ، فمرني بقتل نفسي أفعل ، فقال له امض
الساعة إلى الحديقة وحوطها بالحرس وضم إلى جماعة من الغلمان ثم اذهب إلى
جعفر وجثني به وقل له إنه وردت كتب من خراسان ، فإذا دخل الباب فلا تدع
من معه يدخل بعده ، فإذا تمكنت منه نخذ رأسه ولا تراجعني في ذلك ، وإياك
إياك أن يفوتك الأمر . فسار مسرور إلى جعفر فأصابه في داره قد طرح نفسه
ليستريح ، فقال له يا سيدي أمير المؤمنين يدعوك لرسائل وردت الساعة في خريطة
البريد من خراسان . فلبس جعفر ثيابه وتقلد سيفه ثم ركب في جماعة من الحرس
والجند ، لأنه لم يكن بمأمن من غدر العباسيين به ، فلما دخل الباب طلع عليه
من في الحديقة من الحرس وحاولوا رد غلمانه وهم غير مأورين بالقتال ، فانفرد به
مسرور وبضعة عشر رجلا دخلوا معه الباب فجرد عليه السيف وصاح بمن معه
من العبيد فأهدروا دمه . وإني لست أنسب الشر إلى مسرور هذا الخادم اللئيم ،
فما هو إلا ذنب من استرعه وهو الرشيد ، ومن استرعى الذنب فقد ظلم ، ومع ذلك
إني لا أبرئه من تبعة ذلك الإثم القطيع ، ولا أرى بينه وبين شديد العقاب
إلا الموت الذي يساق بعده إلى دار العذاب .

هذا ما بلغني من استحق ثم سمعت في أحاديث الناس أن جعفر لما صار
في وسط الحديقة ولم يرمعه الجند ارتاع وندم على ركوبه في تلك الساعة ، فقال
لمسرور يا أخى ما القضية ؟ فقال يا سيدي إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك ،
فيقولون إن جعفرأ بكى حينئذ وجعل يقبل مسرورا ويقول له أنت تعلم إكرامى لك
دون خدم الرشيد وأن حاجاتك عندي مقضية في جميع الأوقات ، وأنت تعرف

(١) الاثليدي والأغانى ١١ : ٥٤ وابن خلكان ١ : ١٥٢ وابن الأثير ٦ : ٦٣

(٢) قوله محمد وعبد الله والقاسم يريد بهم الأمين والمأمون والمؤمن أولاده .

مكانتي عند الرشيد وما يوجه إلى من الأسرار ، ولعل أن يكونوا بلغوه عنى باطلا ، وهذه ألف ألف دينار ، وفي رواية عشرة آلاف ألف دينار أدفعها إليك الساعة وختني أهي على وجهي ، فقال لا سبيل إلى ذلك ، فقال احملني إليه وقفني بين يديه ولعله إذا وقع نظره على تدركه الرحمة فيصفح عني ، فقال وهذا أيضا لا سبيل إليه ^(١) ، ولا يمكنني مراجعته ، فقال توقف عني ساعة وامض إليه وقل له إنك فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول ثم عد وافعل ما تريد ، وإني أشهد الله وملائكته على أني أشاطرك نعمتي وأوليك من الأمور جسيما إن فعلت ذلك وسلمت لي نفسي ، ولم يزل به وهو يبكي فيما يقولون طمعا في الحياة حتى قال له ربما يكون ذلك ، ثم إنه وكل به غلمانا من السودان يحفظونه ومضى إلى الرشيد وهو جالس يقطر غضبا ، فلما رآه قال له ثبثك أمك ماذا فعلت ؟ قال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرك ، قال فأين رأسه ؟ قال في قبة الحديقة ، قال فأتني به الساعة ^(٢) ، فرجع مسرورا وجعفر يصلي وقد ركع ركعة فلم يمهله أن يصلي الثانية بل سل سيفه وضرب عنقه وأخذ رأسه وطرحه بين يدي الرشيد يشخب دما ، فيقولون إن الرشيد تنفس الصعداء وبكى بكاء شديدا ، وجعل يقول كالمعاتب يا جعفر ألم أحلك محل نفسي ؟ يا جعفر ما كافأتني ولا عرفت حتى ولا حفيظت عهدى ولا ذكرت نعمتي ولا فكرت في صلاح أمري يا جعفر قد غرتك نفسك فدار عليك الدهر ، وكان يقول ذلك وهو يقرع أسنانه بالقضيب بعد الكلمة والكلمة ، وكان ذلك بين سلخ المحرم ^(٣) وأول صفر ^(٤) .

(١) الأغاني ١١ : ٥٤ والالتبدي ١٣٧

(٢) ابن الأثير ٦ : ٣٦

(٣) ابن خلكان ٢ : ١٥٢

(٤) أبو المحاسن ١ : ٥٢٦

وقوع التواني في الدولة بعد نكبة البرامكة

ولما اتصلت بي هذه الأخبار الفاجعة انهملت عيناى بالدموع لقتل جعفر النفس الزكية بقضاء لا حيلة بعده إلا اللوعة والندم. فكنت مثل الرجل الذى يرى في منامه هولا يتزل به وهو لا يدرك سره. ولا يجد لنفسه مردًا يتق به شره. وإن كان يسوءنى من الرشيد احتياله في مصانعة البرامكة^(١) قبل ركوب جعفر إلى خراسان ليذهلوا عن تدبير ما يتقون به مكايده ظنا بزوال ما عنده من الموجدة، مع أنه كان يضمّر قتلهم^(٢) (والعياذ بالله من شرور النيات). فإني ليسوءنى أكثر من ذلك تتبعه النعمة فيمن أخذه منهم (كشف الله الغمة عن قلوبهم) فقد بلغنى عن يحيى والفضل (واحرقتاه) جهد شديد يقاسيانه في الحبوس، فإنهما ليطلبان الماء الفاتر للوضوء فلا يحصلان عليه، ويشتهيان الطعام تأتيهما به الحراس فلا يجدان من يطبخه لهما فيتولين طبخه بأنفسهما ويقومان على القدر^(٣) مع جلالة قدرهما فيارحمنا هؤلاء الملوك الذين أخذهم الرشيد غدرا^(٤) تنعاه عليه الأيام. ويسأل عنه في يوم القيام. وإني لأحسب جعفرا مع ما أصابه من الأمر الفظيع أكبر حظا من أبيه واخوته، إذ قدم على ربه شهيدا في دعوة أهل البيت ولم يصر إلى هذا الهوان^(٥) الذى صاروا إليه وهم الذين عرفتهم عظماء الملة. والرؤساء من أهل التجارة. والذين آتوا الرشيد بحكمتهم منعة لم يكن مثلها لدولة من دول الإسلام.

(١) في الأغاني ١١ : ٥٤ وغيره أن الرشيد كان يصانع البرامكة .

(٢) في العقد ٣ : أنه كان يريد قتلهم .

(٣) الاقليد ١٧٨

(٤) الفخرى .

(٥) ذكره هوان البرامكة في محبهم ابن الأثير وابن عبد ربه والابشهي والاقليد وأبو الفرج

وغيرهم .

ولقد كنت أحب أن أتوصل إلى موضع البرامكة أو أستنبط حيلة لإنقاذهم مما يعانون من الشدة، غير أنى رأيت الأمر لا يتم على الوجه الذى أرومه إلا بالقوة التى تغالب الحرس . ولما كانت جماعتنا فى بغداد فئة قليلة من الرجال وأكثرهم داخل فى جيش الخليفة وتحت إمرة العباسيين أيقنت أن مجاهرة الرشيد بالعدوان قبل العودة إلى فارس ليست من رأى الصواب ، ولم يكن إحجامى عن ذلك خوفا على نفسى من القتل لأن النفوس لا يعظم بذلها فى سبيل البرامكة ، ولكن رحمة بهم من جور الرشيد الذى يضيق عليهم بقدر ما يرى من ميل الناس إلى الوصول إليهم أو الثأر بدمهم ، فقد بلغنى أنه لما قام عثمان بن نهيك لينأى بجعفر ؟ وهو يقول والسيف صلت فى يده . يا ضل ما تجرى به العصا ، واجعفره ، واسيده . والله لأقتلن قاتلك ولأثأرن بدمك ^(١) عزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا المبرز سيقه ، الكريمة نفسه على التضيق عليهم وتفريقهم فى الحبوس المنقطعة وقبض ضياعهم عن أهل بيتهم ^(٢) حتى يقتلهم بالشدة التى هى أمر من القتل .

وقد مضى على اليوم فى بغداد وأنا متقطع النفس سبعة وأربعون يوما لم آل فيها جهدا للوصول إليهم فلم أحصل على ذلك مع وفور ما بذلته من المال، وكنت أحب أن ألقى أحدا من خدمهم وحجابهم فلم أظفر بواحد منهم فى بغداد ، وكأنى بهم قد تصدعوا فى الآفاق ^(٣) فى جملة من هرب من غلمانهم وجواريهم ومغنياتهم ^(٤) ومن هو معروف بخالطتهم من العلماء والشعراء والندماء وأهل الأدب ، غير أنى رأيت فيمن بقى من الطامعين فيهم دموعا يسترونها عن العيون ، وما وجدت منهم إلا منقبض النفس ومن يذنيه الأسف عليهم حتى كأنهم صدع واحد فى لوم

(١) ابن الأثير ٦ : ٦٦

(٢) أبو القداء ٣ : ٨ والأغانى ٨ : ٧٩ والالتلبدى ١٧٤ وابن الأثير ٦ : ٣٦

(٣) الالتلبدى ١٧٤

(٤) الاغانى ١٨٣ :

الرشيد على قتلهم^(١) فما أذكر أنى نزلت مرة إلى السوق إلا نظرت رِقاع الأشعار
معلقة على الحيطان رثاء لجعفر وثدبا للدنيا لما لحق أهله من النكبة الفظيعة . ومما
بقى في ذهني من هذه الأشعار قول بعضهم وأظنه الرقاشي أو أبا نواس^(٢) :

الآن استرحنا واستراحت ركابنا وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للطايا قد أمنت من السرى وطى الفياق فدفدا بعد فدفد
وقل للنايا قد ظفرت بجعفر ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تعطى وقل للرزايا كل يوم تجددى
ودونك سيفا برمكيا مهندا أصيب بسيف هاشمي مهند
وقولهم^(٣) :

يامتلا لعب الزمان بأهله فابادهم بتفرق لا يجمع
إن الذين عهدتهم فيما مضى كان الزمان بهم يضر وينفع
أصبحت تفزع من رأك وطالم كما إليك من المخاوف نفزع
ذهب الذين يعاش في أذافهم وبقي الذين حياتهم لا تنفع

وقرأت رقعة مكتوبا عليها هذه الأبيات وأظنها من نظم أنس بن أبي شيخ
النصرى^(٤) صاحب جعفر برد الله . ضجعه وسقى ضريحه صيب الرحمة والرضوان :

(١) أبو الحسن ١ : ٥٢٧ والفخرى وابن الأثير ٦ : ٧ والعقد الفريد والالتلیدی .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٤ وأبو الفدا ٢٠ : ١٨ والمسعودى ٢ : ٢٧٩

(٣) الالتلیدی ١٨٠

(٤) ذكره صاحب الأغال ١٧ : ٣٣ وقال صاحب العقد الفريد إن الرشيد قتله بعد نكبة

لعمرك ما في الموت عار على الفتي إذا لم تصبه في الحياة المعاير
ومن كان مما يُحدث الدهرُ جازعا فلا بد يوما أن يرى وهو صابر
فلا يبعدنك الله عن جعفرنا بروحي ولو دارت على الدوائر
فأليت لا أنفك أبكيك ما دعت على فني ورقاء أو طار طائر
وقال علي بن أبي معاذ (٢) :

يا أيها المفتر بالدهر	والدهر ذو صُرف وذو غدر
لا تأمن الدهر وصولاته	وكن من الدهر على حذر
إن كنت ذا جَهل بتصرفه	فانظر إلى المصلوب بالحسر
وخذ من الدنيا صفا عيشها	واجر مع الدهر كما يجري
كان وزير القائم المرتضى	وذا الحجا والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها	إليه في البر وفي البحر
يشيّد الملك بأرائه	وكان فيه نافذ الأمر
فبينما جعفر في ملكه	عشية الجمعة بالقصر
يطير في الدنيا بأجناحه	يأمل طول الخلد والعمر
إذ عثر الدهر به عثرة	ياويلنا من عثرة الدهر
فغودر البأس في ليلة السـ	بت قتيلا مطلع الفجر
وجيء بالشيخ وأولاده	يحيي معا في الغل والأمر
والبرمكيين وأتباعهم	من كان في الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد	كموعد الناس إلى الحشر
وأصبحوا للناس أحدىثة	سبحان ذي السلطان والأمر

(١) الأغاني ١٥ : ٣٦

(٢) المسعودي ٢ : ٢٢٩

وقال سلم الخاسر :

خوت أنجم الجدوى وشلت يد النوى
هوت أنجم كانت لأبناء برمك
وغاضت بحار الجود بعد البرامك
بها يعرف الهادى طويل المناسك

وقال أشجع السلمي :

وئى عن الدنيا بنو برمك
كانما أيامهم كلها
فلو توالى الناس ما زادوا
وهى لأهل الأرض أعياد

وقال فيهم أيضا :

قد ساد دهر بني برمك
كانوا أولى الخير وهم أهله
ولم يدع فيهم لنا ثقيا
فارتفع الخير عن الدنيا

وقال فيهم صالح الأعرابي :

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك
ألم يك يحيى وإلى الأرض كلها
وأى ملوك لم تخنها دهورها ؟
فاضحى كمن وارتبه منها قبورها ؟

وقال واحد من بيت البرامكة فى رثائهم وقيل بل هو سليمان الأعمى أخو مسلم
ابن الوليد :

أصبت بسادة كانوا عيونا
فقلت وفى الفؤاد ضريم نار
وللعبرات من عيني انسجام
ودولة آل برمك السلام
ومن يجزع عليك فلا يلام
وعزّ بفقدك القوم اللثام
وما أبصرت قبلك يا ابن يحيى
جزعت عليك يا فضل بن يحيى
هوت بك أنجم المعروف فينا
حساما قدّه السيف الحسام

الى أن يقول :

ألهو بعدكم وأقرّ عيننا على اللهو بعدكم حرام
وكيف يطيب لي عيش وفضل أسيرُ دونه البلد الشام
وجعفرناويا بالجرس أبلت محاسنه السائم والقّتام
أمرُ به فيغلبني بكائي ولكنّ البكاء له أكتّام
أقول وقت متحبا لديه إلى أن كاد يفضحني القيام
أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول قبرك واستامننا كما للناس بالجر استلام^(١)

فكان الرشيد يخاف من كثرة البكاء عليهم وقوع الفتن في الدولة فلذلك منع الشعراء من رثائهم^(٢) وجعل عقاب من يُقدم على ذلك القتل^(٣) ، وأمر الحراس أن يتزعوا الرقاع التي علقت في الأسواق لئلا يثور نائر الشغب من الشعب^(٤) ولكنه لم يبلغ من ذلك الغاية التي كان يرومها من محو ذكركم^(٥) وطمس معالمهم بعد أن زينوا الخلافة بمحاسنهم خمسين سنة وانطبعت في قلوب الناس محبتهم^(٦) بما صنعوا من المعروف وبذلت أيديهم من العطاء . ثم إن خوفه من غوائل هذا الأمر لا يقف عند ما كان يراه من وقوع الفتن في الدولة فربما وصل إليه أن فارس قد قامت فيها القيامة ، وأن خراسان^(٧) قد عصفت فيها ريح

(١) الأغاني ١٥ : ٣٦

(٢) الفخرى والنواجي والالتلیدی .

(٣) الإخفاق ٩٨

(٤) أعلام الناس ١٧٤

(٥) ابن الأثير ٦ : ٧٥ والعقد الفريد ٣ : ٢٦ وابن خلكان .

(٦) الالتلیدی وابن الأثير والفخرى وأبو الفداء .

(٧) الالتلیدی ١٧٤

الفننة ، والمغرب قد تضعضع حكمه في يد ابن الأغلب ، والروم قد جاشوا في بلدهم
وامتنعوا عن تأدية الجزية لعلمهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعف
آل الربيع الذين تولوا الوزارة بعدهم ، ولا أرى لهم بها استمناحا طويلا كما يشير
أبو نواس إلى ذلك بقوله (١) :

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهرا لم يرع عهدا ليحيي غير راع ذمام آل الربيع (٢)

حتى إذا اتصل بهم خبر الروم والتوائهم عن الخراج لم ينهبهم العزم ولا الحزم
على إبلاغ الرشيد بأنفسهم (٣) بل اتخذوا طريقة البلاغ على السنة الندماء ، وفي
ذلك يقول الشاعر استخفافا بالأمر ، وهذا بعيد عن سياسات الدول (٤) :

نقض الذي أعطاكه تقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه غم أذاك به الإله كثير

فتأمل (رعاك الله) هذه الدولة التي كانت زينة الدنيا في أيام البرامكة (٥)
كيف صارت إلى رجال لا رأى عندهم ولا عزيمة ، فإن بلغك عن وهنها خبر فيما
بعد فاعلم أن صدور هذا الفتور ناشئ عن فتور الصدور . وهذه الجنود التي تراها
في قبضة الرشيد لا تنفع دولته ما لم يكن عنده عقل يدير به سياسته ، فكم رأينا من
دولة كانت في العالم عظيمة فأعمى ساستها الجهل فانحطت لفقدان الحكمة . ودولة
كان أمرها في توان فتولاها رجال كبراء أصلحوا ما فيها من الاختلال ، وصعدوا

(١) كان أبو نواس منحرفا عن الفضل بن الربيع وفيه يقول :

أيها الراكب المجد إلى الفضل — ل ترق قدود فضل حجاب
ونعم هبك قد وصلت إلى الفضل — ل فهل في يدك إلا التراب

(٢) المحاضرة ٢ : ١١٤

(٣) الأغانى ١٧ : ٤٦

(٤) السيوطي وابن خلدون وابن الأثير ٦ : ٦٦ والأغانى ١٧ : ٤٥ والمسعودي ١ : ١٥٨

(٥) الأتليدى .

بها من العزة المقام الذى لا ينال . وتأمل الدولة الأموية كيف قامت بمعاوية بطل السياسة والتدبير إذ ضم الإسلام إلى مصلحة واحدة من طرف المشرق إلى أقصى المغرب ، ^(١) ثم أقام دولته على هذا الأساس المتين ، ثم تأمل ما صنع الحجاج بن يوسف وكيف أصلح ما فسد من العراق وأزال ما وقع بين أهله من الشقاق حتى جعل الجزيرة والحرمين أقرب إلى طاعة الأمويين من الشام ومصر ثم انظر إلى الدولة العباسية كيف قامت على أثر تلك الدولة بتدبير أبي مسلم (رحمه الله) وكيف عجز أبو جعفر بعد مقتله عن رد الفرس والأكراد إلا بسياسة خالد البرمكي الذى ضمن له الكفاية عليهم بالرأى ^(٢) دون الجنود . وانظر إلى دولة الرشيد كيف زهت في وزارة البرامكة بما لم تزه به دولة ^(٣) الهادى ، ووزرائه أغفال من آل الربيع . فهذه دول لم تزه بقوة الجند كما يسبق إلى وهم الناس ، لأنه لم يكن لأبى مسلم من الرجال ما كان لملوك بنى أمية ولم يكن للرشيد ما كان للهادى قبله . وإنما كان المعز لها رجالا يرسلون من عقولهم على الناس أشعة كأشعة الشمس بها يستنيرون . وفي ضوئها يسيرون ، ولا سيما هؤلاء البرامكة الأبحاد الذين حرم الرشيد دولته مشاركتهم له فيها وتدبير شؤونها ، ولست أعلم ما يكون من أمره مع صُهب السبال ^(٤) ولقد قام به اليوم من الندم والأسف ^(٥) على جعفر والتلف على ما سبق به القضاء ما يشغله عن الدنيا قاطبة ، فقد أخبرنى من هو مقرب إليه أنه يذكره لكل طلوع شمس . ويبكى عليه بتحرق نفس . ولا يستطيع الخلوة بنفسه على انفراد بعد مصرعه إلا أن يكون عنده جماعة يلهو بمسامرتهم عما فرط

(١) نذكر هنا أنه ما توطد للإسلام ملك في إفريقية إلا في خلافة معاوية بن أبى سفيان .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٤٩

(٣) الزخشى في ربيع الأبرار .

(٤) هى لقب للروم .

(٥) الأغاني ١٧ : ٧٤

منه في امره (١) وإذا خلا مجلسه أمر الحجاب أن يدخلوا عليه من يجدونه من الندماء (٢) ليستأنس بهم ويتسلى بمنادمتهم عما هو فيه من البلاء وقد رأى خلل السياسة في دولته وكثرة الأراجيف .

فما يتحدث به الناس من أسباب نكبة الرشيد للبرامكة

ولما كان الحديث عن هذه النكبة الفظيعة دائرا على السنة الناس اختلفت آراؤهم فيما دعا الرشيد إليها ، وإن كانت خواطرهم متوافقة في لومه والبكاء على جعفر . فمن قائل إنه نكبه وأهل بيته لاستبدادهم بأمر الدولة واحتجافهم أموال الجباية ، حتى لقد كان يطلب اليسير من المال فيما يزعمون فلا يصل إليه ، ومن قائل إنه حنق على جعفر لطاوله عليه في الكلام إذ كان يقول لي لئن لم يرجع الرشيد عن سوء ظنه بهم ليكون ذلك وبالا سريعا عليه (٣) ، ومن قائل إنه تنقص من الفضل ان يكون أكرم من أولاده ، ومن جعفر أن يكون أفصح منهم لسانا وأحكم سياسة ، ومن محمد أن يفضلهم في المروءة ، ومن موسى أن يغلبهم في الشجاعة فتكبهم لذلك .

ولست أطيل عليك الكلام في أمر هؤلاء الملوك الذين رماهم الدهر بالأرزاء وسحب عليهم أذيال الفناء . ولو أني كتبت إليك غير ما ذكرت ما بقي لدى إلا البكاء والتعجب ، على أني أحب أن أختم رسالتي إليك عنهم بذكر مأثرة من بعض ما صنعوا إلى الوري من الجميل . وهي أن الرشيد (٤) مع تشديده في النهي عن رثائهم بلغه أن رجلا يحضر ليلا إلى دورهم وينشد أشعارا ويذكر محاسنهم ومآثرهم

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٨

(٢) ابن خلكان ١ : ٣٢ و ذكر غيره أن الرشيد كثيرا ما كان يوجه خادمه في طلب بعض خواص الدولة ومن يكون عندهم حينما يطلبهم .

(٣) الاتليدي ١٦٨

(٤) هذه القصة قد وقعت للأموون لا للرشيد وإنما ذكرناها ها هنا تكميلا لمحاسن البرامكة .

ويندبهم ويكي عليهم ثم ينصرف ، فدعا مسرورا هذا الخادم اللئيم وسأزه بالأمر وأمره بأن يمضي تحت الليل حتى يرد تلك المنازل الدارسة التي كانت مظهر الأتس بما آتى الله أهلها من سعة الملك . وأن يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من الخدم سماهما له وأظنهما ياسرا ومروان ، حتى إذا جاء ذلك الشيخ وبكى وتذب وأنشد الأشعار قبضوا عليه وجاءوا به إليه فأخذ مسرور الخادمين ومضى بهما آخر الليل إلى تلك المنازل ، فإذا هم بغلام قد أقبل ومعه بساط وكرسي حديد ، وأقبل بعده شيخ له جمال وعليه مهابة وآثار نعمة ، بجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول :

ولما رأيت السيف جتل جعفرنا ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها ، فلما فرغ قبضوا عليه وقالوا له أجب أمير المؤمنين ففرع
فرعا شديدا ، وقال دعوني حتى أوصى بوصية ، فإني لا أوقن بعد اليوم بحياة ،
ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصيته وسلمها
لغلامه ، ثم سار به مسرور إلى دار الرشيد ، فلما مثل بين يديه زجره وقال له من
أنت ؟ وبم استوجب البرامكة منك ما تفعل في خربات دورهم ؟ فقال يا أمير
المؤمنين إن للبرامكة أيادي خطيرة ، أفتأذن لي أن أحدثك بحالي معهم ؟ قال
قل ، فقال يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عني
نعمتي كما تزول عن الرجال ، فلما ركبني الدين واحتجت إلى بيع ما على رأسي
ورءوس أهلي وبيع بئتي الذي ولدت فيه أشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت
من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبيا وصبية ، وليس معنا ما يباع أو
يوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد فدعوت بثياب كنت أعددتها
لأستتر بها فليستها وخرجت وتركتهن جياعا لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد

فاذا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ متري بأحسن زي وزينة ، وعلى الباب
 خادمان ، وفي الجامع جماعة جلوس فطمعت في القوم ، ودخلت المسجد وجلست
 بين أيديهم ، وكنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، والعرق يسيل مني ، لأنها لم تكن
 صناعتي وإذا بخادم قد أقبل ودعا القوم ، فقاموا وقت معهم حتى دخلنا جميعا
 دار يحيى بن خالد ، وإذا هو جالس على دكة في وسط بستان فيه أطيب الرياحين
 فسلمنا عليه فرد علينا السلام وهو يعدنا مائة وواحدا ، وبين يديه عشرة من ولده
 وإذا بغلام أمرد قد عثر خداه قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مائة خادم
 متمنطقون في أوساطهم بمنطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل
 واحد مجرة من الذهب ، في كل مجرة قطعة من العود كهيئة الفهر قد قرن بها
 مثلها من العنبر بغلاس الغلام بجانب يحيى ووضعت تلك المجامر بين يدي الغلام ،
 ثم قال يحيى للقاضي زوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا نخطب القاضي خطبة
 الزواج وأجرى صيغة العقد وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنيار من بنادق
 المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ، ونظرت فإذا الحاضرون
 بالجلوس ما بين يحيى وأولاده والمشايخ والغلام مائة واثنا عشر رجلا ، وإذا بمائة
 واثني عشر خادما قد أقبلوا يحمل كل واحد منهم صينية من فضة عليها ألف دينار ،
 فوضعوا بين يدي كل واحد منا صينية ، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير
 في أكمامهم ، ويجعلون الصواني تحت آباطهم ، ويقومون واحدا بعد واحد حتى
 بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصينية فغمزني خادم بفُسرَت على أخذها ،
 وجعلت الذهب في كمي وأخذت الصينية بيدي ، ثم قمت وجعلت ألتفت خلفي
 خافة أن أمنع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني إذ قال
 للخادم ايتني بهذا الرجل ، فرددت إليه ، فأمرني بصب الدنانير والصينية وما في كمي ،
 ثم قال اجلس بفلسك ، فقال لي ممن الرجل ، ولم تلتفت خلفك ؟ فقصصت عليه
 قصتي فقال للخادم ايتني بولدي موسى ، فأتى به ، فقال يا بني هذا رجل غريب نخذه
 إليك واحفظه بنفسك ونعمتك ، فقبض موسى علي وأدخلني إلى دار من دوره

وأكرمني غاية الإكرام وأقت عنده يومى وليتى فى ألد عيش وأتم سرور ، فلما أصبح دعا أخاه محمدا وقال له إن الأمير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل وغير خاف عليك اشتغالى اليوم فى دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وحوطه بنعمتك ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام ، فلما كان من الغد تسلمنى أخوه العباس فبت ليلتى عنده بين غناء وأنوار وبهجة ثم تسلمنى أخوه خالد ^(١) ولم أزل فى أيدى البرامكة يتداولوننى مدة عشرة أيام لأعرف خبر عيالى وأهل أفى الأموات هم أم فى الأحياء . فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الحشم والغلمان فقالوا لى قم فانخرج إلى عيالك بسلام ، فقلت ويلاه سلبتُ الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالى على هذه الحالة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، ولما رفع الخادم الستر الأخير قال لى مهما يكن لك من حاجة فارفعها لى فأنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ، ثم بدت لى حجرة كالشمس بهاء وإشراقا ، واستقبلتنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وأهل يتقلبون فى الحرير والديباج ، وحمل لى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضيعتين من عمل السواد وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما معها من الدنانير والبنادق ، وأقت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أنا من البرامكة أم رجل غريب اصطنعوه ، فلما نزلت بهم الفاجعات أبخفنى عاملك على العراق وألزمنى فى هاتين الضيعتين ما لا يفى دخلهما به . ولما تحامل على الدهر كنت فى آخر الليل أقصد منازلهم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم لى واشكر عطفهم على . فقال الرشيد كم أخذ منك هذا العامل ؟ قلت كذا وكذا ، قال هو مردود عليك وستبقى أنت وعيالك من بعدك على ما كان لك فى أيام البرامكة . فعلا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شدة بكائه ، قال له يا هذا قد أحسنا إليك برد ما قد سلب منك فإيبيك ؟ فقال يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة ، إذ لو لم آت منازلهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل

(١) ذكره صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٨ من أولاد يحيى بن خالد .

خبري بأمر المؤمنين وفعل بي ما فعل ما كنت أصل إلى أمير المؤمنين ، فدمعت
عين الرشيد وظهر عليه الحزن ، وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعلهم فابك
وليام فاشكر^(١) ، ولله درأبي نواس حيث يقول في وداع الدنيا التي أوجشت
لفقدهم :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من راحلين وغاد^(٢)

(١) الفخرى والأثليدي ١٩٩ والأبشهي ٢٤٣: ١

(٢) الطواط ١١٢

خاتمة الكتاب

أودعت رسالتى اليوم إليك سطوراً قد كتبتها بدموع العين وأنا بين حزن على هؤلاء الشهداء . وخوف من الرشيد أن يعلمه بموضعى الرقباء فيقطعنى ما ينالنى منه عن الاستصراخ إلى دعوتهم فى نراسان وفارس وسائر بلاد الخير واليمن ، لأنى علمت من بعض المقرين إليه أنه يطلبنى طلباً حثيثاً ، وقد جعل لمن يأتىه بى مالا جزيلاً ، وربما كان هذا الكتاب آخر عهدى بمراسلتك بعد اليوم وإن كنت قد رأيت فيما تقدم إليك من الكتب السالفة أن العرب قد حصلوا فى زماننا هذا ما لم يحتاج فى صدورهم زمن الخلائف ، ونبغوا التبغ التامة فى جميع الفنون والصناعات والمعارف ، وتبحروا فى حكمة الروم والفرس على اجتهد ، ودقنوا أصول الشريعة فى مذاهب صحيحة المبدأ جميلة المعاد ، فإنما الفضل فى ذلك كله عائد إلى البرامكة ، وهم الذين رفعوا منار العلم وقربوا إليهم الأدباء وأجزلوا أعطيهم بالمال الكثير ، وكان عصرهم تاجاً^(١) على هامة الدهر ونورا أضاء به المشرق حتى انقلب من الضعة إلى سمو الارتفاع ، ومن عمائة الجهل إلى نور الاطلاع . فما هو عندى إلا الزمن الذى يبق موسوما عند العرب بالعلم والصلاح وكثرة الخير وسعة أسباب المعاش والانتفاع بعلوم الأعاجم ومحاسن هؤلاء الملوك^(٢) الذين كانوا بحال المشرق وحصن الإسلام وزينة العالم^(٣) ومنعة هذه الدولة التى لم تقم من قبلهم إلا بالحيل والمكايد ، فإنك لتعلم أن الدعوة التى قام بأعبائها أبو مسلم (رحمه الله) إنما كانت لذرية النبى (صلى الله عليه وسلم) وهم أولاد الحسن والحسين (رضى الله عنهم) ولم يكن للعباسيين غرض فى انضمامهم إليها إلا مقارعة بنى أمية فى جملة من انضم

(١) العقد الفريد والفخرى والسيوطى وابن خلكان .

(٢) الزمخشري فى ربيع الأبرار .

(٣) يقول الحصرى ٢: ١٠٣ إن أيامهم كانت روض الأزمنة .

إليها من أهل البيوتات ، حتى إذا خدمهم السيف رأوا أن ينفردوا بالخلافة دونهم ، ويصرفوهم عنها بالحيلة التي كان يمزجها أبو جعفر باشتداده على العمال وإرهاق الرعية في الخراج ، حتى يوقع فيهم الفشل ويقعدهم عن الخروج عليه في دعوتهم ، فكان عظماء الملة يرون ذلك منه ولكنهم لم يروا أن يحملوا الأمة على الخلاف ضنا بالنفوس الصالحة أن تسيل دماؤها في قتال المسلمين بالمسلمين ، فثبت له الملك من هذا الوجه ، لم ينازعه فيه إلا جماعات متفرقة من أهل الدعوة ومن كان لا يضمهم الغرض إلى جامعة واحدة في جميع الأنحاء ، فلم يستطيعوا مقاومته ولا بلغوا من غرضهم إلا أن جعلوا له سبيلا إلى غلب جماعة منهم بعد جماعة ، فلما تغلب عليه حب الولد نفلح ابن عمه عن ولاية العهد وصيرها للمهدى من بعده لم يكن في الناس إلا من ينغص ذلك عليه ، نخاف الربيع أن تذهب الخلافة من ولده وله في مصيرها إلى المهدي مصلحة لا تكون في دولة غيره من أهل البيت ولا من العباسيين أنفسهم ، ففثق له عقله تلك الحيلة التي تسارع أهل الحل والعقد إلى تنفيذها خوفا من أبي جعفر لظنهم أنه حتى لم يمت ، فلما استوثق له الأمر استهل خلافته باستمالة الناس بالإحسان والمعروف حتى لا تنفر منه قلوبهم ولا يظنوا به متابعة لسيرة أبيه ، وأقام لهم ديوان المظالم ورفع عنهم ضرائب الخراج ووسع لهم أسباب المعاملة بعد ما ضاقت نفوسهم حتى استسلم لغرضه وصاروا طوع يمينه ، فلم يبق عليه بعد ذلك إلا أن يأمن خروج أهل الدعوة في جمع غير متفرق فرأى أن يستميل إليه الحرم الآمن وهو الموضع الذي ينادى فيه بالحقوق المقدسة لأربابها من أهل البيت ففرق في أهله الأموال الجسام . ووالى على عامتهم جزيل الإنعام ، وجدد لهم بناء البيت الحرام وعهد إلى عظمائهم بالولايات والإمارات ، وأجرى الأرزاق الواسعة على من استخدم في الجند من أولادهم كما علمت . فلما آلت الخلافة إلى الهادي وصارت إرثا في بيت أبي جعفر رأى البرامكة برأيهم الصائب أن ليس للعويين بعد ذلك كله مطمع في المشرق بإزاء العباسيين الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف لقهر أخصائهم ، فانصرفوا عن تدبير

أمر الحرمين إلى تمهيد الطريق لخلافتهم في المغرب ، وراموا تعظيم دولة الرشيد بضم المشرق كله إلى جناحه حتى ينصرف عن مقارعة أهل البيت في إفريقية ويقنع بما دبروا له من السلطان العظيم الذي لم يكن مثله لأحد من الخلفاء قبله ، فكان بعض ما أشاروا به عليه لتعميم هذا السلطان أن يأخذ الرعية باللين والعطف بعد أن أقتنوه خروجه في دعوة أهل البيت وبني أمية وغيرهم ، بخرى على ما رسموه له من سياسة الرفق والحلم برهة من الزمان ثم غلب عليه حب الأثرة فرجع إلى الشدة ونكّل بمن كان أحب الناس إليه .

هذه هي دولة العباسيين التي أشرقت شروق الشمس في البهاء والعظمة ، وإنها لاحتاج إلى رجال عقلاء يديرون سياستها ، لأنها لو سقطت على يد خليفة قليل الخبرة بأمور الملك ما قامت لها قائمة بعد ذلك ، فاليوم أترك الإسلام بين رايات خضر وسود وبيض ، فأما العلويون فإنهم حاثرون أمر المغرب وهم أهل سيف شديد الوطأة . وأما الأمويون فإنهم يرتقبون الخلافة من وراء البحار ، ويرومون إعادة الملك الذي ذهب من أيديهم بغفلة صبيانهم في دمشق ، والمسامون في عرض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق ، فإذا كان هذا حال الدولة من العظمة وهي متفرقة على أغراض لا تضمها إلى الوحدة فما الظن لو جمعتها عصبية الدين إلى جامعة الإسلام ففي المسلمين ملوك عظام أحسبهم ينتهبون إلى ما بهم من الانقسام . ويقىمون على أساس الجامعة دولة تهتر لها دول الروم والله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

الأسفار التي وجدت بين يدي وأسندت إليها رواية الرحالة
(علوم الدين والشرع)

السنة	الطبع	
١٢٨٧	المطبعة الأميرية	الإتقان للسيوطي
١٨٥٣	بن	الأحكام السلطانية للأوردي
١٢٨٦	المطبعة الأميرية	رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين
١٢٧٦	القسطنطينية	مجمع الأنهر على ملتقى الأبحر لشيخ زاده
١٢٧٩	المطبعة الأميرية	شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك
١٢٨٧	مصر	كليات أبي البقاء
		ومطالعات في صحيح البخاري وتفسير الزمخشري والبيضاوي
		(علم اللغة)
		صاح الجوهري . المحيط للفيروز آبادي . فقه اللغة للثعالبي
		(الممالك والبلدان)
١٨٧٧	لیدن	أحسن التقاسيم في معرفة البلدان والأقاليم للقدس
١٨٧٢	»	الممالك والممالك لابن حوقل
١٨٥٢	»	الرحلة (إلى المشرق) لابن جبير
١٨٦٦	ليبسيك	معجم البلدان لياقوت
١٨٤٠	باريس	تقويم البلدان لأبي الفداء
١٨٦٥	»	الممالك والممالك لابن خردادبة
١٨٣٧	»	الفيض المديد في النيل السعد لأحمد المتوفى
١٨٧٠	لیدن	مسالك الممالك للاصطخري

السنة	الطبع	
١٢٧٠	المطبعة الأميرية	الخطوط والآثار للقرنيزى
١٧٨٩	توبنك	آثار مصر لعبد اللطيف
—	رومية	ترجمة المشتاق فى اختراق الآفاق للادريسي
١٨٥٣	باريس	تحفة النظار فى عجائب الأسفار لابن بطوطة
١٨٤٨	غوتنغن	أخبار العباد وآثار البلاد للقرزوينى
—	خط	جواهر البحور ووقائع الدهور لإبراهيم بن وصيف شاه
—	»	نشق الآثار فى عجائب الأقطار لمحمد بن إياس
(السير والاخبار وأيام الناس)		
١٢٩٠	المطبعة الاميرية	الكامل لابن الأثير
١٨٨٠	ليدن	تاريخ الملوك وأعمارهم للطبرى
١٢٨٤	المطبعة الأميرية	ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون
١٢٨٦	القسطنطينية	تاريخ أبى الفداء
١٨٥٨	غريفزولد	الآداب السلطانية والدول الإسلامية للفقيرى
١٢٨٣	المطبعة الأميرية	مروج الذهب للسعودى
١٢٧٩	»	نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للقرى
١٢٧٥	»	وفيات الأعيان لابن خلكان
١٦٦٣	اكسفورد	تاريخ الدول لأبى الفرج الملقب
—	المطبعة الأميرية	أخبار الدول والإسلام (الخميس)
—	خط	تاريخ الخلفاء للسيوطى
١٢٨٣	مصر	الأنس الجليل فى تاريخ المقدس والخليل للسيوطى
—	مصر طبع حجر	حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى

السنة	الطبع	
١٨٥١	ليدن	النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لأبي المحاسن ...
١٢٨٠	المطبعة الأميرية	إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس للاتليدى ...
—	خط	فتوح الشام للوافدى
١٢٩٠	المطبعة الأميرية	آثار الأول للقرمانى
١٧٨٢	»	فوات الوفيات لمحمد بن شاكر
١٢٨٣	»	العقد الفريد لابن عبد ربه
١٢٨٦	تونس	المونس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار
—	خط	قضاة الشام لشرف الدين الأنصارى
		لطائف الأخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب
١٣٠٠	مصر	الدول للإسحقى
—	—	تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين للشرقاوى ...
١٣٠٠	مصر	مطالعات فى ابن الوردى والأزرقي

(العلوم الأدبية)

الفهرست لأبى يعقوب الوراق :

١٨٦٣	لندن	حاجى خليفة . كشف الظنون . عن العلوم والفنون ...
١٢٨٥	المطبعة الأميرية	الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى
١٨٧٩	بيروت	المقدمة لابن خلدون
—	المطبعة الأميرية	المثل السائر لابن الأثير
١٢٩٩	القسطنطينية	أدب الدنيا والدين للماوردى
١٢٧٥	المطبعة الأميرية	حياة الحيوان للدميرى
١٨٤٩	كوتسكن	عجائب المخلوقات للقزوينى

السنة	الطبع	
١٢٩١	المطبعة الأميرية	خزانة الأدب لابن حجة
—	بيروت	مقامات الحريري
١٢٨٤	المطبعة الأميرية	مجمع الأمثال للبداني
١٢٧٧	باريس	قلائد العقيان للفتح بن خاقان
١٢٧٩	المطبعة الأميرية	المستطرف في كل فن مستظرف للأبشي
—	حجر	تهج البلاغة للإمام على كرم الله وجهه
—	خط	طبقات الشعراء لأبي عبيدة
١٢٧٨	مصر	شرح لامية ابن الوردي للقناوي
١٢٧٩	المطبعة الأميرية	سراج الملوك للطرطوشي
١٢٨٦	»	الطبقات الكبرى للشعراني
١٢٦٢	باريس	مختصر كتاب الخراج لقدامة بن جعفر
١٢٨٨	المطبعة الأميرية	الكثير المدفون والفلك المشحون للسيوطي
١٢٨٤	»	شرح مقامات الحريري للشريشي
—	خط	الكشكول لبهاء الدين العاملي
—	دمشق	يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر للثعالبي
—	—	زهر الآداب وثمر الألباب بهامش العقد الفريد للمصري
١٢٨٤	المطبعة الأميرية	غرر النصاب الواضحة للوطواط
—	خط	شرح العيون لرسالة ابن زيدون لابن نباتة المصري
١٢٩١	المطبعة الأميرية	تزيين الأسواق في أحوال العشاق لداود بن عمر
١٢٦٩	الموصل	فاكهة الخلفاء لابن عمر شاه
١٢٥١	المطبعة الأميرية	كتاب الف ليلة وليلة

السنة	الطبع	
١٣٩٠	المطبعة الأميرية	نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي ...
—	باريس	كليلة ودمنة لابن المقفع
—	المطبعة الأميرية	حلبة الكيت لشمس الدين النواجي
١٣٨٧	القسطنطينية	الموازنة بين أبي تمام والبحترى
—	—	مطالعات في لطائف العرب وروبيع الأبرار للزخشمري وغير ذلك

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق

في يوم ٤ من شهر رمضان سنة ١٣٥٦

(٧ من نوفمبر سنة ١٩٣٧) م

مدير المطبعة الأميرية (بالتبابة)

شاهد بكري



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

[illegible]

893.7M883

R

MAR

5 1941

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58875395

893.7M883 R

Hadarat al-Islam II